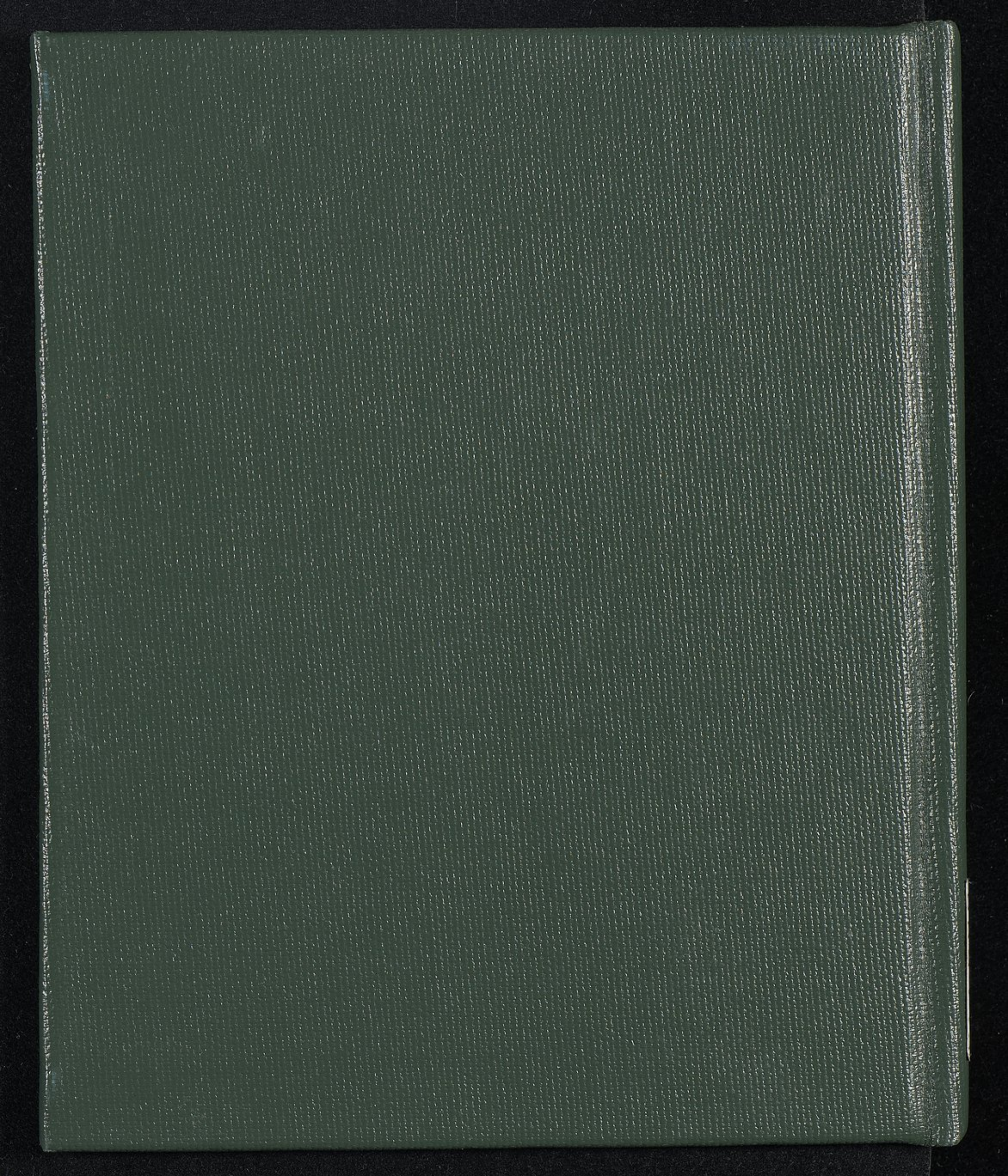
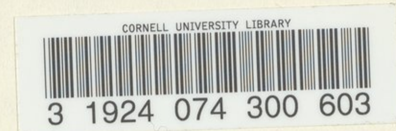



CORNELL UNIVERSITY LIBRARY
3 1924 074 300 603

كتاب الهلال

الزعيم
احمد عرابي

تأليف

عبد الرحمن الرافعي بك



سلسلة شهرية
تصدر عن دار الهلال



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان

مدير التحرير : طاهر الطناحى

العدد ١٠ ـ مارس ١٩٥٢ ـ جماد آخر ١٣٧١

No. 10 — March 1952

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك
(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتبات

كتاب الهلال ـ بوستة مصر العمومية ـ مصر

التليفون : ٧٩٨١٠ (تسعة خطوط)

الاشـــتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ـ مصر والسودان ٨٥ قرشا صاغا ـ سوريا ولبنان ١١ ليرة سورية او لبنانية ـ الحجاز والعراق والاردن ١١٠ قروش صاغ ـ فى الامريكتين ٥ دولارات ـ فى سائر أنحاء العالم ١٥٠ قرشا صاغا أو ٩/٣٠ شلنا

عرابى

الزعيم الثائر

تأليف

عبد الرحمن الرافعي بك

دار الهلال بمصر



مقدمة

ان سـيرة أحمد عرابى ـ زعيم الثورة العرابية ـ قد اختلف فيها الرواة والمؤرخون ، والكتاب والمؤلفون ، بين قادح ومادح ، وأنصار وخصوم ، وقد عرضت لها فى كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ، ولكنها متناثرة بين فصوله وأبحاثه ، فرأيت أن أضع كتابا خاصا عن هذه السيرة ، وهو الذى أقدمه اليوم

والمنهج الذى اتبعته فى الترجمة لعرابى هو أن أذكر ماله وما عليه ، لأن تاريخه ليس كله محاسن ، ولا كله مآخذ ، بل تجتمع فيه المحاسن والأضداد ، وخير التراجم ما يتناول شخصية المترجم من نواحيها المختلفة ، والمتباينة أحيانا

تولى عرابى زعامة الجيش وزعامة الأمة فى فترة من أهم فترات التاريخ المصرى الحديث ، فهو جدير بأن يوفى حقه من الدراسة والتدوين

وعندى أن لسيرته منذ تولى الزعامة مرحلتين، فالأولى هى المرحلة الموفقة فى تاريخ الثورة العرابية ، اذ ظفرت فيهـا الأمة بالنظام الدستورى وتقرير حقوقهـا السياسية ، وكان لعرابى الفضل الأول فى هذا الظفر القومى ، وتبدأ

المرحلة الثانية من تنحيـــة شريف باشا عن رياسة الوزارة فى فبراير سنة ١٨٨٢ ، فأخذت الثورة تتعثر في خطاها ، ولو أن عرابى أبقى على وزارة شريف باشا لكان من المرجح أن تستمر الثورة على صراطها المســـــتقيم ، وتتغلب على ما اعترضها من العقبات والعراقيل ، ولكن الجد العاثر سار بها فى طريق محفوف بالأشواك والعثرات

لقد تحريت الحقائق فى تدوين هذه السيرة، بحيث أرجو أن تكون فى جملتها صورة حية صادقة للزعيم أحمد عرابى

يناير سنة ١٩٥٢ **عبد الرحمن الرافعى**





أحمد عرابى باشا وزير الحربية

نشأة الثائر
وأسباب الثورة

العصر الذى ظهر فيه عرابى

نحن الآن فى منتصف القرن التاسع عشر ، وقد تولى سعيد باشا أريكة مصر سنة ١٨٥٤ ، وظل يتولاها الى سنة ١٨٦٣ ، وامتاز عهده بنهضة وطنية ترجع الى شخصيته ونفسيته ، فلقد كان يميل بجوارحه الى خير المصريين ورفاهيتهم ، ويعمل على تحريرهم من نير المظالم التى كانوا يعانونها ، ويشجعهم على تقلد المناصب العالية فى الجيش والادارة ، بعد أن كان معظمها وقفا على الترك والشراكسة

فى هذا العصر بدأت شخصية أحمد عرابى فى الظهور ، اذ نال رتبة ملازم فى الجيش سنة ١٨٥٨ ، ومن يومئذ أخذ يرتقى فى الرتب العسكرية

فمن هو ذلك الضابط الذى بلغ مرتبة القيادة وعقد له الجيش بل عقدت له الأمة لواء الزعامة سنة ١٨٨١ ؟

نشأته الأولى

ولد أحمد عرابى فى ٣١ مارس سنة ١٨٤١ فى « هرية رزنه » وهى احدى قرى مديرية الشرقية على مقربة من الزقازيق ، وكان أبوه شيخ البلد ، وهو من عائلة بدوية استوطنت تلك القرية فى عهد جد عرابى ، ولما شب وترعرع ، علمه أبوه مبادىء القراءة والكتابة ، وعهد الى رجل يدعى ميخائيل غطاس كان صرافا فى البلد تدريبه على الكتابة والأعمال الحسابية ، ومكث يتمرن على يديه نحو خمس

سنوات ، ثم أرسله والده الى الجامع الأزهر سنة ١٨٤٩ لطلب العلم ، فمكث فيه أربع سنوات ، أتم في خلالها استظهار القرآن الكريم وتلقى شيئا من اللغة والفقه والتفسير

وبعد أن عاد الى بلده ، دون أن يتم دراسته فى الأزهر، التحق بالعسكرية فى ٦ ديسمبر سنة ١٨٥٤ جنديا بسيطا « نفرا » تنفيذا لما قرره سعيد باشا من تجنيد أولاد العمد والمشايخ ، ولاجادته القراءة والكتابة والحساب عين كاتبا بدرجة « بلوك أمين » بالأورطة الرابعة من الاى المشاة الأول

وفى سنة ١٨٥٨ رقى الى مرتبة الضباط ، وذلك حين اعتزم سعيد باشا ترقية المصريين فى الجيش ، فنال فى تلك السنة رتبة ملازم من تحت السلاح ، وهو بعد فى السابعة عشرة ، ثم رتبة يوزباشى سنة ١٨٥٩ ، ثم رتبة صاغ سنة ١٨٥٩ ، ثم رتبة بكباشى سنة ١٨٦٠ ، ثم صار قائم مقام فى سبتمبر سنة ١٨٦٠ ، وقد حظى برضا سعيد باشا ورافقه فى زيارته للمدينة المنورة ياورا له سنة ١٨٦٠ ، وكان لهذه الزيارة أثر كبير فى نفسه ، اذ آنس من سعيد عطفا كبيرا على طبقة الفلاحين ، ثم بدا لسعيد أن ينقص عدد الجيش ، فألغى بعض الفرق وفصل ضباطها من الخدمة ، ومنهم أحمد عرابى ، ثم أمر باعادتهم قبيل وفاته ، وعاد عرابى الى سابق رتبته

من هذا البيان يتضح أن ليس في نشأة عرابي شيء يستوقف النظر ، بل هى نشأة عادية لرجل عادى ، لم يتميز فى ماضيه بالبطولة ، ولم يخض غمار المعارك والحروب ، كان ضابطا من تحت السلاح ، ونال مرتبة الضباط لأن سعيد باشا وضع قاعدة امكان ترقية الضباط من بين أفراد الجند رغبة منه فى اكثار عددهم ٠ ولا غبار

على هذه النشأة فى شىء ، وليس ثمة ما يمنع صاحبها من أن يقوم بدور هام فى حياة البلاد السياسية والقومية

متى وكيف بدأت دعوته الوطنية ؟

يبدو من التأمل فى حياة عرابى أن دعوته الوطنية قد بدأت تخالجه فى عهد سعيد باشا ، فقد سمعه يلقى خطبة فى « قصر النيل » مقر وزارة الحربية وقتئذ ، قال فيها مخاطبا الحاضرين من العلماء والرؤساء الروحانيين وأفراد الأسرة الحاكمة وكبار رجال الحكومة الملكيين والعسكريين :

« أيها الاخوان .. انى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض ، فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرا ...

« وحيث انى أعتبر نفسى مصريا فوجب على أن أربى أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا ، حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب ، وقد وطدت نفسى على ابراز هذا الرأى من الفكر الى العمل »

يقول عرابى تعليقا على هذه الخطبة انه لما انتهى سعيد باشا من القائها خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حنقين ، مدهوشين مما سمعوا ، وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا ، ويقول انه اعتبر هذه الخطبة أول حجر فى أساس مبدأ « مصر للمصريين »

ولا شك أن خطبة سعيد باشا لم تصادف فى نفس عرابى موضع الاقناع والغبطة الا لأن روحه كانت وطنية ، فهى تقبل ما يوافق ميولها واتجاهاتها

على أن دعوته الوطنية لم تنضج الا فى عهد الخديو اسماعيل ، ذلك أنه حين خلف سعيد باشا فى ولاية الحكم فقد عرابى عطف ولى الأمر الجديد ، اذ لم يكن اسماعيل

يأخذ بسنة سلفه فى العطف على الضباط الوطنيين، فعادت الحظوة فى الجيش الى الضباط الشراكسة ، فكان ذلك من أسباب تذمر عرابى واتجاه أفكاره الى المطالبة بحقوق الضباط الوطنيين

ووقع له حادث فى أوائل عهد اسماعيل كان له أثر كبير فى اتجاه أفكاره وتكوين دعوته الوطنية، فقد وقعت خصومة بينه وبين اللواء خسرو باشا الشركسى أدت الى تقديمه الى مجلس عسكرى والحكم عليه بالسجن واحدا وعشرين يوما، فاستأنف عرابى هذا الحكم أمام المجلس العسكرى الأعلى ، فقضى بالغاء الحكم الابتدائى ، وحدث خلاف بسبب هذا الحكم بين وزير الحربية وقتئذ - اسماعيل سليم باشا - ورئيس المجلس الأعلى ، لأن الوزير كان يرغب فى تأييد الحكم الابتدائى ، فسعى لدى الخديو اسماعيل فى فصل عرابى من الجيش ، فتم له ما أراد ، فأورثته هذه الحادثة بغضا شديدا للشراكسة.

ورفع ظلامته من هذا القرار الى الخديو اسماعيل ، وظلت بين النظر والاهمال ثلاث سنوات ، وقد توسط له بعض الخيرين فالتحق بوظيفة فى دائرة الحلمية ، وفى أثناء قيامه بهذه الوظيفة تزوج من كريمة مرضعة الأمير الهامى باشا وهى أخت حرم الخديو توفيق من الرضاعة ، وتوصل بذلك الى استصدار أمر من الخديو اسماعيل بالعفو عنه واعادته الى الجيش برتبته العسكرية ، ولكنه حرم مرتبه مدة فصله، فتأصلت فى نفسه روح الكره لرؤساء الجيش من الشراكسة والترك الذين كانوا سببا فى تأخير ترقية الضباط المصريين، ومنهم عرابى ذاته، فقد ظل تسعة عشر عاما برتبة قائممقام، وهى الرتبة التى نالها فى عهد سعيد باشا ، وشهد عرابى محاباة الرؤساء لصغار الضباط الذين هم من أصل شركسى ، ممن هم دونه مرتبة ، حتى فاقوه فى الرتب العسكرية

لا لسبب سوى أنهم من مماليك أو أبناء مماليك العائلة الخديوية

من ذلك الحين أخذ عرابى يبث فى نفوس الضباط الوطنيين فكرة الاتحاد والمطالبة بحقوقهم ، ورفع الحيف عنهم ، وكان للباقته وفصاحته في الكلام ، واستناده الى بعض الأحاديث الشريفة النبوية والحكم المأثورة ، تأثير كبير فى نفوس الضباط اجتذبهم اليه ومال بهم الى تلبية ندائه والاستماع لنصائحه والاقتناع بدعوته ، ذكر محمود فهمى باشا أحد زعماء الثورة العرابية فى هذا الصدد ، أن عرابى دخل سنة ١٨٧٥ أحد الآلايات المرابطة بناحية رشيد ، فأخذ من ذلك الوقت فى تأليف قلوب الضباط الوطنيين « أولاد العرب » على حد تعبيره وجمع كلمتهم على ولائه واظهار الأسف لحرمانهم من الترقيات فى حين أن الضباط الترك والشراكسة مغمورون بها

فيمكن اعتبار سنة ١٨٧٥ بدء دعوة عرابى الوطنية ، وكان ذلك فى عهد الخديو اسماعيل

ولما تولى توفيق باشا مسند الخديوية رقى عرابى الى رتبة أمير آلاى فى يونيه سنة ١٨٧٩ ، وأصدر الخديو أمره بذلك وهو فى الاسكندرية ، فتوجه عرابى الى سراى رأس التين وقدم للخديو شكره مقرونا بعبارات الاخلاص والولاء، فشمله الخديو برعايته ، وجعله ضمن ياورانه ، وعينه أمير آلاى لآلاى المشاة الرابع الذى كان مركزه بالقاهرة ، ويعرف بآلاى العباسية ، وظل يشغل هذا المنصب حتى شبوب الثورة سنة ١٨٨١

أسباب الثورة

توصف ثورة عرابى بأنها ثورة عسكرية ، وهذا صحيح لا مراء فيه اذا لاحظنا أن زعيمها والقائمين بها هم من ضباط

الجيش ، وأنها قامت وتحركت وفازت وقتا ما بقوة الجيش، ثم انتهت بهزيمته

ولكن مما لا ريب فيه كذلك أنها ليست ثورة عسكرية فحسب ، بل هى أيضا ثورة قومية ، اشتركت فيها طبقات الأمة كافة ، واذا أردنا أن نستقصى أسبابها وجدناها على نوعين : أسباب خاصة أو مباشرة ، وهى المرتبطة بطبقة الضباط والجند وموقفهم من الحكومة ، وموقف الحكومة منهم . وأسباب عامة ، وهى التى تتصل بحالة الشعب والعوامل التى دفعته الى مناصرة الثورة وتأييدها . واذ كانت الأسباب الخاصة أقوى أثرا فى ظهورها وتطورها ، فلنبدأ بالكلام عنها ...

الأسباب المباشرة

ترجع هذه الأسباب الى تذمر الضباط الوطنيين من سوء معاملة رؤسائهم ، وخاصة عثمان رفقى باشا وزير الحربية فى عهد وزارة رياض باشا ، التى شبت الثورة فى عهدها

كان عثمان باشا رفقى قائدا شركسيا متعصبا لجنسه يتحيز للضباط الذين هم من أصل شركسى أو تركى أو ارناءودى ، ويعمل على جمع زمام السلطة فى أيديهم ، ويؤثرهم فى الترقيات والتعيينات على الوطنيين الذين كان ينظر اليهم بعين الزراية والبغض

وكان عثمان رفقى من ناحية الكفاية جاهلا ، قليل الادراك والذكاء ، عديم المواهب ، قليل النظر فى العواقب، يمثل طبقة الرؤساء العسكريين المنحدرين من سلالة الترك والشراكسة الذين كانت لهم رياسة الجيش فى عهد اسماعيل وأوائل عهد توفيق . ولم يكن الضباط الوطنيون يجدون منهم فى الجملة انصافا ، ولا مساواة ، ولا معاملة حسنة ، ولو أن اسماعيل درج على سنة سعيد فى تشجيعه المصريين

وترقيتهم فى المناصب العسكرية ، لسادت روح المساواة فى الجيش • ولما هيأ أمثال عثمان رفقى السبيل الى الفتنة

ولا مراء فى أن اسماعيل كان يميز الضباط والرؤساء الشراكسة والترك على الوطنيين فى المعاملة ، برغم ما بدا منهم من العجز والجهل وعدم الكفاية ، مما ظهر أثره جليا فى الهزائم التي حاقت بالجيش سنة ١٨٧٥ – ١٨٧٦ فى حرب الحبشة • وعلى ما كان لهذه الهزائم من أسوأ الأثر فان اسماعيل لم يحاسب أولئك القواد والضباط على ما وقع منهم من الاهمال والتقصير ، وقيل انه اعتزم محاكمة راتب باشا قائد هذه الحملة ، ولكنه ما لبث أن رجع عن ذلك •• فقربه اليه وجعله من خاصة بطانته

وهذا يدلك على شديد ميله الى تلك الفئة •• فكانت لها الحظوة لديه، ثم لدى الخديو توفيق • ولو ظلت روح المساواة التى بثها سعيد فى الجيش سائدة فى عهد اسماعيل وتوفيق ، لما قامت الثورة العرابية ، لأن عرابى وصحبه لم يثوروا الا حين طفح الكيل من محاباة أمثال عثمان باشا رفقى للترك والشراكسة ، واضطهادهم للضباط الوطنيين•

فعرابى وصحبه كانوا على حق فى المرحلة الأولى من الثورة، لأن الطبيعة البشرية مفطورة على كراهية الظلم والاضطهاد• ومن صفات النفس الانسانية الثورة على المظالم • ولم تكن المظالم التى يشكو منها الضباط الوطنيون مقصورة على حرمانهم حقوقهم فى الترقى ، بل كانوا كذلك هدفا لأشد ضروب العنت والارهاق ، اذ كان يكفى أن تلصق بأحد منهم تهمة ما ، ولو لم تكن صحيحة ، ليكون جزاؤه أن تنزع منه درجته أو يقصى عن منصبه ، أو ينفى الى أقاصى السودان ، وتصبح حياته عرضة للخطر لأوهى الأسباب

فالثورة العرابية كانت ثورة دفاع عن الحق ، ودفاع عن الحياة • وليس من ينكر ما كان عليه معظم الرؤساء

الشراكسة والترك والارناءود من الغلظة والغطرسة ، والزهو والخيلاء ، والزراية بالوطنيين ٠٠ فان هذه النزعات كانت فاشية فيهم ، لا فى مصر وحدها ، بل فى سائر بلاد السلطنة العثمانية القديمة ، اذ كان العرب يعانون سوء معاملة الترك لهم واضطهادهم اياهم ، وكانت هذه المعاملة من أسباب قيام الفتن والثورات فى السلطنة العثمانية ، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى

وما دمنا فى صدد الأسباب المباشرة للثورة ، فلا جدال فى أن ظهور أحمد عرابى كان فى مقدمة هاتيك الأسباب، فهو الذى بث فى نفوس الضباط روح التضامن والاتحاد للمطالبة بحقوقهم المهضومة ، وتقدم الصفوف لعرض مطالبهم جهارا على ولاة الأمور ، وكانت هذه المطالب فاتحة الثورة ، فهذه الجرأة كان لها أثر كبير فى ظهور الثورة ، ولو لم يظهر عرابى ، ولم تكن له تلك الشخصية التى اجتذبت اليه صفوف الضباط وبثت فيهم روح التضامن والاقدام ، لكان محتملا ألا تظهر الثورة العرابية ، أو لظهرت فى زمن آخر ، وفى ظروف وملابسات أخرى ، غير التى ظهرت فيها

وهناك سبب من الأسباب المباشرة ، يرجع الى شخصية الخديو توفيق ، فقد كان من أخص صفاته التردد والضعف، فلم يعالج الثورة فى مهدها بالحزم والشدة،أو بالعدل ورفع المظالم التى شكا منها الضباط ، بل كان موقفه منها موقف التردد والتناقض ، لا يستقر على رأى واحد ، ولا على خطة واحدة ٠٠ بل كان يقابل حركة الضباط تارة باللين وآونة بالشدة ، ثم يجنح الى التراخى والضعف ، ثم الى الشدة بعد الضعف ٠ ولم يكن صريحا فى سياسته ولا فى تصرفاته ، وكان له عدا ذلك من ظروفه العائلية ما يشجع عوامل التحريض على الثورة ، فان اسماعيل كان لا يفتأ

يسعى فى العودة إلى الحكم ، ولا يرضيه أن يستقر ابنه على العرش .

ومن هنا جاء الظن بأن لاسماعيل ضلعا فى مؤامرة الضباط الشراكسة التى أججت نار الخلاف بين الخديو والعرابيين ، كما سنذكره فى موضعه • وكذلك كان له من الأمير محمد عبد الحليم بن محمد على الكبير منافس قوى فى التطلع الى مسند الخديوية • وكان وجود عبد الحليم فى الآستانة ــ مهبط الفتن والدسائس ــ واتصاله برجال المابين ، عاملا قويا لتهيئة الأفكار لتوقع خلع توفيق ، كما خلع أبوه من قبل • هذا الى أن الأمير عبد الحليم كان بحسب نظام الوراثة القديم أحق بالعرش من توفيق لأنه أكبر أفراد الأسرة الحاكمة سنا .

ولم يتبدل هذا النظام الا فى عهد اسماعيل اذ جعل العرش فى ذريته ــ فرمان ٢٧ مايو سنة ١٨٦٦ ــ فكان توفيق أول من أفاد من النظام الجديد ، ولم يكن قبل صدور هذا الفرمان يتطلع الى العرش ، ولا كان معترفا له بالزعامة من أمراء آل بيته ، وبخاصة الأميرات ، اذ كن ينعين على والدته أنها قينة من جوارى اسماعيل • فهذا المركز القلق من شأنه أن يحرض على الثورة ، أضف الى ذلك أن أعضاء وزارة رياض باشا كانوا مختلفى الرأى والنزعات فى مواجهة الثورة ، فكان هذا الموقف وما ينطوى عليه من الاضطراب والتنافس من العوامل التى أعانت على ظهور الثورة ونجاحها .

وثمة أسباب عامة يشترك فيها الشعب بجميع طبقاته ، منها أسباب سياسية ، وأخرى اقتصادية ، وثالثة اجتماعية .

الأسباب السياسية

فالأسباب السياسية ترجع الى تذمر المصريين عامة من

سوء نظام الحكم القائم ، ورغبتهم فى التخلص منه ، فقد كان قوام هذا النظام استبداد الحكام واضطهادهم الأهلين

لم يكن ثمة عدل ولا قانون ، ولا قضاء ينتصف للمظلوم ويعطى كل ذى حق حقه ، ولا حرية ، ولا مساواة ، ولا ضمانات قانونية تكفل للناس حقوقهم وحياتهم ٠ وكان الضرب بالكرباج شائعا يتخذه الحكام وسيلة لتحصيل الأموال ، أو أداة للقسوة والتعذيب ٠٠ حقا ان رياض باشا أمر بابطاله ، ولكن أوامره فى هذا الصدد لم تنفذ تنفيذا تاما ، وبقى الكرباج في كثير من النواحى أداة للحكم ، وكانت السخرة مضروبة على البلاد ، ولم تكن مقصورة على المنافع والأعمال العامة ، بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان ذوى السلطة والجاه من الحكام والأمراء ٠ وكان النفى الى أقاصى السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكاية ٠ ذكرت جريدة « المونيتور اجبسيان » ـ الجريدة الرسمية الفرنسية للحكومة ـ أنه لما ألف شريف باشا وزارته بعد قيام الثورة العرابية تقدمت له عرائض كثيرة من المحكوم عليهم بالنفى الى السودان يطلبون رفع الظلم عنهم ، وبلغ عددهم ٩١٢ منفيا ، وهو عدد كبير يدلك على كثرة المظالم التى كان الناس يعانونها قبل الثورة ، وقد تبين من تحقيق هذه الشكايات أن كثيرين من المنفيين كان يتقرر نفيهم لمجرد محضر موقع عليه من بعض الأفراد باتهام أى شخص بأنه خطر ، أو لمجرد خطاب من أية سلطة محلية بهذا الاتهام ٠ ولم تكن المظالم مقصورة على طبقة دون أخرى ، بل كانت عامة ، يعانيها العامة والخاصة ، ولم يكن ينجو من شرها الا من كانت تشملهم رعاية أولى الأمر ، على أن هذه الرعاية لم تكن مضمونة البقاء ، بل كثيرا ما تنقلب غدرا لغير ما سبب سوى أهواء الطغاة وتقلباتهم

فالمصريون كانوا اذن يتطلعون الى التخلص من نظام

الحكم القائم ، وقد أدركت الطبقـــة الممتازة من الأمة أن اصلاح هذا النظام انما يكون بقيام الدستور وانشاء مجلس نيابى يوطد مبادىء العدل والحرية ، ويتحقـــق فيه معنى الرقابة على الحكام ، ويحول دون ارتكاب المظالم ٠٠فيأمن الناس على حقوقهم وعلى حياتهم ، ومن هنا اتحدت الطبقة المثقفة من الأمة مع الضباط الوطنيين فى الشعور والميول ، وأجمع الكل على المطالبة بالمجلس النيابى ٠ فالثورة العرابية كانت من هذه الوجهة ثورة على المظالم ، وثورة على الحـكم الاستبدادى

وليس يخفى أن البلاد عرفت شيئا من النظام الدستورى من قبل ، اذ أنشىء مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ على عهد اسماعيل ٠ ولكنه كان مجلسا لا سلطة له ، فلم يكن له أى أثر فى رفع المظالم عن الأهلين ، وقد بدأت روح الحياة والمعارضة تظهر بين أعضائه فى أواخر عهد اســماعيل ، وتطلعت أفكار الخاصة من النواب والأعيان الى اصلاح نظامه وتوسيع اختصاصه ، وحقق شريف باشا هذه الآمــال بوضع دستور على أحدث المبادىء العصرية سنة ١٨٧٩ ، ولكن الأزمة التى انتهت بخلع الخديو اسماعيل حالت دون اصداره والعمل به

وبينما كانت الطبقة المثقفة ترتقب اعلان الدستور على يد الخديو توفيق ، اذا بهم يرون شريف باشا يســتقيل لمعارضة الخديو اياه فى تشكيل مجلس النواب ، واصراره على الحـكم المطلق ٠ ورأوا الخديو يؤلف وزارة برياسته ، مما ينم عن ميوله الاستبدادية ، ثم يكلف رياض باشــا تأليف وزارة كان من مبادئها الاساسية حكم البلاد حكمـا مطلقا ، وحرمانها أى نظام دستورى ٠٠ حتى مجلس شورى النواب القديم على ما كان عليه من ضعف السلطة ، فقـد ظل معطلا زهاء سنتين ، طوال عهد وزارة رياض باشا ٠

ولم ينس الناس ما كان لهذا المجلس من بعض المـــواقف الطيبة فى أواخر عهد اسماعيل، وأنه عطل فى عهد توفيق، فكان لزاما أن يستأنفوا الجهاد للدستور· وكان طبيعيا اذا دعاهم داع الى الثورة أن يلبوا نداءه طائعين مستبشرين·· ويتبين لك من هذه الناحية أن الثورة العرابية هىاستمرار للحركة الوطنية التى ظهـرت فى أواخر عهـــد اسماعيل وامتداد لها

وكانت سياسة رياض باشا من أسباب ظهور الثورة ، فقد استهدف لحركة مقاومة قوية لما بدا منه من المعارضة فى انشاء مجلس النـــواب ، وانحيـــازه للنفوذ الأوربى ، ولما عرف عنه من الاستخفاف بميول الشعب وعدم اكتراثه لآراء الخاصة من الكبراء والأعيان ، واصراره على قمع كل معارضة بالشدة ، واضطهاده للمعارضين · ومن أمثلة هذا الاضطهاد تجريده الفريق شاهين باشا كنج وزير الحربية السابق من رتبه وألقابه لاتصاله بالحزب الوطنى ، وتقديم السيد حسن موسى العقاد للمحاكمة ، ونفيـــه الى أقاصى السودان لاعتراضه على الغاء قانون المقابلة ، ثم اضطهاده للصحف المعارضة لوزارته

استهدفت الصحف المعارضة للاضطهاد فى عهد وزارة توفيق باشا ، ثم فى عهد وزارة رياض ، واســـتخدمت الحـكومة اللائحة القديمة المسماة لائحـــة أو (نظامنامه) المطبوعات لانذار الصحف أو تعطيلها ، ففى عهد الوزارة التى رأسها توفيق باشا عطلت الحكومة جريدة « مـرآة الشرق » لمدة شهر · وأنذرت جريدة « التجـــارة » ، ثم عطلت جريدة « مرآة الشرق » لمدة خمسة أشهر « لأنها اعتادت الدخول فيما لا يعنيها ، ونشرت مطالعات سخيفة مخترعة من تلقاء نفسها خرجت فيها عن حدود وظائفها» · وفى عهد وزارة رياض باشـــا أنذرت جريدتا « مصر »

و « التجارة » لنشرهما مقالات عدتها الحكومة غير معتدلة تخدش الأذهان ، ثم عطلتا تعطيلا نهائيا لاصرارهما على خطة المعارضين

كانت جريدتا « مصر » و « التجارة » من أقوى صحف المعارضة ، تجلت فيهما روح السيد جمال الدين ، ولا غرو فصاحبها ومنشئها هو أديب اسحق من خاصة تلاميذ الحكيم الأفغانى ، أنشئت الأولى سنة ١٨٧٧ والثانية سنة ١٨٧٨ فى أواخر عهد اسماعيل ، وكانتا فى عهد توفيق لا تفتأ كل منهما تنشر المقالات الحماسية وتنتقد سياسة الحكومة وتندد بتفريطها فى حقوق البلاد ، فلم تطق وزارة رياض باشا صبرا على مسلكهما وأصدرت قرارها بتعطيلهما تعطيلا نهائيا

وأنذرت جريدة « مصر الفتاة » لطعنها على الحكومة لمناسبة توسيع اختصاصات الرقيبين الماليين ثم عطلت تعطيلا نهائيا لنشرها مقالات وأخبارا عدتها الحكومة مهيجة للخواطر والأفكار، ومنعت جرائد «النحلة» و «أبو نضارة» ثم « أبو صفارة » و « القاهرة » و « الشرق » من دخول القطر المصرى ، وأنذرت جريدة « الاسكندرية » ثم عطلتها شهرا ، وعطلت جريدة «المحروسة» لمدة خمسة عشر يوما . ولم يقتصر الاضطهاد على الصحف العربية ، بل تناول الصحف الأوربية ، فعطلت جريدة « الريفورم » تعطيلا نهائيا وأغلقت مطبعتها بحجة أنها تنشر مقالات مثيرة للأفكار ، وأنذرت جريدة « الفارد الكسندرى »

فالصحف المعارضة ، وما كانت تبثه فى الأفكار من روح التبرم بنظام الحكم والتطلع الى الحرية والدستور ، وما لقيته من الاضطهاد . كل ذلك كان من الأسباب الممهدة للثورة والمحرضة عليها

وقد اشتد ساعد الحركة بتأليف جمعية من الناقمين

من سياسة رياض باشا، عرفوا بالحزب الوطنى «القديم» ، وقد نشروا فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٧٩ أول بيان سياسى لهم ، وطبعوا منه عشرين ألف نسخة ٠ وسعى رياض فى معرفة ناشريه لاقصائهم الى السودان فلم يستطع الى ذلك سبيلا ٠ ويقول المسيو جون نينيه الذى عاصر حوادث الثورة العرابية : « ان اخفاق رياض فى تعقب ناشرى هذا البيان شجع خصومه على متابعة العمل لاسقاطه ، وأن منهم الخديو توفيق ذاته ٠ ومن بينهم الباشوات الأربعة شريف باشا ، واسماعيل راغب باشا ، وعمر لطفى باشا ، وسلطان باشا - وأنهم أوفدوا الى باريس أديب اسحق لانشاء جريدة القاهرة - وقد رحل فعلا الى أوربا بعد الغاء جريدتيه « مصر » و « التجارة » ٠ وأصدر بباريس جريدة معارضة لوزارة رياض ، وكانت من أشد الصحف لهجة ضدها ، فكانت من أقوى العوامل فى اثارة الأفكار على رياض ووزارته ٠ وتعقبها رياض لمنع تداولها فى مصر، ولكن الباشوات الأربعة كانوا يوزعونها فى أنحاء البلاد٠ وتعددت الاجتماعات السرية فى منزل سلطان باشا لتنظيم الحزب الوطنى ، وقويت الروابط بين منظميه ٠٠ وكان فى مقدمتهم سلطان باشا وأحمد عرابى بك وصاحباه عبد العال حلمى وعلى فهمى ، ومحمود سامى البارودى باشا وسليمان أباظة باشا - مدير الشرقية - وحسن الشريعى باشا - مدير المنيا - ومحمود فهمى باشا

ويقول المسيو « جون نينيه » : ان الغرض من ضم المديرين الى الحزب هو نشر الدعاية له فى الأقاليم ، وأن سلطان باشا بوجاهته وثرائه - اذ كان يمتلك نحو ثلاثة عشر ألف فدان من أجود الأطيان - كان يطمع فى رياسة الحزب رغم ضعف أخلاقه ودخيلة نفسه ، ولم يكن يتطلع

الى الوزارة لأنه لم يكن كفؤا لها ، بل كان يرنو الى رياسة مجلس النواب

ويقول عرابى فى مذكراته عن تأسيس الحزب الوطنى : انه تألف من لفيف من العظماء والكبراء والعلماء والنبهاء ، ويرجع تأليفه الى التذمر من تغلغل النفوذ الأوربى فى الحكومة - فألف أولئك الكبراء هذا الحزب ، وجعلوا مركزه مدينة « حلوان » ونشروا عدة منشورات فى الصحف الفرنسية نصحوا فيها للحكومة بمراعاة مصالح البلاد وأعلنوا عن وجود الحزب الوطنى ، وبينوا واجباته وحقوقه، ثم اعترضوا على « الدين الممتاز » واختصاصه بالضمان وطلبوا المطالب الآتية :

أولا - تعاد الى الحكومة المصرية جميع الأملاك المسماة بالخديوية

ثانيا - يلغى النص القاضى بتخصيص السكة الحديدية للقرض الممتاز - فى قانون التصفية - فان لم يرض بذلك الدائنون من الانجليز تعين عليهم قبول ذلك الدخل كما هو من غير أن تؤخذ بقية الفائدة المخصصة لهم من الدخل العام

ثالثا - أن تكون الديون الممتازة والسائرة والمنتظمة دينا واحدا مضمونا بمال الأمة والبلاد بفائدة مقدارها ٤ ٪ فى المائة

رابعا - أن تقام ادارة مراقبة وطنية خاصة مؤقتة يكون فيها ثلاثة من الأجانب تعينهم الدول وتقرهم الحكومة المصرية

□

فرواية عرابى عن تأسيس الحزب الوطنى لا تختلف فى جوهرها عن رواية نينيه • ويقول عرابى انه لما علمت الحكومة بوجود هذا الحزب شددت الرقابة على زعمائه

وهددتهم واضطهدتهم . وكان الفريق شاهين كنج باشا وزير الحربية السابق من زعماء هذا الحزب ، فاحتمى بالحماية الايطالية وغادر مصر الى ايطاليا فصدر أمر الخديو فى ١٤ يونية سنة ١٨٨٠ بتجريده من رتبه وألقابه ومحو اسمه من دفاتر ضباط الجيش . وبنى الأمر على أنه دخل فى حماية دولة أجنبية دون أن يعطى له اذن بذلك ، وأنه سافر من مصر بدون جواز سفر مستعينا بجواز سفر حصل عليه من حكومة أجنبية دون أن تعترف به الحكومة المصرية

يتبين مما تقدم أن الحزب الوطنى كان له أثر كبير فى ظهور الثورة العرابية ، وكانت بالاسكندرية جمعية أخرى عرفت بجمعية « مصر الفتاة » رفعت عريضة الى الخديو بمطالب الحرية وأنشأت جريدة « مصر الفتاة » للدعوة الى الحرية وهى الجريدة التى عطلتها الحكومة كما تقدم

وثمة عامل آخر ، يتصل بالأسباب السياسية ، كان له أثره فى التحريض على الثورة ، ويعد من مقدماتها ، وهو حدوث سابقة للثورة العرابية .. ونعنى بها ثورة الضباط على وزارة نوبار باشا أواخر عهد اسماعيل فى فبراير سنة ١٨٧٩ ، فان تلك الثورة هى صورة مصغرة للثورة العرابية ، اذ قامت على أكتاف الضباط ، وكان الباعث عليها شكواهم من تأخير مرتباتهم واحالة ٢٥٠٠ منهم الى الاستيداع ، فذهب نحو ستمائة ضابط منهم يتبعهم لفيف من طلبة المدرسة الحربية ونحو ألفين من الجنود الى وزارة المالية بحجة رفع ظلامتهم الى نوبار باشا والسير ريفرس ويلسن وزير المالية وقتئذ ، فهجموا على نوبار باشا واعتدوا عليه بالضرب ، وكذلك اعتدوا على السير ريفرس ويلسن ، واقتحموا أبواب الوزارة واحتلوا غرفها وقاعاتها وحبسوا نوبار باشا ، ورياض باشا ــ وكان وزيرا للداخلية ــ والسير ريفرس ويلسن فى احدى غرف الدور

الأعلى • وكانت نتيجة تلك الثورة سقوط وزارة نوبار • فهذا الفوز الذى أحرزه الضباط سنة ١٨٧٩ قد أغرى عرابى وصحبه بالثورة سنة ١٨٨١

الأسباب الاقتصادية

لم تكن الحالة الاقتصادية خيرا من الحالة السياسية ، بل كانت أدعى منها الى الثورة •• فالديون التى اقترضها الخديو اسماعيل ألقت على البلاد عبئا جسيما من الأثقال الفادحة ، واضطرت الحكومة الى تخصيص نصف موارد الميزانية لسداد فوائد الديون • فكان ذلك سببا لتذمر الأهلين خاصتهم وعامتهم ، لأن تخصيص هذا المبلغ الضخم ، الذى يجبى كل عام من عرق الفلاح وكده ، معناه حرمان الأهلين ثمرة جهودهم ومتاعبهم ، واضاعتها لحساب الدائنين •• هذا فضلا عن فداحة الضرائب فى مجموعها ، وعدم توزيعها توزيعا عادلا ، واقتضائها بوسائل القهر والارهاق • فانضم الأهلون الى الثورة وشايعوها آملين أن تخفف عنهم أعباء الضرائب•وكان استفحال نفوذ الأجانب عامة،واستحواذهم على مرافق البلاد الاقتصادية،مما دعا الى تبرم الأهلين بنظام الحكم •• فان الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها والمزايا التى نالها التجار والمرابون منهم قد أكسبتهم الأموال الطائلة فأثروا على حساب الخزانة المصرية وعلى حساب الأهلين

وزاد فى تذمر المثقفين والأعيان استسلام الحكومة فى عهد وزارة رياض باشا لمطالب الدائنين وحكوماتهم ، فقد أقرت نظام الرقابة الثنائية كما أملاه القنصلان الانجليزى والفرنسى ، وخولت الرقيبين الاوربيين سلطة واسعة المدى فى شؤون الحكومة المالية ، واتسع النفوذ الاوربى داخل الحكومة بواسطة الرقيبين وخارج الحكومة لاستجابتها

لمطالب الماليين الاوربيين ، والترخيص لهم باستثمار موارد البلاد ومرافقها الاقتصادية ، فأنشئت فى عهد وزارة رياض باشا عدة مؤسسات مالية واقتصادية زادت فى طغيان النفوذ الاوربى فى حياة مصر الاقتصادية ، كالبنك العقارى – وقد تأسس فى ١٥ فبراير سنة ١٨٨٠ – وشركة تكرير السكر ، والشركة العمومية لاجراء الأشغال بالديار المصرية ، وشركة المقاولات وغيرها ، وكلها شركات أجنبية برؤوس أموال أوربية ، وأعضاؤها من الأوربيين ، وعقود تأسيسها التى صدرت بها الأوامر العالية لم تراع فيها مصالح الأهلين فى شيء .. فهذا الاسراف فى رعاية المصالح ورؤوس الأموال الأوربية ، وتمكينها من التغلغل فى كيان البلاد المالى والاقتصادى ، كل ذلك كان له أثره فى تبرم الناس بالوزارة ، فضلا عن أنه كان فى ذاته عملا غير صالح ولا يتفق والروح القومية

وزاد الأعيان سخطا على الوزارة الغاؤها « قانون المقابلة » ، فانضموا الى صفوف المعارضة ، ذلك أن ابطال ما كان يقضى به هذا القانون من اعفائهم من نصف المربوط على أطيانهم من الضرائب ، فيه ضياع أموالهم التى أدوها للحكومة مقابل هذا الاعفاء . وقد كان أكثر الأعيان اعتراضا على هذا الالغاء السيد حسن موسى العقاد ، فقدم بذلك مظلمة الى لجنة التصفية نشرها فى جريدة «الريفورم» ووصف فيها هذا العمل بأنه استبداد ، وأبان أن قانون المقابلة وما احتواه من المزايا لدافعى الضرائب مقدما هو عقد لا يجوز نقضه من جانب الحكومة وحدها ، وأن الأهالى قد احتملوا شدائد كثيرة فى أداء المقابلة ، وباعوا فى هذا السبيل مصوغاتهم وأملاكهم ، واستدانوا الديون الفادحة فكان لزاما على الحكومة أن ترد جميع ما أداه المالكون الى أصحابه ، بحيث لا يسرى مرسوم الالغاء الا بعد رد ما أخذته

الحكومة . فرأى رياض باشا أن فى تقديم هذه المظلمة الى لجنة التصفية ونشرها فى جريدة « الريفورم » معنى التشهير بالحكومة وإثارة الأفكار عليها ، وبخاصة لأن العقاد دعا الأهالى الى توقيع عرائض بهذا المعنى ، فأمر بالقبض عليه وقدمه للمحاكمة ، فحكم عليه مجلس مصر الابتدائي بالحبس سنتين . وشدد المجلس الاستئنافى هذا الحكم ، فزاده الى خمس سنوات . ولم تكتف الحكومة بذلك ، بل قضى « مجلس الأحكام » بنفيه الى فازوغلى بأقاصى السودان ، ونفذ فيه الحكم وسيق الى فازوغلى .. ولم يفرج عنه الا فى عهد وزارة شريف باشا بعد انشاء مجلس النواب . يضاف الى ذلك صدور قانون التصفية -يوليه سنة ١٨٨٠- فقد ظهر فيه من التحيز للدائنين الأجانب والاجحاف بالأهلين ، ما زاد الناس كرها لوزارة رياض باشا ، وزاد الأعيان والملاك سخطا عليها لما فرضته عليهم من زيادة ضريبة العشر على أطيانهم

ومن مظاهر سياسة الحكومة الاقتصادية انقاص عدد الجيش توفيرا للنفقات .. وهذا النقص كان له سبب آخر يتصل بالحالة السياسية ، وهو صدور الفرمان السلطانى لتوفيق باشا مشتملا على انقاص عدد الجيش العامل الى ١٨ ألف جندى . ولكن السبب الاقتصادى كان له أكبر الأثر في هذا النقص ، لأن عدد الجيش نقص الى اثنى عشر ألفا أى الى أقل مما حدده الفرمان السلطانى ، وقد استتبع هذا النقص احالة كثير من الضباط الى الاستيداع ووقوعهم فى الضيق المالى . ولم تعن الحكومة بتدبير وظائف لهم تعوضهم عما نقص من رواتبهم ، فانضموا بطبيعة الحال الى الناقمين

وشارك الموظفون ضباط الجيش فى شعورهم ، اذ رأوا من مظاهر اتساع سلطة الرقيبين الأوربيين ما يثير فى نفوسهم روح السخط والتبرم ، وأهم هذه المظاهر ازدياد

نفوذ الموظفين الأوربيين فى دور الحكومة ، وزيادة عددهم ، وتمييزهم بالمرتبات الضخمة .. فاستاء لذلك الموظفون الوطنيون

وخلاصة ما تقدم أن الثورة العرابية هى من الوجهة السياسية ثورة على الاستبداد والمظالم ، ومن الوجهة الاقتصادية ثورة على التدخل الاوربى فى شؤون مصر المالية وعلى النظم الاقتصادية التى كانت تعانيها البلاد قبل الثورة

الأسباب الاجتماعية

ان حالة المجتمع المصرى كانت تؤهله بلا مراء - عند أول دعوة - لتلبية نداء الحرية والثورة .. وذلك يفضل انتشار التعليم من عهد محمد على الكبير ، فالمدارس التى أسسها ، والبعثات العلمية التى أوفدها الى الخارج ، قد خرجت طبقة مثقفة نالت حظا موفورا من العلوم ، وليس يخفى أن العلم من شأنه أن يهذب النفوس وينير البصائر ، وينهض بالعقول والافكار ، ويسمو بها الى التماس الرقى والتقدم ، ويعرفها معانى الحرية والمساواة والحقوق الانسانية ، ويهيب بها الى محاكاة الأمم الحرة فى الثورة على الاستبداد . فالنهضة العلمية كان لها فضل لا ينكر فى توجيه أنظار المثقفين الى التبرم بالاستبداد والتطلع الى الحرية والدستور

واقترنت النهضة العلمية بنهضة في الأدب ، قوامها الشعراء والكتاب من أدباء ذلك العصر ، والأدب بما يطبع فى نفس الأديب من التطلع الى المثل العليا يمهد للنهضات الوطنية ويغذيها ، ويحدو الأمم الى الاستمساك بالحرية والكرامة الانسانية ، والنفور من الذل واباء الضيم والمهانة ...

فالعلوم والآداب كان لها أثرها فى تمهيد الأفكار لقبول الثورة ، وفى الدعاية لها . وقد كان لقصائد الشعراء ومقالات الأدباء وما كان يلقيه الخطباء فى المحافل والمجتمعات أثر كبير فى التحريض على الثورة

وكانت الصحافة من العوامل القوية فى ترقية الأفكار بما تكتب عن الشؤون العامة فى مصر والخارج ، وما تنشر من المقالات عن مختلف الأحوال السياسية والاجتماعية ، وما تحوى من التنويه بالأعمال النافعة وانتقاد الأعمال الضارة .. فكان لها فضل كبير فى تفتيح أذهان الناس ، وتبصيرهم بالحقائق ، وتهذيبهم وتثقيفهم ، وكان لصحف المعارضة أثرها فى احراج مركز الحكومة ، وتبرم الناس بها ، وقد استهدفت هذه الصحف للانذار والتعطيل كما تقدم ، فكان الاضطهاد يكسبها عطف الناس ويزيدهم تعلقا بها وتأييدا لآرائها وأفكارها الحرة

ويتصل بالأسباب الاجتماعية تأثير السيد جمال الدين الأفغانى فى المجتمع المصرى ، فقد ظهرت على يده بيئة استضاءت بأنوار العرفان ، وارتوت من ينابيع العلم والحكمة ، وتحررت عقولها من قيود الجمود والأوهام . وبفضله خطا فن الكتابة والخطابة فى مصر خطوات واسعة، ولم تقتصر حلقات دروسه ومجلسه على طلبة العلم ، بل كان يؤمها كثير من العلماء والموظفين والأعيان . وكان يحمل بين جنبيه روحا كبيرة ، ونفسا قوية ، تزينها صفات وأخلاق عالية،فأخذ يبث فى النفوس روح العزة والشهامة، ويحارب روح الذلة والاستكانة . وكان بنفسيته ودروسه وأحاديثه ومناهجه فى الحياة ، مدرسة أخلاقية رفعت من مستوى النفوس ، وكانت على الزمن من العوامل الفعالة للتحول الذى بدا على الأمة ، وانتقالها من حالة الخضوع

والاستكانة ، الى التطلع للحرية والتبرم بنظام الحكم القديم ومساوئه ، والسخط على تدخل الدول فى شؤون البلاد

ولئن نفى جمال الدين من مصر فى أوائل حكم توفيق ، فان روحه ومبادئه وتعاليمه تركت أثرها فى المجتمع المصرى ، وهيأته للثورة ، ولا غرو فكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه أو المتأثرين بتعاليمه ، ولو بقى فى مصر حين نشوب الثورة لكان جائزا أن يمدها بآرائه الحكيمة وتجاربه الرشيدة ، فلا يغلب عليها الخطل والشطط .

ولكن شاءت الأقدار والدسائس الانجليزية أن ينفي السيد من مصر ، وهى أحوج ما تكون الى الانتفاع بحكمته وصدق نظره فى الأمور

عرابى يتزعم الجيش

كان ضباط الجيش يتطلعون الى رجل منهم يتولى زعامتهم وتوحيد كلمتهم للمطالبة بحقوقهم المشروعة .. فوجدوا فى عرابى ذلك الزعيم ، ولقد كانت صفات الزعامة متوافرة فيه بالنسبة للظروف التى عاصرها ، فقد كان ذا شخصية قوية جذابة تؤثر فيمن حوله وتجتذبهم اليه ، وهذه أولى صفات الزعامة ، كانت أقواله تقع من نفوس الضباط والسامعين موقع الاقناع ، وهذا مظهر لقوة شخصيته ، ولولا أنه ذو شخصية كبيرة قوية لما استطاع أن يجمع الجيش وضباطه على محبته ، والانضواء تحت لوائه ، والائتمار بأوامره

ويمكن تحديد سنة ١٨٨١ لبدء زعامته العسكرية على معظم ضباط الجيش .. فى هذه السنة كان عثمان رفقى باشا يتولى وزارة الحربية ، وكان وحده من أسباب ظهور الثورة العرابية ، وآخر ما وقع منه ـ مما

عجل بالثورة – أنه أصدر أمرا بنقل الأميرالاى عبد العال حلمى حشيش بك – أحد زعماء الثورة فيما بعد – قائد ألاى طره الى ديوان الجهادية (وزارة الحربية) وجعله معاونا بها ، وفى هذا تنقيص من درجته ومركزه ، وأمر بتعيين خورشيد نعمان بك بدله ، وهو من أصل شركسى . وأصدر أمرا آخر بفصل احمد عبد الغفار بك قائمقام ألاى الفرسان ، وعين بدله ضابطا شركسيا

علم عرابى بهذه الأوامر فى ١٦ يناير سنة ١٨٨١ قبل نشرها ، فثار لها ، وقال لمن أبلغه نبأ هذه الأوامر : « ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها » ، وذهب الى داره ساخطا محنقا ، فألفى كثيرا من الضباط ينتظرونه ليتشاوروا معه فيما يجب عمله ، اذ كانوا قد بلغهم أيضا نبأ تلك الأوامر ، فأخذوا يتداولون البحث فى الموقف ، فاتفقت كلمتهم على اختيار عرابى رئيسا لهم ، وعهدوا اليه فى العمل للتخلص من هذه الحالة ، وقرروا أنهم يتضامنون معه فى تنفيذ ما يأمر به ، وأقسموا على السيف والمصحف أنهم يفدونه ويفدون الوطن بأرواحهم ، واتفقوا على كتابة عريضة الى رياض باشا يطلبون فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقى باشا



الثورة
فى مرحلتها الأولى

فاتحة الثورة العرابية

كتب عرابى العريضة وتلاها على الحاضرين ، فوافقوا عليها ووقع عليها كما وقع معه الاميرالاى على فهمى بك والاميرالاى عبد العال حلمى بك ، ووضع المجتمعون الخطط الكفيلة بالمحافظة على النظام عند قيامهم بما اعتزموه والمحافظة على حياتهم اذا أرادت الحكومة أن تبطش بهم

يعد هذا الاجتماع فاتحة الثورة العرابية ، لأن تعاهد كبار الضباط على مقاومة تنفيذ الأوامر العسكرية ، والجهر بمناصبة وزير الحربية العداء ، والمطالبة بعزله، واختيارهم عرابى رئيسا لهم فى هذه الحركة ، وحلفهم اليمين على التضامن واياه ، ومفاداته ومفاداة الوطن بأرواحهم .. كل ذلك معناه التمرد والخروج على النظام وتحدى الحكومة والاستهانة بهيبتها وقوتها ، أو بعبارة أخرى هى الثورة على الحكومة

وفى غداة ذلك اليوم – أى فى ١٧ يناير سنة ١٨٨١ – ذهب الضباط الكبار الثلاثة ، أحمد عرابى بك ، وعلى فهمى بك ، وعبد العال حلمى بك الى وزارة الداخلية ، وقدموا العريضة الى خليل يكن باشا وكيل الوزارة ، وطلبوا اليه تقديمها الى رياض باشا .. فذهب اليه ثم عاد وأخبرهم بأن رياض باشا يطلب أن يقابلوه ، فلما قابلوه وعدهم بالنظر فى الأمر . ولم تبد منه علامات السخط والغضب

وبعد أسبوع من هذه المقابلة ذهبوا الى داره وقابلوه

ثانية وسألوه عما تم فى أمر العريضة ، فأجابهم متهددا متوعدا وقال لهم ان تقديم مثل هذه العريضة يؤدى الى الهلاك ٠٠

فلم يتراجع عرابى وصاحباه أمام هذا التهديد ، وأصروا على طلباتهم ، وأبان عرابى أن ما يطلبونه هو حق وعدل ٠ وانتهى الحديث بأن أخبرهم بأنه سينظر فى الأمر ، وانصرفوا على ذلك

واقعة قصر النيل

اجتمع مجلس الوزراء يوم ٣١ يناير سنة ١٨٨١ فى سراى عابدين برئاسة الخديو ، وبحث فى أمر هذه العريضة ٠٠ فاستقر الرأى على وجوب محاكمة الضباط الثلاثة والقبض عليهم لتقديمهم الى المجلس العسكرى ٠ وأخذ عثمان باشا رفقى على عهدته تنفيذ القرار وأن يكون مسئولا اذا حصل ما يخل بالأمن ٠ ولم يعرف الضباط الثلاثة ما قرره مجلس الوزراء فى شأنهم ، ولم يخطرهم عثمان باشا رفقى بأمر القبض عليهم ٠٠ بل نفذه بطريقة ملتوية لا تدل على شعور الحكومة بهيبتها وسلطانها ، وذلك أنه تحايل عليهم وأرسل اليهم فى مساء ذلك اليوم تذاكر يدعوهم فيها الى الحضور لديوان الوزارة – بقصر النيل – صباح اليوم التالى بحجة المداولة معهم فى ترتيب الاحتفال بزفاف الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديو ٠٠

فأحس عرابى ورفيقاه المكيدة المدبرة لهم ، لانه لم تجر العادة بأن يستدعى وزير الحربية ثلاثة من أمراء الألايات للمذاكرة فى مثل هذا الشأن ٠٠ فاستعدوا للدفاع عن حياتهم ، واتفقوا على أن يلبوا الدعوة وأن يذهبوا الى قصر النيل ، على أن يصحبهم بعض ضباط الألاى الاول – ألاى الحرس ، وكان مقره بقشلاق عابدين – كعيون يرقبون الحالة

عن بعد ، لكى يبادروا الى ابلاغ اخوانهم بما يقع اذا أصاب الضباط الثلاثة مكروه

□

وصل عرابى وصاحباه الى قصر النيل ، فألفوه غاصا بكبار الضباط الموالين للحكومة · وكان المجلس العسكرى منعقدا ، فتلا على الضباط الثلاثة الأمر القاضى باعتقالهم ومحاكمتهم ، ثم نزعت منهم سيوفهم ايذانا بانفاذ الأمر·· وكان ذلك حوالى الظهر ، وسيقوا الى قاعة السجن بقصر النيل ، بين صفين من الضباط الشراكسة · وتقاذفت عليهم ألفاظ الشماتة والسباب ، ووقف عليهم الحرس وبأيديهم السيوف مسلولة · وعين عثمان باشا رفقى ثلاثة ضباط بدلهم على ألاياتهم الثلاثة

فلما علم عيون الألاى الاول باعتقال الضباط الثلاثة ، أسرعوا بالعودة الى مركز الألاى بقشلاق عابدين ، وأنهوا الى ضباطه ما وقع··فهاج الضباط جميعا ، واعتزموا انقاذ اخوانهم ، ونهض البكباشى محمد عبيد ـ بطل واقعة التل الكبير ـ مناديا الجند النداء العسكرى بالاحتشاد والتأهب للمسير · فاعترضه قائم مقام الالاى خورشد بك بسمى ، وسأله عن سبب هذا النداء ، فلم يجبه بكلمة · وأمر بعض الجنود باعتقاله فى احدى قاعات القشلاق · واصطف الجنود بأسلحتهم ، وساروا بقيادةمحمد عبيد الى قصر النيل حيث الضباط المعتقلون ··

وبينا كان الجند يستعدون للخروج من القشلاق ، علم الخديو بهذه الحركة ، وشاهدها بنفسه من سلاملك السراى المقابل للقشلاق ، فأمر الفريق راشد باشا حسنى سر ياوره بأن يتوجه اليهم لوقف الحركة ، فلم تجد هذه الوساطة نفعا ، فاستدعى الخديو الضباط فلم يحضر أحد

سار جنود الألاى الاول من قشـــلاق عابدين الى قصر النيل ٠٠ فلما بلغوه وضع البكباشى محمد عبيد الحصـار حوله ، وأمر بقية الجند بالهجوم على الديوان ، فهجم الجنود حاملين بنادقهم وفى أطرافها الرماح « السنكى »،واقتحموا الديوان صائحين صاخبين ، فوقع الرعب فى نفوس القواد والضباط الموجودين بالديوان ، وفى مقدمتهم عثمان باشا رفقى – وزير الحربية – وبادروا الى الفرار ٠ أما عثمان رفقى فقد فر من احدى النوافذ الى «ورشة» الترزية يطلب النجاة لنفسه ، وأخذ الجند يبحثون عن الضباط المعتقلين٠وتفرقوا لذلك فى جميع الغرف والجهات،وكسروا الابواب والشبابيك وكل ما عاقهم عن السير ، الى أن وصلوا الى مقر الضباط الثلاثة ، ففك البكباشى محمد عبيد سراحهم

وخرج الضباط الثلاثة من قصر النيل ظافرين ، وساروا يحيط بهم الجند الى قشلاق الألاى الاول بميدان عابدين ٠ وكان عرابى وصحبه على عهد مع ضباط الألايات الثلاثة أن يتضامنوا معهم ، ويبادروا الى نجدتهم اذا حل بهم مكروه

ولم يكد يعلم ألاى طره ، الذى كان على رأسه عبد العال حلمى ، بما حل بعرابى وصاحبيه حتى هب لنجـدتهم ٠٠ فلما حضر الأميرالاى الجديد ، خورشد بك نعمان ، ليتسلم الألاى يصحبه خورشد باشا طاهر وأحمد بك حمدى ياور الخديوى ، بادر البكباشى خضر افنـــدى خضر الى اعتقالهم ووضعهم تحت الحفظ فى غـرفة القائم مقام فرج بك الذكر واعتقله معهم ٠٠ ثم أمر بتوزيع الاســلحة والذخيرة على الجنود ، وسار بهم الى قصر النيل لانقاذ الضباط الثلاثة ٠ وقد شعر ناظر محطة طره بهذه الحركة فأرسل تلغرافا الى الخديو ينبئه بها ، فأوفد الخديو أحد ياورانه لمقابلة خضر واخبـاره بما تم من الافراج عن الضباط الثلاثة ، واقناعه بالرجوع من حيث أتى واطلاق سراح الضباط الذين سجنهم

بطره ٠٠ فلم يلق الياور اليه أذنا صاغية ، واستمر الجند سائرين بقيادة خضر افندى خضر ، وسار بهم الى ميدان عابدين لكى يشاهدوا الضباط الزعماء بعد الافراج عنهم ٠ فلما وصلوا الى ميدان عابدين ، استقبله الآلاى الاول بالتعظيم العسكرى وعزف الموسيقى ، وتقدم ضباط ألاى طره الى عرابى وصاحبيه فهنؤوهم بالسلامة ، وتعانقوا فرحين مستبشرين ٠٠ واحتشد الناس فى الميدان لمشاهدة هذا المنظر الذى لم يألفوه من قبل ٠ وعندئذ وقف عرابى خطيبا بأعلى صوته ، وأثنى على اخلاص الضباط والجند لانقاذه وانقاذ صاحبيه من السجن

أول انتصار لعرابى

كان احتشاد جنود الآلايين بأسلحتهم فى ميدان عابدين كافيا لايقاع الاضطراب فى نفس الخديو وحاشيته ، وقد استدعى وزراءه وخاصة رجاله حين بلغه نبأ ما حدث فى قصر النيل ، وتشاوروا فيما يصح عمله ازاء هذه الحركة ٠٠ فأشار محمود سامى باشا البارودى - وكان وقتئذ وزيرا للاوقاف - باجابة طلبات الجند ، وقال انى أراهم مطيعين بدليل هتافهم باسم الخديو ٠ ولم ير الخديو بدا من الاذعان ، واتفق الرأى على أن يذهب البارودى باشا يصحبه خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى ليقابلا عرابى وصاحبيه ويتعرفا ما يطلبون ، فقابلاهم وعرفا منهم أنهم يطلبون عزل عثمان باشا رفقى ، ويلتمسون العفو عنهم لان عثمان باشا هو السبب فيما حدث ٠ فعاد البارودى وخيرى باشا الى الخديو وعرضا عليه حديثهما مع الثلاثة الضباط ، فأمر باستدعائهم فحضروا والتمسوا منه العفو فعفا عنهم

واستقال عثمان باشا رفقى ، وأصدر الخديو أمره باسناد وزارة الحربية الى البارودى مع بقاء وزارة الاوقاف فى عهدته

•• فتم بهذا التعيين ثلاثة انتصارات نالها الحزب العسكرى فى يوم واحد : أولها اطلاق سراح الضباط الثلاثة ،وثانيها عزل عثمان باشا رفقى الذى كان خصما لهم ، ثم اسناد وزارة الحربية الى نصير لهم ، ومن هنا توطدت صلات الثقة بين البارودى والضباط ، اذ برهن على أنه كان مؤيدا لهم داخل مجلس الوزراء ، وظل عضدا لهم وموضع ثقتهم طوال عهد الثورة

عرابى والقناصل

وفيما كان عرابى على رأس هذه الحركة أرسل الى قنصلى انجلترا وفرنسا كتابا يسوغ فيه عمله ويبسط فيه شكواه من تصرف الحكومة • وكان البارون « دى رنج » قنصل فرنسا العام يعطف على مطالب الضباط ، وينكر على وزير الحربية تصرفاته • وقد عرف فى الجملة بالعواطف الطيبة نحو مصر ومناوأته المطامع الانجليزية فيها

وقد نقم الخديو ورياض باشا من البارون « دى رنج » عطفه على الضباط الوطنيين وتأييده اياهم••فأرسل الخديو باتفاقه مع رياض الى المسيو جول جريفى رئيس جمهورية فرنسا رسالة يشكو فيها مسلك القنصل العام • وكانت نتيجة هذا المسعى استدعاء البارون « دى رنج » الى فرنسا فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨١ ثم نقله من منصبه ، فغادر مصر على كره من الضباط الوطنيين فى أول مارس سنة ١٨٨١، وكان نقله انتصارا لوزارة رياض باشا • وقد اغتبط الساسة البريطانيون لهذا النقل لانهم كانوا يرون فى البارون «دى رنج» عاملا مناوئا لهم ومؤيدا للحركة الوطنية فى مصر

وعين بدله المسيو سنكفكس معتمدا وقنصلا عاما لفرنسا فى مصر ، فحضر الى القاهرة وقدم أوراق اعتماده الى الخديو

فى ٢٦ يولية سنة ١٨٨١ بسراى رأس التين

أراد الخديو بعد انقضاء بضعة أيام على واقعة قصر النيل أن يجتذب اليه قلوب ضباط الجيش ، ويزيل تأثير الحادثة من نفوسهم .. فاستدعى الى سراى عابدين يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٨١ ضباط ألايات العاصمة من رتبة بكباشى فما فوقهم ، وحضر الاجتماع وزير الحربية « البارودى » وكبار رؤساء الجيش من رتبة فريق ولواء . فلما انتظم عقدهم ، ألقى الخديو فيهم خطبة ضمنها العفو عما حدث يوم أول فبراير ، وأكد لهم أنه لم يبق فى نفسه أثر منها ، وطلب اليهم احترام النظام وطاعة الحكومة

فقابل الضباط هذه الخطبة باظهار الولاء للخديو والامتثال للأوامر والقوانين والنظامات العسكرية ، وانصرفوا داعين شاكرين

وكان الظن أن مثل هذه الخطبة ترد النظام الى الجيش ، وتدعو الضباط الى الاطمئنان الى نيات الحكومة نحوهم .. اذ لم يكن خافيا أنهم كانوا يتوجسون شرا من ناحيتها ، ويتوقعون أن تتربص بهم الدوائر للاقتصاص منهم اذا أمكنتها الفرصة . وبذلك تزداد هوة التنافر اتساعا بينهم وبين الحكومة ، فأراد الخديو بهذه الخطبة أن يدخل الطمأنينة الى نفوسهم ، ويدعوهم الى الثقة بمقاصد الحكومة ، ولكن الحوادث جاءت على خلاف ما كان يظن ويتوقع

بعد واقعة قصر النيل

لم يطمئن عرابى وصحبه على مركزهم وعلى حياتهم بعد واقعة قصر النيل .. فبالرغم من عزل عثمان باشا رفقى ، وتعيين وزير حربية يعطف عليهم ويؤيدهم ، فانهم كانوا يخشون على حياتهم أن تمتد اليها يد الاغتيال انتقاما مما فعلوا ، وأقاموا لهم حرسا من المخلصين لأشخاصهم ،

وزادوا من عدد الخفراء لحراسة منازلهم ليلا ، واختـــاروا ضباطا من خاصة أوليائهم لنقل المراسلات السرية بينهم ، وصاروا اذا انتقلوا من مراكز ألاياتهم الى بيوتهم اصطحب كل منهم حرسا من العساكر المسلحين للمحافظة على حياتهم يلازمونهم حتى يعودوا الى مراكزهم،وأكثروا من الاجتماعات السرية ، يعقدونها ليلا فى منزل عرابى ، ويدعون اليها من يثقون باخلاصهم من الضباط للتشاور فيما يفعلون،وتنفيذ ما يستقر عليه رأيهم

وقد أسفرت هذه الاجتماعات عن تقديم عريضة من جميع الألايات بالمطالب الآتية :

أولا ـ صرف نقود بدل التعيينات آلتى تؤخذ من مخازن الجهادية وتباع للألايات ، وذلك حفظا لحقوق العساكر من التلاعب بها والخيـــانة التى كانت فاشـــية فى المأمورين ورؤسائهم ، وخصوصا فى صنف المسلى « السمن » ، فانه كان يصرف للألايات من الشحم الذى يصنع فى تريستا ، ويأتى فى براميل باسم مسلى . وكان كريه الطعم والرائحة لا يصلح للطعام ، ولكن لم يكن أحد ليجسر على المجاهرة بالحقيـــقة ، لما للتجار المتعهـــدين بتوريده من المداخلة مع الرؤساء

ثانيا ـ عدم استقطاع مرتبات الضباط والعساكر فى مدة الاجازات التى تعطى لهم اذا لم تتجاوز ثلاثين يوما ، واذا تجاوزت هذه المدة يستقطع نصفها فقط

ثالثا ـ يؤخذ من الضباط والعساكر نصف الأجرة فى السكك الحديدية

رابعا ـ ابطال ورشة الترزية لما فيها من آلتلاعب والغبن الفاحش وصرف أثمان الملابس نقدا لتشـــترى من الخارج بمعرفة الألايات

خامسا ـ عدم جواز الترقى للعسكرية ما لم يسن لذلك

قانون خاص يجرى العمل على مقتضاه

سادسا ـ زيادة مرتبات جميع الضباط والعساكر بالنسبة لارتفاع أسعار الحاجات عن قيمتها من منذ ثمانين سنة ، أى حين انشاء العسكرية وترتيب تلك المرتبات الدنيئة

سابعا ـ سن قانون يشمل حالات الترقى والتقاعد والمكافآت والاجازات وتسوية معاش الاستيداع

ثامنا ـ ارجاع أحمد بك عبد الغفار قائم مقام السوآرى الذى فصله عثمان باشا رفقى من الخدمة من غير محاكمة ولا سبب يوجب ذلك

أجابت الحكومة معظم هذه الطلبات ٠٠ فعنيت وزارة الحربية باصلاح مأكل الجيش ، وصار يطبخ لهم فى معظم الوجبات اللحم وأنواع الخضر والأرز باللبن والحلوى ، بدلا من العدس والفول اللذين كانا طعامهم الدائم ، وصار يعطى للجنود السودانيين شراب « البوظة » المصنوعة من الشعير كمألوف عادتهم، وتصرف لأولادهم ونسائهم جرايات زيادة عن جرايات الجند

وعرض محمود سامى باشا البارودى على مجلس الوزراء وجوب سن القوانين اللازمة لاصلاح حالة الجند ، وزيادة رواتب الضباط والجنود ٠ وتألفت لجنة للنظر فيما يجب اجراؤه من التعديلات والاصلاحات فى النظم والقوانين العسكرية ، ورفع رياض باشا الى الخديو فى ٢٠ أبريل سنة ١٨٨١ تقريرا بذلك أشار فيه الى طلب ناظر الجهادية ـ وزير الحربية ـ زيادة رواتب الضباط والجند

وبناء على هذا التقرير صدر مرسومان بتاريخ ٢٠ أبريل سنة ١٨٨١ (٢١ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ هـ) يقضى الاول بزيادة رواتب الضباط والجنود

ويقضى المرسوم الثانى بتأليف لجنة (قومسيون) برئاسة وزير الحربية والبحرية للنظر والبحث فى القوانين والنظم العسكرية المعمول بها وقتئذ ، وادخال كل ما ترى لزومه من التعديلات والاصـــلاحات فيها وما ينبغى اجـراؤه من الاصلاح فى المدارس الحربية واعداد مشروع قانون بشروط الدخول فى سلك الضباط وتعيينهم وترقيتهم واستيداعهم ورفتهم وتقاعدهم ، وتسوية حالة الضـــباط آلمحالين الى الاستيداع

فأخذت اللجنة توالى الاجتماع لاعداد القوانين العسكرية الجديدة ، وهى القوانين التى صدرت فى عهد وزارة شريف باشا كما سيجىء بيانه

الاحتفال بزيادة الرواتب

أقام محمود سامى باشا البارودى بعد صـــدور هذين المرسومين حفلة فى ديوان الجهادية - وزارة الحربية - بقصر النيل ابتهاجا بزيادة رواتب الضباط والجند وتأليف لجنة اصلاح النظم العسكرية ، وكأنما أراد أن يعلن عن أول ثمرة لتقلده وزارة الحربية ليكسب ثقة الضباط والجند ، ويزداد بهم نفوذا وسلطانا

استكملت هذه الحفلة مظاهر الرونق والفخامة ، اذ أعد فيها البارودى مأدبة فاخرة دعا اليها الوزراء وعلى رأسهم رياض باشا ، ثم المراقبين الاوربيين ، وضباط الجيش .. ولما تكامل جمعهم جلسوا الى موائد الطعام ، فتناولوا المآكل الفاخرة

ثم قام محمود سامى باشا البارودى ، وألقى خطبة نوه فيها بفضل الحكومة . وأعرب عن فضـــل الخديو فيما تقرر من الاصلاحات ، ودعا الضباط الى الخضوع لأوامر الحضرة الخديوية . ولعله أراد بهـــذه الخطبة أن يزيل من الأذهان

تأثير التمرد الذى وقع من الجيش يوم أول فبرآير سنة ١٨٨١ ، وهاك نص الخطبة :

هذه ليلة أنس دعتنا الى الاجتماع فيها دواعى المحبة والائتلاف ، تذكارا لمآثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت عزيمتها الى اصلاح أحوال الاهالى جميعا ، وتعميم العدل فيهم وايصال كل الى ما يستحق ، وقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد ما استلم خديوينا المعظم زمام الحكومة تغييرا مهما اذ تبدل فيه العسر باليسر ، والظلم بالعدل ، والنقم بالنعم ، وتقدمت فيه البلاد الى نجاحها تقدما سريعا ، وما ذلك الا من حسن مقاصد هذا الجناب وطهارة سجاياه ، خصوصا وانه اصطفى لمساعدته على مقاصده الجليلة رجلا غيورا عالى الهمة زكى النفس ، وهو حضرة دولتلو رياض باشا . فلم يأل جهدا فى العمل ، ولم يقصر فى تذليل المصاعب باتحاده مع حضرات رفقائه الكرام حتى وصلنا الى هذه الغاية التى لا ينكر أحد حسنها . ولا ريب فى أن هذه نعم يجب علينا استبقاؤها وحفظها والاستزادة منها ، ولن يكون ذلك الا اذا قرناها بالشكر عليها ، فقد قالوا : الشكر سياج النعم ، وحقيقة الشكر أن يكون جميعنا مخلصا للحكومة فى خدمته قائما بواجباته لها ، معضدا لجميع مقاصدها، خاضعا لأوامر الحضرة الخديوية التى هى السبب فى هذا الخير العظيم ، وعلى ذلك لابد أن ننادى جميعا : فليحى الجناب الخديو أطال الله بقاءه »

ثم قام بعده رياض باشا وارتجل خطابا وجهه الى الضباط، جاء فيه :

« هذه ليلة سرور ، تجلى فيها الصدق والاخلاص ، واجتمعت فيها القلوب على قصد أداء الشكر للجناب الخديوى، غير أن تذكار محامده ومآثره الجليلة يجعل الشكر موضعا يقع موقع الفرض الشرعى

« ان محسنات العدل ووجوه الاصلاح التى امتازت بها مدة حكم الجناب الخديوى فى هذه الاوطان أمر معلوم ، يعد تعدادها من قبيل تحصيل حاصل ·· وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم ، فلا حاجة الى بسط الكلام فيه ، ومن أراد توضيح الحقيقة فليقارن بين الحالة الحاضرة وما قبلها بسنتين يظهر له الفرق الجلي والبون التام ما بين الحالتين وان ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ، ممن شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الاصلاح · ومن أهم وجوهه التى شهدناها فى عصر الخديو الجليل تقرير الأمن على الارواح والاموال ، وحفظ الحقوق الشرعية وأداؤها لأربابها ، ويلزم لدوام ذلك ثبوت الطمأنينة ورسوخ قاعدة الراحة العمومية ، ومدار ذلك وأساسه انتظام حال العسكرية

« وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت اليكم، وأنتم روح الضبط والربط ، وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفذة ، فاذ بدأ الحاكم يحسن الالتفات ونظر اليكم بعين الرأفة والرحمة، فعليكم وجوبا كما أخذتم مالكم ، أن تؤدوا ما عليكم ، وهو طاعة ولى الأمر الذى هو السبب الأعظم فى جميع هذه الخيرات التى شملتنا ، بل هو الذى أنعش فى هذا الوطن روح الحياة بعد أن أشرف على الموت والدمار ، فعليكم أن تكونوا دائما على قدم الاستعداد لتنفيذ أحكامه والمحافظة على أوامره ونواميسه العادلة ، وعلينا جميعا أن نبتهل الى الله تعالى بدوام بقائه وتأييد عزه وأن ينادى لسان الصدق منا : فليعش الجناب الخديوى »

خطبة عرابى بك

وبعد أن جلس رياض باشا قام أحمد عرابك بك (باشا) وأجاب بتحقيق ما قاله وزير الحربية ورئيس الوزراء ، وبين

ما وصلت اليه الحكومة فى ذلك العهد من التقـدم ، ناسبا جميع ذلك الى همة الجناب الخديوى واستقامة وزرائه وغيرتهم على المصالح .. ثم قال اننا عـلى الدوام مطيعون لأوامره السامية ، ونحن آلته المنفذة الحاضرة بين يديه يديرها كيف يشاء ، وفى أى وقت أراد ، واننا بلسان واحـد نسأل الله تعالى أن يحفظه لنا ويطيل بقاءه ويعززه برجال حـكومته ويمتع البلاد بأحكامه العادلة آمين ، وكلنا بلسان واحـد نسأل الله سبحانه وتعالى أن يحفظ الحضرة الخديوية، ويوفق رجال حكومته الكرام لاصلاح البلاد واسعاد العباد »

عظمت مكانة عـرابى فى نفوس الضـبـاط والجند بعد انتصاره فى واقعة قصر النيل ، وزاد من التفافهم حوله أنه تقدم بطلباته سالفة الذكر الى وزير الحربية الجديد (البارودى) واستجاب البارودى الى طلباته

وبذل البارودى جهدا موفقا فى اعادة التفاهم بين الحكومة والضباط ، على أن هذا التفاهم لم يدم طويلا .. ولم تلبث مظاهر الخلاف وبوادر الشقاق أن باعدت بين الفريقين، وأخذ كل فريق يسىء الظن بالآخر ويتوجس خيفة من مقاصده وتدابيره

استقالة البارودى

وقعت فى شـهر يوليه سنة ١٨٨١ حادثة بالاسكندرية أعادت القطيعة بين الضباط والحكومة .. وذلك أن الخديو توفيق كان يقضى صيف سـنة ١٨٨١ بالاسكندرية . وقد حدث يوم ٢٥ يوليه أن عربة لأحد تجار الثغر يقودها سائق أوروبى كانت تسير فى الشـارع المؤدى الى سراى رأس التين ، فصدمت جنديا من فرقة المدفعيـة ـ الطوبجية ـ وأصابته اصابة قاتلة ، نقل على أثرها الى المستشفى وتوفى هناك . وكان الخديو وقتئذ بالسراى ، فارتأى رفاق القتيل

أن يحملوه اليها ، ويلتمسوا من الخـديو الاهتمام بمعاقبة الجانى

وكان هذا العمل بالغا فى الخروج على النظام ، لان مثل هذه الحادثة لا ترفع الى الخديو ، وليس من اللائق بمقامه أن يذهب الجنود الى قصره حاملين القتيل يعرضونه عليـه ، ويطلبون منه معاقبة الجانى ، اذ أن السراى الخديوية ليست مخفر بوليس تحمل اليه جثث القتلى . وقد دخـل الجند السراى فى جلبة وضجة ، وصاحوا طالبين معاقبة الجانى .. فغضب الخديو من الجند ، وأمر بطردهم ، فانصرفوا . وبعد أيام صـدر الأمر بتشكيل مجلس عسـكرى لمحاكمتهم ، فحوكموا وصدرت عليهم أحكام بالغة منتهى القسوة ، فقد حكم على الجندى الذى دعا رفاقه الى حمل القتيل الى السراى بالاشغال الشـاقة المؤبدة . وحكم على رفاقه وهم ثمانية بالاشغال الشاقة لمدة ثلاث سنوات وبأن يقضوا مدة العقوبة بليمان الخرطـوم ، ثم يكونوا بعـد ذلك من أفراد الجيش بالاقطار السودانية .. وأقر الخديو الحكم ونفذ فى المحكوم عليهم وسيقوا الى السويس ومنها الى سواكن ثم الى الخرطوم

كان لهذا الحكم الشديد وقع أليم فى النفوس ، وكتب عبد العال بك حلمى تقريرا الى وزير الحربية « البارودى » يشكو فيه من قسوته ، وذكر بعض الحوادث التى تجرى فى ألايه ، والدسائس التى لا تنقطع

رفع البارودى هذا التقرير الى الخديو ، فاستاء من ذلك ، وعده تطاولا على مقامه وغضب على البارودى ، واعتزم اقصاءه عن وزارة الحربية ، واستدعى الوزراء بالتلغراف من القاهرة .. فوفدوا الى الاسـكندرية واجتمعوا بالخديو فى سراى رأس التين ، وتداولوا فى حادثة الجندى القتيل ، وما فعل رفاقه . وقرر الخديو أن بقاء البارودى فى وزارة الحربية هو منشأ هذه الفوضى ، ولا سبيل الى اعادة النظام الا بعزله .

فلم ير البارودى بدا من أن يقدم اســـتقالته ، فقبلت فى الحال ، وعين الخديو صهره داود باشا يكن بدله ، ثم أعقب ذلك صــدور أمر آخر بعزل أحمد باشا الدرهمللى محافظ العاصمة ، لما كان معروفا عنه من مشايعته لحركة عرابى ، وتعيين عبد القادر باشــا حلمى مكانه ، وكان مكروها من العرابيين

قابل عرابى وصحبه هذا التغيير بالانزعاج والتبرم .. وتوجسوا خيفة من عواقب آبعاد البــارودى الذى كانوا يطمئنون اليــه ، ويركنون الى اخلاصــه ، وتوقعوا شرا مستطيرا من تعيين صهر الخديو على رأس الوزارة التى تملك ناصية الجيش ، على أنهم كتموا شعورهم ، وأخذوا يتدبرون ما يجب عليهم عمله للمحافظة على حياتهم بعد هذا التغيير . وذهبوا الى داود باشا فى ديوان الجهادية ، يهنئونه بمنصبه الجديد ، وطلبوا اليه أن يجعل فاتحة أعماله اصدار قوانين الاصلاحات العسكرية التى وضعت فى عهــد البارودى ، فوعدهم بذلك ..

ولكنه لم يلبث أن أصدر منشورا أبلغه جميع الآلايات نهى فيــه الضباط عن اجتماعهم فى المنازل أو فى أحيــاء المدينة ، ونبه على عدم ترك مراكز الآلايات ليلا أو نهارا ، وأنذرهم بأنه اذا وجد اثنان منهم أو أكثر مجتمعين معا فى المدينــة فسيجرى ضبطهم بيد رجال الضبطية واعتقالهم ، وأن كل من تكلم منهم مع آخر فى الأمور السياسية يسجن بالقلعة ، وشدد على الضباط فى اتباع هذه الأوامر وأخذ يراقب تنفيذها ، فيذهب بنفســه ليلا الى مراكز الآلايات ليتحقق من تنفيذ أوامره ، وبث عبد القادر باشــا حلمى محافظ العاصــمة الجديد العيون والجواسيس على منازل رؤساء الحزب العسكرى ، وخاصة عرابى وعبد العال وأحمد

عبد الغفار،لمنع اجتماعاتهمفارتاعوا من ذلك ولزموا ألاياتهم

كان الغرض من صدور هــذه الأوامر تفريق اجتماعات الضباط ، اذ كانت هــذه الاجتماعات الوســيلة العملية لتبادلهم الآراء والافكار ، وتعاهدهم على التضامن واتحاد الكلمة واتفاقهم على الخطط التى يتبعونها لحفظ كيــانهم وتحقيق مطالبهم ٠٠ فداود باشا يكن قد حقق بهذه الاوامر المخاوف التى ســاورت عرابى وصــحبه من تعيينه وزيرا للحربية بدلا منالبارودى ، واتفق الضباط على رفض تنفيذ هذه الأوامر



عرابى الزعيم القومى

الزعامة القومية

لم يكن لواقعة قصر النيل أثرها فى الجيش فحسب ، بل كان لها أثر بالغ فى الأمة ٠٠ اذ جعلت لعرابى مكانة كبيرة فى البلاد ، وأخذت الألسنة تلهج باسمه وتمتدح شجاعته واقدامه ، والواقع أن الحادثة فى ذاتها وما تنطوى عليه من الجرأة على الحكومة ، واطلاق سراح المسجونين ، وعزل وزير الحربية عثمان باشا رفقى الذى كان موضع سخط الضباط الوطنيين ، وتعيين وزير يعطف عليهم ويؤيدهم ، ثم الاصلاحات التى قام بها البارودى ، وأخصها زيادة رواتب الضباط والجند ٠ كل هذه الأعمال جعلت من عرابي زعيما قوميا اتجهت اليه الأنظار لتحقيق أماني الشعب ، ولم يكن الجيش يصدر عن أفكار وعواطف تخالف أفكارها ونفسيتها ، فهو أول شىء طبقة من صميم الأمة ، وضباطه وجنوده متصلون بها بروابط القرابة والدم ٠ وكانوا يمثلون الأمة من هذه الناحية ، ومن كونهم جاءوا من مختلف نواحى المديريات

وكانت المظالم التى شكا منها زعماء الجيش تشبه المظالم التى كانت البلاد تشكو منها ، ولم يكن الناس راضين عن الحكومة وسياستها ٠٠ بل كانوا يتبرمون بمظالم الحكام وينقمون من الوزارة بسبب استسلامها للنفوذ الأجنبى وخضوعها لأوامر القناصل ومحاباتها الموظفين الأجانب فى

مصالح الحكومة وتمييزها اياهم بالرواتب الكبيرة والمزايا العديدة ، فلا غرو أن اغتبط الناس بتحقيق مطالب الجيش، وذاع فى البلاد اسم عرابى كمنقذ للأمة من المظالم ،ومحقق للآمال ، وقد لقى عرابى عطفا وتأييدا من جميع الطبقات، وفى مقدمتها العلماء والأعيان وعمد البلاد ومشـــايخ العربان ، وأخذ هو يبث أفكاره بينهم ليكونوا عدته وحزبه، ويتأهب للقيام بحركة جريئة توطد نفـــوذه وسلطانه ، ويطمئن بها على حياته وحياة صحبه الموالين له فى الجيش .. وهى المطالبة بتأليف المجلس النيابى مع اسقاط وزارة رياض باشا ، أو بعبارة أخرى احداث انقلاب فى نظـام الحكم ، واحلال حكم الشورى محل الحكم الاستبدادى

ولما اطمأن عرابى الى أن الجيش فى قبضة يده ، والأمة تناصره ، شرع فى احداث الانقلاب الذى كان يرجوه فى نظام الحكم ، أو بعبارة أخرى أخذ يتأهب لمتابعة الثـورة التى بدأها يوم أول فبراير سنة ١٨٨١

وكانت الحكومة من ناحيتها تدفعه الى الثورة دفعا ، بما بدا منها من الحركات العدائية التى قصدت منها تفـريق شمل زعماء الجيش وضباطه تمهيدا للتنكيل بهم .. فهى أولا لم تصدر القوانين العسكرية الجديدة التى وضعت فى عهد البارودى ، وكان هذا اخلالا بوعدها فى تحسين حالة الضباط والجنود ، وبرهانا على سوء مقاصدها نحو الجيش، واشتدت هذه المقاصد ظهورا من يوم عـــودة الخديو من مصيفه بالاسكندرية الى العاصمة

لم يكد الخديو يصل الى العاصمة حتى أخذ ينفذ خطته ، وقوامها تفريق وحدات الجيش ، ونقل الفرق الموالية للحزب العسكرى من العاصمة لكى يستبدل بها فرقا أخرى موالية للخديو .. فأصدر داود باشا يكن وزير الحربية أمرا بأن ينقل الآلاى الثالث من المشـــاة ـ آلاى القلعـــة ـ الى

الاسكندرية بدلا من ألاى الاسكندرية - الألاى الخامس - وأن يأتى هذا الى القاهرة مكانه . فلما علم ضباط الألاى الثالث بهذا الأمر اضطربوا له وأوجسوا شرا من عواقبه ، وذهبت بهم الظنون والوساوس كل مذهب . وخشوا أن يكون غرض الحكومة الانتقام منهم والتنكيل بهم . وسرت بينهم اشاعة أن فى نية الحكومة اغراقهم فى كوبرى كفر الزيات حين سفرهم بالقطار الى الاسكندرية ، وعادت الى أذهانهم حادثة اغراق الأمير أحمد باشا رفعت ابن ابراهيم باشا فى كفر الزيات فى عهد سعيد باشا

واتفقت كلمة ضباط الألاى على رفض الاذعان لأمر وزير الحربية الجديد ، والامتناع عن مغادرة القلعة .. فلما جمع قائد الألاى ضباطه وتلا عليهم أمر الوزير أعلنوا جميعا أنهم يرفضون الاذعان له .. فكتب الى وزير الحربية يخبره بذلك ، واعتزم عرابى وصحبه تحريك الجيش والسير به الى سراى عابدين فى شكل مظاهرة عسكرية لاملاء ارادتهم على الخديو لكى يضعوا حدا للحالة القلقة التى وصلت اليها البلاد ، ولاحداث الانقلاب الذى أرادوه

مظاهرة عابدين

اتفقت كلمة زعماء الضباط على اقامة المظاهرة العسكرية أمام سراى عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، ووضعوا لها خطة محكمة ، وهى حضور جميع ألايات الجيش المرابطة بالقاهرة الى ميدان عابدين فى أصيل ذلك اليوم لتقديم طلبات الأمة الى الخديو .. وقوامها اسقاط الوزارة ، وتأليف المجلس النيابى ، وزيادة عدد الجيش . فخاطب عرابى جميع ألايات المشاة والفرسان والمدفعية الموجودة وقتئذ بالعاصمة لموافاته بميدان عابدين فى الساعة الرابعة لعرض طلباتهم على الخديو . وأرسل الى وزير الحربية يبلغه

أن يخبر الخديو بأن جميع الألايات ستحضر الى ساحة عابدين فى الساعة المذكورة « لعرض طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وضمان مستقبلها » وأرسل أيضا الى قناصل الدول يطمئنهم أن لا خوف على رعاياهم من هذه المظاهرة لأنها مقصورة على أحوال البلاد الداخلية

احتشد الجيش فى الموعد المضروب فى ميدان عابدين ، وكان أول من حضر الى الميدان آلاى الفرسان « السوارى » بقيادة أحمد بك عبد الغفار • ولعله بادر بالحضور لأنه كان من أول الناقمين من النظام القديم ، اذ فصله وزير الحربية الاسبق « عثمان باشا رفقى » لغير ما سبب ، ثم جاء عرابى ممتطيا جواده شاهرا سيفه ، يقود آلاى العباسية ويصحبه آلاى المدفعية « الطوبجية » يقوده اسماعيل بك صبرى ، ومعه المدافع بذخيرتها • وكانت بطاريات المدافع تتخلل أورطة المشاة أثناء السير

ولما وصل عرابى تفقد على بك فهمى فلم يجده ، وأخبره بعض الضباط أنه وزع آلاى الحرس داخل السراى ، ومعه كمية وافرة من الذخيرة ، وأنه على استعداد للدفاع عنها اذا مست الحاجة • فبعث اليه من فوره بالملازم محمد أفندى على ليستدعيه •• فحضر على بك فهمى ، فسأله عرابى عن سبب جعله العسكر على أبواب السراى ومنافذها من الداخل ، ولم يكن هذا اتفاقهم من قبل • فطمأنه على بك فهمى ، وقال له : « ان السياسة خداع » ، أى أنه لم يفعل ذلك الا لمخادعة الخديو ، وأنه باق على عهده • فطلب اليه عرابى أن يسحب آلايه من السراى ويأخذ مكانه فى الميدان، ففعل • وأمر بخروج الألاى من السراى ، فخرج منها الجند جميعا ، واصطفوا الى جانب اخوانهم فى المكان المعين لهم من الدائرة ، ثم تم ترتيب آلاى المدفعية والفرسان والمشاة على شكل مربع •• وجاء بعد ذلك الألاى الثانى من قصر النيل

يقوده بعض ضباطه وذلك لامتناع قائده وكبار ضباطه عن الاشتراك فى الحركة ، ثم جاء الألاى الثـــالث قادما من القلعة ، بقيادة البكباشى فوده حسن ، والألاى السوداني قادما من طره بقيادة عبد العـــال بك حلمى ، ثم أورطة المستحفظين يقودها القائمقام ابراهيم بك فوزى · وبذلك اكتمل الجيش فى ميدان عابدين ، اذ لم يبـــق ألاى من الألايات المرابطة بالعاصمة الا حضر الى الميدان · وبلغ عدد الجنود المحتشدين في الميدان نحو أربعة آلاف بأسلحتهم ومدافعهم ، وغصت أطراف الميدان بالجموع الحاشـــدة من الناس الذين جاءوا ليشهدوا هذا المنظر ، وامتلأت نوافذ البيوت المجاورة للسراى وأسطحتها بالنظارة ، وكان الموقف رهيبا ، لأن مجىء الجيش متهددا متـــوعدا ، واحتشـــاده بأسلحته وذخائره ومدافعه أمام السراى الخديوية ، يحاصرها ويسد المسالك على من فيها ، كل ذلك خليق بأن يفـــزع الخديو ووزراءه ، وخاصة بعد أن رأى أن حرسه الخاص قد تخلى عنه فى هذه الساعة العصيبة ، وانضـــم الى الجيش الثائر

وكان الخديو قد جاء الى السراى ودخلها من البـــاب الشرقى وصعد الى ديوانه ، وشهد تجمع الجنود فى الميدان ، وكان الوزراء قد توافدوا على السراى ، وجاء أيضا بعض قناصل الدول والسير أوكلن كولفن المراقب المالى الانجليزى ·· فشهدوا هذا المنظر الذى لم يألفـــوا مثله فى مصر من قبل

الخديو فى الميدان

وقد ظن الخديو أنه اذا نزل الى الميدان ، فان ما له من الهيبة التقليدية فى نفوس الرعية والجند يصـــد الجيش وضباطه عن التمرد ، فنزل من السراى الى حيث رؤساء

الجنـــد ، يصحبه المستر كوكسن ، قنصـــل انجلترا فى الاسكندرية ـ وكان نائبا عن القنصل العام السـير ادوار مالت لغيابه بالاجازة ـ والسير أوكلن كولفن المراقب المالى الانجليزى ، وبعض عساكر الحرس الخاص • فلما توسط الميدان نادى عرابى ، فجاءه راكبا جواده شاهرا سـيفه ، وخلفه نحو ثلاثين ضابطا شاهرين السيوف • فلما دنا من الخديو صاح به أحد رجال الحرس أن ترجل واغمد سيفك •• ففعل ثم أقبل عليه ••

وهنا يقول عرابى أن المستر كوكسن أشار على الخديو بأن يطلق عليه مسدسه ، ولكن الخديو لم يعمل باشارته وقال له : « أفلا تنظر الى من حولنا من العسكر » ، أى أنه خشى مغبة العمل بنصيحة المستر كوكسن • والواقع أنها نصيحة لا تنم عن اخلاصه للخديو ولا حسن قصـــد من المستر كوكسن •• فلو أن الخديو أمكنه أن يقتل عرابى فى هذه اللحظة لما أمن على حياته من الجند والضباط

أما ما فعله الخديو فى ذلك الحين ، فانه صاح بالضباط الذين جاءوا خلف عرابى : « اغمدوا سيوفكم وعودوا الى بلوكاتكم » •• فلم يفعلوا ، وظلوا وقوفا فى أماكنهم •• وكانوا كحرس خاص لعرابى ، فلم يغـــادروه حتى انتهى الحوار بينهما

مطالب عرابى

ولما وقف عرابى أمام الخديو وحياه التحيـــة العسكرية خاطبه الخديو قائلا : « ما هى أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ »

فأجابه عرابى : « جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة •• وكلها طلبات عادلة !

فقال الخديو : « وما هى هذه الطلبات ؟ »

فأجابه : « هى عزل رياض باشا ، وتشكيل مجلس النواب ، وابلاغ عدد الجيش الى العدد المعين فى الفرمانات السلطانية »

فقال الخديو : « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا خديو البلد وأعمل زى ما أنا عاوز »

فقال عرابى : « ونحن لسنا عبيدا ولا نورث بعد اليوم»

فلما وصل الحوار الى هذا الحد أشار المستر كوكسن على الخديو بالرجوع الى السراى لافتا نظره الى سوء المغبة اذا زادت المناقشة عن هذا الحد .. فرجع الخديو ومن كان بمعيته الى داخل السراى

ثم عاد منها المستر كوكسن ومعه السير أوكلن كولفن ، وخاطب عرابى كرسول من قبل الخديو قائلا : « ان عزل الوزارة من اختصاص الخديو ، وطلب تشكيل مجلس النواب ليس من حقوق الجهادية ، وزيادة الجيش لا لزوم لها لأن مالية الحكومة لا تساعد على ذلك »

فقال عرابى : « اعلم يا حضرة القنصل أن طلباتي المتعلقة بالأهالى لم أعمد اليها الا لأنهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم عبارة عن اخوانهم وأولادهم .. فهم القوة التي ننفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة . وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر ، فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم فى طلب حقوقهم ، واعلم علم اليقين أننا لا نتنازل عن طلباتنا ، ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ »

فقال القنصل : « علمت من كلامك أنك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة ، وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها »

قال عرابى : « كيف يكون ذلك ؟.. ومن ذا الذى

يعارضنا فى أحوال داخليتنا ؟ فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا »

قال القنصل : « وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟ »

قال عرابى : « عند الاقتضاء يمكن أن نحشد مليونا من العساكر يدافعون عن بلادهم ويسمعون قولى ويلبون اشارتى »

فقال القنصل : « وماذا تفعل اذا لم تجب الى ما تطلب ؟»

فقال عرابى : « أقول كلمة أخرى » · فقال القنصل : « وما هى ؟ » · فقال عرابى : « لا أقولها الا عند اليأس والقنوط »

قبول مطالب عرابى

وهنا انقطعت المخابرات بين الفريقين ·· وتداول الخديو فى الموقف مع من كانوا بداخل السراى من وزراء وقناصل وغيرهم · ومرت ساعة وهم يتداولون ، فرأوا أن لا بد من الاذعان لمطالب الجند، لأن الجيش بأكمله يؤيد هذه المطالب· ولم يكن لدى الخديو أية قوة يعتمد عليها ، فاستقر الرأى على اجابة هذه المطالب تدريجيا، وأن يبدأ بسقوط الوزارة، فقدم رياض باشا استقالته الى الخديو ، وكان هذا أوج الثورة

أبلغ عرابى هذا القرار ، وطلب اليه الخديو قبول اسناد رئاسة الوزارة الجديدة الى على حيدر باشا يكن ، فلم يوافق على ذلك ·· لما له من صلة القرابة بالخديو ، فعرض عليه تعيين محمد شريف باشا رئيسا ، فقبل ·· وكان شريف باشا وقتئذ بالاسكندرية ، فاستدعى بالتلغراف للحضور الى العاصمة

وبعد أن أجيبت مطالب عرابى توجه الى الخديو فى

السراى وشكر له ارضاءه مطالب الأمة، فأقسم الخديو أنه مرتاح لما فعل ، وأنه وافق على تلك الطلبات بنية صادقة • فكرر عرابى الشكر والدعاء له، وأصدر أمره الى الألايات بالرجوع الى مراكزها ما عدا ألاى طره فانه قضى ليلته فى ضيافة ألاى الحرس بقشلاق عابدين

ونشرت « الوقائع المصرية » فى عدد الاحد ١١ سبتمبر سنة ١٨٨١ البيان الآتى : « فى ليلة السبت ١٦ شوال سنة ١٢٩٨ (١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١) استعفت نظارة دولتلو رياض باشا ، فقبل استعفاؤها • وكلف دولتلو شريف باشا بتشكيل نظارة جديدة •• »

وزارة الأمة

حضر شريف باشا الى العاصمة فى اليوم التالى – ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١ – وذهب اليه عرابى فى منزله وهنأه برئاسة الوزارة ، وفاوضه فى أشـــخاص الوزراء الذين يؤلف منهم وزارته

وكان طبيعيا أن يتدخل عرابى فى تأليف الوزارة ويكون له رأى فى أشخاصها ، لأنه هو الذى توصل بقوة الجيش الى اسقاط وزارة رياض باشا واختيار شريف باشا ذاته للرئاسة • ولم يكن شريف يجهل ذلك أو يتجاهله – ولكنه كان رجلا أنوفا ، مستقل الرأى ، حفيظا على كرامتـــه ، لا يقبل أن يتلقي الأوامر من غيره ، فضـــلا عن أنه كان يشعر فى خاصة نفسه بخطر تدخل الجيش فى السياسة، وانه اذا استمر هذا التدخل وصار قاعدة متبعة فى ادارة الشؤون العامة ، فانه يؤدى الى فســـاد الأداة الحكومية ، ويفضى الى انشاء دكتاتورية عسكرية لا يؤمن معها عدل أو حرية أو دستور • ولذلك اجتهد فى وضع حد للتدخل العسكرى فى شؤون الحكومة

أما فيما يتعلق باختيار أعضاء وزارته ، وتدخل عرابى فى هذا الصدد ، فان هذا التدخل جعله يتردد أياما فى قبول رئاسة الوزارة ٠٠ فقد رغب اليه عرابى أثناء المقابلة الأولى فى اختيار محمود سامي باشا البارودى للحربية ، ومصطفى فهمى باشا للخارجية ، « لما يعلمه من ميلهما الى العدل والحرية » ـ كما قال عرابى ـ ولم يكن هذا اعتقاد شريف باشا فيهما ، وقد صارح عرابى أنه لا يقبل اشتراكهما معه فى الوزارة ، لأنهما حين كانا عضوين فى وزارته السابقة التى ألفها فى أول عهد الخديو توفيق تعاهدا واياه كما تعاهد سائر الوزراء على أنه اذا رفض الخديو الموافقة على تشكيل مجلس النواب استقالت وزارته على أن لا يشترك أحد من أعضائها فى الوزارة التى تخلفها ما لم يقبل الخديو تشكيل المجلس النيابى ٠٠ فنكث البارودى ومصطفى فهمى عهدهما

ولكن عرابى كان حريصا على اسناد وزارة الحربية الى البارودى ، لما ثبت من ولائه للحركة واخلاصه للجيش ٠ ولم ينس أنه على يده حين تولى وزارة الحربية أجيبت مطالب العرابيين الأولى ، وهى زيادة رواتب الضباط والجند وتأليف لجنة لاصلاح القوانين العسكرية ٠٠ وأن الخديو قد أقصاه بعد ذلك من وزارة الحربية لاخلاصه للحزب العسكرى ، أما مصطفى فهمى فكان عرابى يميل الى تقليده وزارة الخارجية لما كان يتظاهر به من الاخلاص للحركة ٠٠ على أنه لم يبد منه أى عمل ايجابى يدل على هذا الاخلاص، وكل ما عرف عنه أنه من يوم أن اشترك فى مقتل اسماعيل باشا صديق على عهد الخديو اسماعيل ملىء قلبه رعبا من هول هذا الحادث ، ونفرت نفسه من استبداد الخديويين ٠ ومن هنا اطمأن له العرابيون ، وأراد عرابى أن يقنع شريف بقبول مرشحيه ، فقال له : « ان لكل وقت حكما ، وانى

واثق بحبهما للحرية والعدل والمساواة ، وفضلا عن ذلك فان العسكرية لا تطمئن لغير محمود سامى باشا »

فعرض شريف باشا على عرابى أن يقبلوه هـو وزيرا للحربية ، ولعله أراد بذلك أن يراقب بنفسه ابتعاد الجيش عن التدخل فى سياسة الدولة ، اذا هو تولى وزارة الحربية

قال مخاطبا عرابى : « أفلا ترضـون أن أكون ناظر الجهادية ؟ .. فانى قد ربيت معكم فى العسكرية » . والحق أن حجة شريف باشا كانت قوية ، لأنه تلقى التعليم العالى فى المدارس الحربية ، ونال قسطا وافرا من علومها وفنونها فى أرقى مدارس فرنسا . وهو بلا شك أكفأ فى هـذا الصدد من محمود سامى البارودى ومن القواد العرابيين . ولكن عرابى أصر على اختيار البارودى للحـربية ، وقال لشريف باشا : « لقد أخترناك رئيسا للوزارة ، ولا بد من مراعاة ميول رجال العسكرية » فأصر شريف باشا على عدم قبول مرشحيه ، وانتهت المقابلة الأولى على غير اتفاق

ومضت أيام وشريف باشا متردد فى قبول الرئاسة . ولم يكن يستطيع غيره أن يضطلع بأعبائها وينقذ الموقف. وظل فى تردده حتى عاهده العرابيون فى بيان مكتوب أن لا يتدخل الجيش فى السياسة ، وأن يكون خاضعا لأوامر الحكومة . فقبل تأليف الوزارة وألفها يوم ١٤ سبتمبرسنة ١٨٨١ ، ورضى باسناد الحربية الى البارودى ، والخارجية الى مصطفى فهمى

وقدم كبراء البلاد وعيانها الى شريف باشا بيانا يقرب من بيان الضباط فى العبارة ويطابقه فى المعنى ، وغايته اعلان ثقتهم بصداقته وميلهم جميعا اليه وانعقاد قلوبهم عليه ، وأنهم يكفلون له أن لا يقع فى المستقبل شىء من الحوادث التى تنسب الى رجال العسكرية ، وواثقـون من أمتهم ومن رجال العسكرية الذين هم أبناؤهم واخوانهم

بزوال كل خطر ، وانقطاع جميع الاسـباب التى توجب الخوف والاضطراب ، ويسألون الله تعالى تأييد دولتهوتوفيقه لاصلاح أحوال البلاد بعناية الجناب الخديو المعظم

قبل شريف باشا تأليفه الوزارة بعد أن حصل على هذه العهود والمواثيق ، فألفها فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١

□

وتعد وزارة شريف باشا « وزارة الأمة » لأنهـا ألفت تحقيقا لرغبة كبراء البلاد وأعيانها ٠٠ وقد ابتهجت الأمة ابتهاجا كبيرا بتأليفها ، وعلقت عليها تحقيق آمالها في اقامة النظام الدستورى المقرون بالعدل والاستقامة ٠ وقد اضطلع شريف بالمهمة التى ألقتها الثورة على عاتقه ، وأول ما رسم من الخطوط الحكيمة اعادة النظام الى الجيش ٠٠ فان الثورة باعتبارها ثورة عسكرية قد أخرجت الجيش من مهمتـه الأصلية ، وهى حفظ النظام والذود عن كيان البـلاد ، وجعلته أداة سياسية للسيطرة والحكم ٠وهنا موضع الخطر، اذ بذلك يختل النظام العسكرى ويفقد الجيش روح النظام والقيام بالواجب ويتسرب الانقسام الى صفوفه ، ثم تقع الحكومة فريسة الفوضى ٠٠ فبذل شريف جهده فى الحيلولة بين الجيش والسياسة ، ووافقه عرابى على هذه الخطة فى أوائل عهد وزارته ، فقد ذهب اليه عقب تأليـف الوزارة بيومين على رأس وفد من الضباط لتهنئته بالوزارة وشكره على قبول الرئاسة ، وألقى أمامه الكلمة الآتية :

« انى بلسان قومى أعرض لدولتكم أننا جميعا واثقون بصداقة دولتكم وخلوص طويتكم لمحبـة الوطن وأهله ، وجازمون بأن هذه الصفات التى تحلت بها ذاتكم الشريفة تكون وقاية لبلادنا وسببا فى استتباب الراحة العمـومية

فيها ، وأننا نعلم واجباتنا والفروض التى تحتمها علينا وظائفنا العسكرية ، وأعظمها حفظ البلاد ومن فيها ،ولذلك فاننا نقر بأننا القوة المنفذة لما يصدر من الأوامر التى تكون ان شاء الله فى خير ، وقاضية باصلاح شؤون البلاد ، الا أن لنا حقوقا معلومة يمنحها لنا القانون ، ونرجو من الله أن يحسن الينا بنوالها بمساعدة دولتكم وتوفيق الله تعالى ونسأله سبحانه أن يوفقنا جمعيا لما فيه الخير والصلاح آمين »

وأمن عليه الحاضرون من الضباط ..

فترى فى هذا الخطاب أن عرابى تعهد من جديد باحترام النظام ، اذ يقر بأن الجيش هو القوة المنفذة لما يصدر اليه من أوامر

خطبة شريف باشا

وقد اغتنم شريف هذه الفرصة لينبه الضباط الىواجبهم فى ابعاد الجيش عن السياسة ، فأجاب على كلمة الشكر بقوله :

« فى علمكم ما قال الأقدمون : آفة الرياسة ضعف السياسة ، ولا حكومة الا بقوة ، ولا قوة الا بانقياد الجنود انقيادا تاما ، وامتثالهم امتثالا مطلقا

« كل حكومة عليها فرائض وواجبات ، من أهمها صيانة الوطن وحفظ الأمن العمومى فيه .. وهذا وذاك لا يتأتيان الا بطاعة رجالها العسكرية ، فترددى أولا فى قبول الرياسة ما كان الا تجافيا عن تأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الآمال ويزيد معها الاشكال ، فأكون عرضة للملامة بين اخوانى فى الوطن وبين الأجانب . وحيث أغاثتنا الألطاف الألهية وحصل عندى اليقين بانقيادكم ، فقد زال الاضطراب من القلوب ، ورتبت الهيئة الجديدة من

رجال ذوى عفة واستقامة ، فأوصيكم بملاحظة الدقة فى الضبط والربط،لأنهما من أخص شؤون العسكريةوأساس قواها ، وأعرفوا أنكم مقلدون أشرف وظيفـــة وطنية ٠٠ فقوموا بأداء واجباتها الشريفة ، وعلى القيـــام بأداء كل ما يزيدكم فخرا وسؤددا ، وفقنا الله واياكم »

فهذه الخطبة على ايجازها ، جمعت أسمى ما يقوله زعيم سياسى صائب الرأى بعيد النظر فى الظروف التى تألفت فيها وزارته ، اذ لم يكن خافيا أن الدول الاســتعمارية ـ وخاصة انجلترا ـ كانت تتطلع الى الثورة العرابيـــة لكى تتخذ منها ذريعة للتدخل فى شؤون البلاد ٠ ولم تخف هذه المطامع عن عرابى ذاته ، فقد ذكـــر فى مذكراته أنه كان يلاحظ هو وصحبه عقب واقعة قصر النيل كثـــرة تردد السير ادوار مالت قنصل انجلترا فى مصر على الخديو ليلا ونهارا ٠٠ فأوجسوا من ذلك خيفة على مصير البـــلاد ، وخشوا من مطامع انجلترا ، وتحدثوا بأنها تطمع فىاحتلال وادى النيل أسوة بما فعلته فرنسا فى تونس ، اذ احتلتها سنة ١٨٨١

فشريف باشا سعى جهده فى أن لا يتخذ دعاة الاستعمار من الثورة ذريعة للتدخل فى شؤون البلاد ٠ من أجل ذلك لم يفته النصح للعرابيين أن لا يقحموا الجيش فى غمـــار السياسة ، فتضطرب الأحوال ، وتتفتح الثغرات للتدخل الأجنبى ٠ ولم يكن يخفى أن زعماء الثورة من الضباط قد داخلهم شىء كثير من الزهو والخيلاء ، اذ كانوا قوام الحركة، وبفضلهم سقطت وزارة رياض باشا البغيضـــة الى الرأى العام ، وتألفت وزارة شريف المرجـــوة من الأمة ، فلو لم يكن شريف عظيم النفس ، قوى الشخصية ، لجعل خطبته تمليقا لضباط الجيش اكتسابا لثقهم وتأييدهم ، ولكنه على العكس خاطبهم بلهجة الناصح الأمين ، ودعاهم الى التزام

حدود واجباتهم ، وهى الطاعة والنظام والذود عن الوطن

ولم يكن مثل شريف ليقبل أن يكون أداة فى يد الجيش وزعمائه ، لأنه لم يقصد من تأليف الوزارة مجـــدا ولا سلطة ، وقد عرف عنه التعفف والنـــزاهة فى كل أدوار حياته ، وشهد له ماضيه بأنه لا يحرص على المناصب، وأنه يزهد فيها اذا رآها تخالف مبدأه وكرامته • ولقد كان من الوجهة الدستورية أسبق فى الكفاح للدستور من العرابيين، فعلى يده تطور نظام مجلس النواب ، اذ تألفت وزارته الأولى فى عهد الخديو اسماعيل على قاعدة تقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام المجلس ، وعلى يده وضع دستور سنة ١٨٧٩ على أحدث المبادىء العصرية • ولم يحل دون صدور المرسوم الخديوى بانفاذه الا خلع اسماعيل ، ومن أجل الدســتور استقال من وزارته الثانية فى أوائل عهد الخديو توفيق ، وبرنامجه ســـنة ١٨٨١ حين ألف وزارته الجـــديدة كان استئنافا لجهاده فى سبيل الدستور منذ سنة ١٨٧٩ ، أى قبل أن تظهر الحركة العرابية بسنتين ، فلا غرو أن يشعر شريف بعزة النفس والاستقلال فى الرأى ازاء العرابيين

وقد حققت وزارة شريف باشا كثيرا من الاصـــلاحات فى المدة الوجيـــزة التى تولت فيهـــا الحكم ، وكان مما أنفذته اصدار القوانين العسكرية التى كان هدفها تحسين حال الضباط والجند واصلاح التعليم في المدارس الحربية

وابتهج الضباط بصدور هذه القوانين ، وزادتهم ثقة بوزارة شريف باشا •• وذهب وفد منهم الى داره وقدموا له شكرهم وشكر زملائهم على عنايته واهتمـــام وزارته باصدارها • وأعربوا له عن حسن مقاصدهم وكامل ثقتهم به وبوزارته ، وعاهدوه على ألا يخالفوا له أمـــرا ، وأن ينقادوا لارادة الحكومة ولا يترددوا فى الذهاب الى أية جهة تأمرهم بالذهاب اليها

عرابى فى الشرقية

وقد رغب شريف باشا فى نقل زعماء الحركة من القاهرة الى الأقاليم لكى يخفف من ضغط الحزب العسكرى على الحكومة ، ويحقق مبدأه الذى تولى الوزارة على أساسه ، وهو ابعاد الجيش عن السياسة جهد المستطاع . وأقنع عرابى وصحبه بأن مصلحة البلاد تقضى بابعاد الألايات التى يتولون قيادتها عن العاصمة حتى تهدأ الخواطر ، ويقوى سلطان الحكومة حيال الدول . وزاد فى حجة شريف باشا ارسال الحكومة التركية وفدا الى مصر برآسة على نظامى باشا لتحقيق أسباب تمرد الجيش وخروجه على الخديو .. فقد ورد نبأ قيام هذا الوفد من الاستانة فى ٣ اكتوبر سنة ١٨٨١ ، فاتخذ شريف باشا من هذا الحادث وسيلة لاقناع زعماء الضباط بالابتعاد عن العاصمة لكى يكون ذلك دليلا قائما على اذعانهم للحكومة وتنفيذهم أوامرها وترك سلطة الحكم فى يدها . ولكى يمتنع الاتصال بينهم وبين الوفد العثمانى القادم ، فلا ينفسح المجال أمامه للدس والتفرقة ، فاقتنعوا بهذه الحجة ، واستقر رأى وزارة الحربية على نقل ألاى عبد العال حلمى الى دمياط ، وألاى عرابى الى رأس الوادى بالشرقية . ويقول عرابى أنهم قبلوا ذلك على شرط صدور الأمر الخديوى بانتخاب النواب لكى يطمئن على انشاء المجلس النيابى ، وفعلا صدر الأمر المذكور فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١

وكان سفر الألايين الى مقرهما الجديد فرصة للمظاهرات الوطنية التى تجلت فيها حماسة الأهلين وعواطفهم نحو الجيش

كان ألاى عبد العال حلمى بك هو السابق بالسفر الى مركزه الجديد ، وكان يوم سفره يوما مشهودا ، فقد انتقل الألاى الى محطة العاصمة مارا وسط المدينة ، وسبقه اليها

معظم ضباط العسكرية وضباط المستحفظين والبوليس للقيام بواجب التوديع . وامتلأت المحطة بالمودعين ، ولما وصل اليها الألاى أخذ مصطفى بك العنانى أحد أعيان القاهرة ومن كبار تجارها ينثر الورد والرياحين على رؤوس العساكر ، وسقى الناس شرابا سكريا فى ذلك اليوم اكراما للجيش المنقذ للبلاد من هاوية الاستبداد . وحضر محمود سامى باشا البارودى وزير الحربية ليودع الألاى المسافر يصحبه عرابى بك ، وتبودلت الخطب الحماسية فى المحطة قبل قيام القطار

وفى ٦ اكتوبر سنة ١٨٨١ سافر الاى عرابى من العاصمة بين مظاهر الحماسة والتكريم .. فتحرك من مركزه بالعباسية فى الساعة الثالثة صباحا قاصدا المحطة ، وشق المدينة من باب النصر تتقدمه موسيقاه تعزف بألحانها الحربية فتثير الحماسة فى النفوس الى أن بلغ المشهد الحسينى ، فاصطف الألاى أمام المسجد .. ثم دخل عرابى وزار مقام الحسين رضى الله عنه يصحبه بعض الضباط ، وأدار بيرق الألاى على الضريح الشريف ، ودعوا الدعوات الصالحة ، ثم خرجوا وسار الألاى الى المحطة ، مارا بالموسكى ثم شارع البوستة فشارع كلوت بك . وكانت الشوارع تزخر بالمتفرجين ، وازدحمت المحطة بالمودعين ، اذ حضر اليها جميع ضباط الجيش المصرى ورؤسائه وكثير من الأعيان والتجار وعامة الناس ، وتبودلت الخطب الوطنية فى المحطة

ثم تحرك القطار فى منتصف الساعة الحادية عشرة قاصدا مدينة الزقازيق ، وصحب عرابى فى سفره السيد عبد الله نديم ـ خطيب الثورة ـ واستقبل وصحبه وجنده فى المحطات بمظاهر الفرح والسرور والتكريم . وكان السيد عبد الله نديم يخطب فى الناس فى كل محطة ، واستمرت مظاهر الاحتفالات حتى بلغ القطار محطة الزقازيق ، فاستقبل القادمين جمهور الأعيان والأهالى والتجار يتقدمهم أمين بك

الشمسى كبير تجار البندر ، وهتفوا لعرابى وللجيش هتاف الدعاء ، ونثروا على العساكر الورود والأزهار العطرية وسقوهم الشراب السكرى ، ونزل عرابى من القطار وحيا جميع المستقبلين وألقى فيهم خطبة حماسية بدأها بقوله :

« سادتى واخوانى ، أنا أخوكم فى الوطنية ، واسمى احمد عرابى ، ولدت فى بلدة « هرية رزنة » من بلاد الشرقية هذه ، فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فقد عرفته بنفسى ، وها أنا واقف بين أيدى الأهل والخلان » ، وأخذ يشيد بما قام به وزملاؤه الضباط

ثم استأنف القطار السير قاصدا رأس الوادى حيث كان مركز الألاى .. وبعد أن استقر به عرابى وجنده يومين دعاه أمين بك الشمسى ودعا معه صحبه من الضباط الى وليمة شائقة فخمة تكريما لهم ، فلبوا الدعوة وألقى عرابى فى الوليمة خطبة بمعنى الخطبة السابقة ، وشكر أمين بك الشمسى وأثنى عليه الثناء المستطاب ثم وقف السيد عبد الله نديم وألقى خطبة حماسية ، تعالى فى أثنائها هتاف الاستحسان من الحاضرين

وفى اليوم التالى دعى عرابى لوضع الحجر الأساسى للمدرسة الأميرية بالزقازيق .. فلبى الدعوة وحضر الحفلة ، ووضع الحجر الأساسى للمدرسة باسم الخديو . وألقى بهذه المناسبة خطبة ذكر فيها فوائد التعليم ، وحث الحاضرين على العناية بتعليم أبنائهم ليعدوهم لخدمة بلادهم فى المستقبل

تعيين عرابى وكيلا لوزارة الحربية

بقى عرابى فى منصبه بالشرقية نحو ثلاثة أشهر يتنقل فى الجهات ويبث أفكاره بين الأعيان والأهلين ، وقد أوجست الحكومة خيفة من ابتعاده طويلا عن العاصمة وتركه يجمع حوله الأتباع والأنصار بعيدا عن رقابتها ، فاقترح البارودى

تعيينه وكيلا لوزارة الحربية ، فصدر الأمر العالى بذلك فى ٤ يناير سنة ١٨٨٢ ، وعاد الى العاصمة واستقر بها ، وتوطدت الثقة بينه وبين البارودى ، وعظم نفوذه ، وصارت داره كعبة لطلاب الحاجات وذوى الشكايات يقصدون اليها من كل فج ، حتى أصبحت تشبه مجموع دوائر الحكومة لكثرة من كان يفد عليها من الزائرين والشاكين . وتردد عليه مراسلو الصحف الأوربية ليأخذوا عنه الأحاديث والبيانات عن الحركة التى قام بها ، فازدادت شهرته فى الأوساط الأوربية

انشاء المحاكم الأهلية

ان أهم اصلاحات الوزارة الشريفية بعد الاصلاح الدستورى هو انشاء المحاكم الأهلية ووضع نظامها الجديد .. ففى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ صدر القانون المعروف بلائحة ترتيب المحاكم الأهلية ، وهى تتضمن معظم القواعد العامة للنظام القضائى الحالى وأهمها :

(١) وجوب العمل بالقوانين بعد نشرها واعلانها فى الجريدة الرسمية « ويكون اجراء العمل بمقتضاها فى القطر المصرى بعد مضى ثلاثين يوما من تاريخ الاعلان ، وأما فى السودان وباقى ملحقات الحكومة المصرية فيكون العمل بها بعد مضى سبعين يوما »

(٢) عدم سريان القوانين على الماضى ، وصدور الأحكام باسم الحضرة الخديوية ، ووجوب استنادها الى القوانين التى سيجرى نشرها أو القوانين واللوائح الجارى بموجبها متى كانت أحكامها غير مخالفة لنصوص القوانين المذكورة

(٣) رتبت اللائحة أنواع المحاكم الجديدة .. فقضت بانشاء محكمة ابتدائية فى كل من مصر والاسكندرية وفى كل مديرية من الوجه البحرى والقبلى ، وفى السودان وباقى

ملحقات الحكومة المصرية ، وانشاء محاكم جزئيـة فى دوائر اختصاص المحـاكم الابتـدائية ، ومحكمتين استئنافيتين ، احداهما بمصر ، والأخرى بأسـيوط ، « أما فيما يختص باستئناف الأحكام الصادرة من المحاكم الابتدائية بالسودان وباقى ملحقات الحكومة المصرية فيتقرر فيما بعد بأمر الحضرة الخديوية » ، ومحكمة نقض بالقاهرة وكان اسمها فى اللائحة « محكمة التمييز » ، وانشاء النيابة العمومية

(٤) ونصت اللائحة على عدم جواز عزل قضاة المحاكم ، انما للحكومة حق استبـدال من ترى فيـه عدم الليـاقة والاستعداد منهم فى أثناء السنوات الثلاث الاولى من تاريخ تعيينه .. ونصت على عدم نقـل القضـاة من محكمة الى أخرى الا برضاهم وبمقتضي أمر يصدر من الحضرة الخديوية بناء على طلب وزير الحقانية وبعـد اخذ رأى محكمة النقض

(٥) تقررت فى اللائحة قواعد اختصاص هذه المحاكم على النظام الجارى العمل به اليوم

تركيا والثورة العرابية

لم يكن موقف تركيا حيال مصر أثناء الثورة العرابية موقفا سليما ولا نزيها ، بل كانت ترمى الى انتهاز الفرص لانتقاص مزايا الاستقلال الذى نالته مصر فى عهد محمد على ثم فى عهد اسماعيل ، واسترداد هذه المزايا والتدخل فى شؤون مصر الداخلية . ومع أن تركيا وقتئذ كانت من الضعف والارتباك بحيث لا تستطيع أن تجعل مصر ولاية عثمانيـة خاضعة لحكمها ، فقد كانت السياسية التركيـة قائمة على الدس وقصر النظر .. فهى لم تدع وسيلة الا انتهزتها لاحراج مركز مصر والوقيعة بها . وكان موقفها من يوم أن ظهرت الثورة العرابية الى أن وقع الاحتلال موقفا مشئوما ، قوامه

المختل وسوء النية والخداع ، فضلا عن الجهل وقصر النظر ، وكان ذلك من أكبر العوامل المساعدة على وقوع الاحتلال

الوفد العثمانى الأول

حدثت واقعة عابدين يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ وانتهت بسلام ، وتألفت وزارة شريف باشا المرجوة من الأمة ، وهدأت الأحوال وابتدأت الوزارة الجديدة تحقق برنامجها بين مظاهر الثقة والاطمئنان . وبالرغم من ذلك ، فان الحكومة التركية رأت فى هذه الحادثة فرصة جديدة للتدخل فى شؤون مصر وانتحال حق الاشراف عليها ، فقررت ارسال لجنة الى مصر للنظر فى الحوادث الاخيرة . وقد عرفت هذه اللجنة بالوفد العثمانى ، وهو مؤلف من على نظامى باشا سر ياور السلطان عبد الحميد ، وعلى بك فؤاد من أعضاء مجلس شورى الدولة ونجل عالى باشا الصدر الأعظم المشهور ، وفى معيتهما قدرى بك وصفر افندى وسيف الله افنــدى من ياوران السلطان

تحرك هذا الوفد من الاستانة يوم ٢ اكتوبر سنة ١٨٨١ قاصدا الى مصر .. ولم يسبق تأليفــه مخابرة بين حكومة الاستانة والحكومة المصرية حتى يعرف مقصدها من ايفاده ، بل فوجئت البلاد بتلغراف من الاستانة ينبىء بقيام هــذا الوفد ، فقوبل النبأ بالدهشة ، لأن حالة البلاد لم تكن تسيغ ايفاده فضــلا عما يحدثه مجيئــه من هياج الخواطر واثارة الهواجس فى وقت كانت البــلاد محتاجة فيــه الى اقرار الطمأنينة فى النفوس

ولكن الحــكومة العثمانية كانت فى الواقع تتعمد احداث حدث يثير الخواطر فى مصر .. فلعلها كانت تأمل أن تستفيد من الثورة ، أو لعلها نظرت بعين الاستياء الى قيام وزارة حرة تقيم النظام الدستورى فى مصر ، لأن مثل هذا النظام

لم يكن لترضى عنه حكومة الاستانة التى جبلت على كراهية الحرية والدستور . هـذا الى أن على رأسـها السلطـان عبد الحميد الذى بدأ عهده بتعطيل القانون الأساسى العثمانى ، والغاء مجلس المبعوثين « النـواب » وتشتيت دعاة الحرية وأنصارها .. أضف الى ذلك أن الخـديو توفيق لم يكن منظورا اليه فى الاستانة بعين الرضا والعطف ، لأن سلطان تركيا لم يكن ليغفر له اغفاله الذهاب الى عاصمة السلطنة ، حين ولايته الحكم ، ليقدم له فروض الولاء !

حقا ان توفيق باشا اعتذر عن عدم ذهابه الى الاستانة بارتباك أحوال مصر وضرورة وجوده فى عاصمة ملكه . ولكن هذا العذر لم يكن ليقبله حكام الاستانة ، اذ كان من أخص صفاتهم الغطرسة والكبرياء وسوء الظن والانتقام . لذلك انتهزوا كل فرصـة لاحراج مركز الخديو واثارة المشـاكل والعقبـات فى وجهه . ففكرة ارسـال وفد الى مصر فكرة قوامها الكيد وسوء القصد ، وقد استاء لهـا شريف باشا وأبدى مخاوفه منها

جاء هذا الوفد الى الاسكندرية يوم الخميس ٦ اكتوبر سنة ١٨٨١ ، ووصل أعضاؤه الى القاهرة فى مساء ذلك اليوم ونزلوا ضيوفا على الحكومة بقصر النزهة بشبرا

وفى صبيحة الجمعة ذهبوا الى سراى الاسماعيلية لمقابلة الخديو ، فاستقبلهم بالترحاب ، وتبادل واياهم عبـارات التحية والود ، وأبلغوه تحيات السلطان وأعربوا له عن تمام رضاه وسروره لما يبذله فى تحسين أحوال البلاد ، وأن الغرض من ارسال هذا الوفد هو اظهار الثقة بالخديو وتأييد نفوذه وتثبيت مركزه .. فرد عليهم بعبارات الشكر المألوفة ، ثم انصرفوا عائدين الى قصر النزهة وهنـاك رد لهـم الخديو الزيارة

وذهب على نظامى باشا الى قصر النيل حيث كان ديوان

الحربية ومركز الألاى الثاني .. فاستقبله محمود سامى باشا البارودى وزير الحربية ، وهناك استدعى طلبة بك عصمت قائد الألاى ومعه الضباط من رتبة قائمقام وبكباشى ، وألقى فيهم خطابا باللغة التركية ـ عربه لهم البارودى ـ حثهم فيه على طاعة الخديو وتنفيذ أوامره

فأجابه طلبة بك عصمت بقوله : « ان العساكر المصرية جموعا وأفرادا على قدم الطاعة والانقياد لولى أمرنا الخديو المعظم ، يتلقون أوامره بالامتثال ، ويقفون عند حد نواهيه .. فان كلا منا يعلم أن أول واجب على الجند هو اطاعة ولى الأمر والاذعان لما يأمر به . وما منا الا محب للجناب الخديوى ميال بكليته الى الامتثال لارشاداته »

ولما انتهى من كلامه وقف على نظامى باشا ، وصافح طلبة بك ومن معه من الضباط ، وأثنى عليهم الثناء الجميل ، ثم بقى مع محمود باشا سامى البارودى نحو نصف ساعة وانصرف ..

وزار بعد ذلك شيخ الجامع الأزهر ونقيب الأشراف وشيخ المالكية .. وكانوا فى أحاديثهم معه يثنون على الجيش ويطرون أعماله ، ويذكرون فضله فيما نالته البلاد

وقد استاءت فرنسا وانجلترا من حضور الوفد العثمانى على غير اتفاق معهما .. وعدتاه تدخلا من تركيا فى شؤون مصر الداخلية ، وطلبتا من الحكومة العثمانية تقصير مدة اقامته .. وانتهزت انجلترا هذه الفرصة لتعلن عن نفوذها فى مصر حيال حضور الوفد ، فطلب السير ادوار مالت من حكومته ارسال بارجة حربية الى مياه الاسكندرية ، فأجابت طلبه . واتفقت مع الحكومة الفرنسية على أن ترسل كل منهما بارجة على أن تعود البارجتان من الاسكندرية حين مبارحة الوفد العثمانى أرض مصر . وقد وصلت فعلا البارجة الفرنسية « ألما » الى مياه الاسكندرية ، ثم جاءتها

البارجة الانجليزية « انفنسبل » . وغادرتا الميناء يوم ٢٠ اكتوبر غداة سفر الوفد العثمانى .. فكانت هذه المظاهرة البحرية أول مظاهرة من هذا النوع أثناء الثورة العرابية ، والمظاهرة الثانية وقعت فى شهر مايو سنة ١٨٨٢ كما سيجىء بيانه . ويلاحظ أن البارجة « انفنسبل » هى احدى البوارج التى اشتركت فى ضرب الاسكندرية يوم ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ ، فحضور الوفد العثمانى كان باعثا على مجىء هذه البوارج .. فلا جرم كان حضوره ضارا بمصر من جميع النواحى

وظل رجال الوفد العثمانى فى مصر بضعة عشر يوما بين مقابلات وولائم ، وأجمعت كلمة من حادثوهم من ذوى المقامات على أن البلاد ليس فيها أى اضطراب . وأكد لهم الخديو أن الجيش على طاعته ، وبذلك انتهت مهمتهم . واتضح أن مجيئهم لم يكن له مسوغ ، ولا كانت له نتيجة ما ، وعادوا الى الاسكندرية يوم ١٨ اكتوبر سنة ١٨٨١ ، وفى صباح اليوم التالى انقلبوا راجعين الى الاستانة

انشاء مجلس النواب

فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ رفع شريف باشا الى الخديو تقريرا باجابة مطلب الأمة فى صدد انشاء مجلس النواب ، ضمنه مزايا النظام الدستورى وضرورة اقراره فى مصر ، وطلب تمهيدا لتأليف المجلس النيابى الجديد اجراء انتخابات عامة طبقا للائحة مجلس شورى النواب القديم .. على أن تعرض الوزارة على المجلس المنتخب مشروع اللائحة الأساسية التى تكفل نهوضه الى مستوى المجالس النيابية الصحيحة ، أو بعبارة أخرى دعا الى انتخاب مجلس شورى النواب على أن يكون « جمعية تأسيسية » تضع الدستور الجديد

وفى نفس اليوم الذى رفع فيه شريف باشا تقريره الى الخديو ، صدر الأمر العالى باجراء الانتخابات العامة وتحديد يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ لافتتاح مجلس النواب

ولما كان نظام مجلس شورى النواب القديم يجعل انتخاب النواب موكولا الى عمد البلاد ومشايخها فى المديريات وجماعة الأعيان فى القاهرة والاسكندرية ودمياط ، فقد جرت انتخابات سنة ١٨٨١ على هذا الأساس

ولا شك فى أن جعل انتخاب النواب موكولا الى عمد البلاد ومشايخها فى المديريات يسهل على الحكومة السيطرة على الانتخابات واملاء ارادتها فيمن يختارهم العمد والمشايخ .. ولكن شريف باشا حرص حرصا شديدا على أن تجرى الانتخابات حرة بعيدة عن تدخل الحكومة . وأصدر منشورا بذلك الى جميع المديريات والمحافظة نبه فيه المديرين والمحافظين الى ترك الانتخابات حرة ، وهو أول منشور انتخابى فى تاريخ مصر الحديثة يقضى باحترام حرية الانتخابات العامة

وفى الحق أن الحكومة لم تتدخل فى هذه الانتخابات ، ولم تتعرض لحرية الناخبين فى انتخاب من يريدون .. فكان الانتخاب حرا بكل معانى الحرية . وكذلك كان حرا من تدخل العرابيين واملاء ارادتهم على الناخبين ، وترشيح أشياعهم وأتباعهم . وقد كان فى استطاعة حزبهم باعتباره صاحب الفضل فى انشاء مجلس النواب أن يتدخل فى الانتخابات ، ويملى ارادته على الناخبين ، لكى يضمن تأليف غالبية النواب من أتباعه ومرشحيه . ولو فعل ذلك لقضى على حرية الانتخاب قضاء مبرما .. ولكن حسنا فعل ، اذ ترك الناخبين أحرارا فى انتخاب من يأنسون فيهم الاستقامة والاخلاص والكفاية ، ولم يسلبهم حرية الاختيار التى هى قوام الحياة الدستورية الصحيحة .. فجاءت

الانتخابات صورة صادقة لارادة الناخبين ، وضرب العرابيون بذلك مثلا رائعا فى احترام حرية الانتخاب

افتتاح مجلس النواب

كان افتتاح مجلس النواب يوما مشهودا من أيام مصر التاريخية ، استقبلته الأمة مغتبطة مبتهجة بما نالته من تقرير حريتها السياسية بانشاء مجلس يمثلها ويشرف على شؤونها وأقدارها . وقد كان هذا المجلس حقا رمزا لهذه الحرية .. ولولا دسائس الانجليز ومكايدهم لكان فاتحة عصر جديد لنهضة مصر وتقدمها

أعدت قاعة اجتماع المجلس بديوان وزارة الأشغال - قاعة اجتماع مجلس الشيوخ الآن - وحدد يوم الاثنين ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ لافتتاحه (١) فلم تكد تشرق شمس ذلك اليوم حتى ازدحم الديوان والشوارع المفضية اليه بالجماهير ، واصطفت أورطة من الألاى الأول المشاة - الاى الحرس - على جانبى الطريق من باب الديوان الى سلم القاعة بقيادة البكباشى محمد عبيد (الذى تقدم الكلام عن الدور الذى قام به فى واقعة قصر النيل) ومعها موسيقاها العسكرية تصدح بألحان الفرح والسرور والابتهاج

وحضر النواب ، وأخذوا مجالسهم ووجوههم تتهلل غبطة وسرورا .. وفى نحو الساعة العاشرة صباحا تحرك الركب الخديوى من سراى الاسماعيلية ، فأطلقت المدافع من القلعة ايذانا بتحرك الموكب . وكان يصحب الخديو فى عربته شريف باشا رئيس مجلس الوزراء ، واحمد خيرى باشا المهردار - حامل الختم - ورئيس الديوان الخديوى ، وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى

---

(١) كان محددا لافتتاحه يوم ٢٣ ديسمبر كما تقدم بيانه ، ولعدم اكمال معدات الاجتماع أرجىء الى يوم ٢٦ منه

فلما أقبل الركب صدحت الموسيقى بالسلام ، وهتف الجنود بحياة الخديو منادين النداء المعتاد : « افندمز جوق ياشا » ـ أى يعيش أفندينا ـ وكان فى انتظاره على سلم المجلس جميع الوزراء ورئيس مجلس النواب وبعض أعضائه فتلقوه بالاجلال .. وقصد الى الغرفة المعدة لاستراحته ، فلبث بها هنيهة قصيرة ، ثم أنهى اليه محمد سلطان باشا رئيس المجلس أن المجلس قد استعد وكمل اجتماع الاعضاء . فسار الخديو ودخل قاعة الاجتماع فى نحو الساعة الحادية عشرة ، وحيا الاعضاء .. فتلقوه بجميل الاعزاز والاجلال

وأخذ مجلسه يحف به كبار رجال الدولة ، وافتتح المجلس بتلاوة خطبة العرش ، وقد تلاها بنفسه ، وهذا نصها :

« أبدى لحضرات النواب مسروريتى من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالى فى الأمور العائدة عليهم بالنفع ، وفى علم الجميع أنى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب .. ولكن تأخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة . فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما تيسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ، ومن تخفيف أحمال الأهالى على قدر الامكان، فلم يبق مانع من المبادرة الى ما أنا متشوق لحصوله وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم ، وأنتم تحيطون علما أن جل مقاصدى ومساعى حكومتى هو راحة الأهالى ورفاهيتهم وانتظام أمورهم بتعميم العدالة بينهم ، وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم ، وهذا منهجى واضحا مستقيما ، وعليه سيرى منذ توليت أمركم ، محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف

« فعلى المجلس أن يكون مساعدا للحكومة فى هذه الأمور كلها ، خالصا مخلصا فى خدمة الوطن منحصرة أفكاره

ومذاكراته فى المنـافع العموميـة ، مع مراعاة قرار لجنـة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول ، سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذى هو أهم شىء فى هـذا الوقت الذى هو عصر الترقى والتمدن .. فالواجب علينا الاعتدال والتـأنى وحسن التبصر ، وأن نكون يدا واحـدة فى اتمام الاعمال النافعة ، متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ، ومتمسكين بقوة ارتباطنا بالحضرة الشاهانية والدولة العلية أدامها الله ، نسأل الله حسن النجاح انه ولى التوفيق »

ولما انتهى الخديو من تلاوة خطبة العرش هتف الجميع له وأطلقت المدافع من القلعة مؤذنة بانتهـاء الخطـاب مبشرة باجتماع مجلس النواب .. ثم برح الخـديو مكان الاجتماع وصدحت الموسيقى بنغمات التحية له ، وعاد الى سرايه فى موكب حافل

وتعد خطبـة الخدَيو توفيق من الوثائق الهامة فى تاريخ مصر الدستورى ، لأنها أول خطبة لولى الأمر فى افتتاح أول مجلس نيابى كامل السلطة فى تاريخ مصر الحديث ، وهى فى مجموعها سديدة المعانى واضحة الأسلوب ، متضمنة اعلان الخديو انضمامه الى الأمة فى اقرار النظام الدستورى . وقد ألقاها بنفسه دون أن يستنيب عنه رئيس مجلس الوزراء كما هو العرف البرلمانى ، فكان فى القائه اياها تثبيتا وتوكيدا لما احتوت عليه من الآراء والمعانى

لم تكن جلسة الافتتاح علنية ، وذلك طبقا للائحة مجلس شورى النواب القديمة .. ولكن الحكومة تجاوزت عن تطبيق هذا النص ، فدخل كثير من النظارة مكان الاجتماع ، ووقفوا حول مقاعد الأعضاء حتى انتهت حفلة الافتتاح . ولم يدع أحد من قناصل الدول الى حضور الحفلة باعتبارها حفلة سرية طبقا للائحة القديمة ، ولأن هذا الاجتماع من شؤون البلاد الداخلية . وقد أعد فى القاعة ١٢٠ كرسيا لجلوس

النواب ، وكانوا فى الواقع أقل من ذلك .. ولكن الحكومة كانت معتزمة تعديل اللائحة الأساسية القديمة بزيادة عدد النواب عن بعض المديريات ، وانتخاب نواب عن السودان ، فأعدت منذ افتتاح المجلس المقاعد الكافية لهذا العدد .. وأعدت كذلك نحو ٤٠٠ كرسى للنظارة ، لاعتزامها جعل جلسات المجلس علنية فى اللائحة الجديدة

وبعد انصراف الخديو دخل النواب مكان الأقلام «اللجان» وظلوا مستريحين ساعة من الزمن ، ثم عادوا الى قاعة المجلس ، واستأنفوا اجتماعهم ، فألقى فيهم محمد سلطان باشا الخطبة الآتية :

« أيها السادة النواب

« نحمد الله الذى جعل أمرنا شورى ، ونصلى ونسلم على نبيه المأمور بالشورى والآمر بها ، وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وسمو الارادة ، فما زادكم الا يقينا بما عهدتم بالجناب المعظم من صفاء النية وكرم العنصر وسلامة الطوية والارتياح الى المصلحة الوطنية .. وقد اجتمعتم فى هذا المكان الرفيع بعناية الجناب العالى ورجال حكومته السنية للنظر فى أمور أوطانكم وأنتم خلاصة وجهاء القطر وبضعة أعيانه ونبهائه ، فواجباتكم من هذا القبيل تقضى عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ..

« ولا أزيدكم علما أن الوطن العزيز محتاج الى الاصلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لأسباب المنافع الكلية ، فما عليكم الا السعى والاجتهاد لنوال المراد . ولكنكم لاتجهلون أن علينا حقوقا واجبة الحفظ ، وذمما لازمة الرعاية ، وأنا قد أمرنا شرعا بحفظ العهود ورعى الذمم ، فمن تلك العهود شدة الارتباط وصلة التابعية للدولة العلية التى هى مركز قوتنا ومرجع سطوتنا ، وقد عرفنا منها العناية وعرفت منا

الاخلاص . فلا بد من ثباتنا على هذه الحال بالنظر اليها ،
ولا شك أن تقدمنا واستقامة أمورنا وتأييد أمر الشورى
فينا يسر هذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القوة التى
تكون جزءا من قوتها الكلية . ومن الذمم والمواثيق علاقتنا
المالية والتجارية مع الدول العظمى ، فهـذه الذمم واجبة
الرعاية لما يترتب على حفظها من استحكام صلات المودة
بيننا وبين هاتيك الدول التى ينبغى لنا الاعتقاد برغبتها فى
انتظام أمورنا وميلها الى كل ما يعود علينا بالنفع كما صرح
بذلك عظماء رجالها على منابر المجالس النيابية وفى المنشورات
الرسمية

« فاذا حفظنا تلك العهود ورعينا هذه الذمم وعرفنا حقوق
الوطن علينا ولم نذهل عن شىء من الواجبات لزمنا الأخذ
بأسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب لنا النفع ويدرأ عنا
الضرر ويثبت للناس جدارتنا بما وصلنا اليه ويحقق بنا ظن
أبناء الوطن الذين جعلونا موضع ثقتهم واعتمادهم

« فوجهوا اخوانى همتكم فى السعى بالحكمة والاعتدال
والتبصر والثبات .. فمن جد وجد ، ومن سار على الدرب
وصل »

ثم ألقى سليمان باشا أباظة نائب الشرقية الخطبة الآتية :

« سـعادة الرئيس ، الحمد لله على سوابغ آلائه ونوابغ
نعمائه ، وبعد فقد أبان رئيس مجلسنا الهمام ما تضـمنته
المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وصفاء النية والميل
الى المصلحة الوطنية ، وأوضح بعد ذلك حق الوطن علينا
وواجباتنا بالنظر الى العهود الواجبة الحفظ والذمم اللازمة
الرعاية ، وهذا موقف ، الشكر له والثناء عليه ، أقوم فيه
أصيلا عن نفسى ونائبا عن سائر اخوانى النواب .. فياسعادة
الرئيس الهمام ، لقد علمت وأنت أولنا ان ليس منا من قبل
النيابة على علم بعظم واجباتنا الوطنية والسياسية الا وفى

عزمه أداء حق الوطن وحفظ العهود المرعية وخدمة الأمة بما يجلب لها النفع ويدرأ عنها الضر .. ويا اخوانى ، لقد علمتم أن الأنظار محدقة الينا والأفكار محومة علينـا ، وأن الوطن العزيز محتاج الى الاصلاح كما قال سعادة الرئيس .. فلندخل الاصلاح من بابه ، ونأخذ فيه بأسبابه ، لا ننظر الا الى المصلحة العمومية ، ولا نهتم الا بالمنفعة الوطنية . وقد حصل لنا اليقين بأن يد الجناب الخديو المعظم منبسطة لمساعدتنا ، وعناية رجال حكومة متوجهة الى تأييد مجلسنا ، وان الأمة تتوقع منا الاجتهاد فى سبيل الحكمة والسداد ..

« فما أجدرنا بتحقيق الآمال ، وما أحقنا بالسعى فيما يصلح به الحال ويحسن الآمال ، وقد آن الشروع فى العمل ، فلنقبل عليه بنفوس راضية ، وقلوب صـافية ، وأفكار متوجهـة الى حقوق الوطن ، ونيـات معقودة على أداء الواجبات ، والله ولى توفيقنا عليه توكلنا واليه نتيب »

كان افتتاح المجلس بمثابة عيد قومى عام .. تجلت فيه مظاهر الابتهـاج والغبطة والسرور العظيم ، فوفد على العاصمة فى ذلك اليوم كثير من الزائرين من مختلف المديريات لمشاهدة حفلة الافتتاح ، وأقيمت الولائم والحفـلات فى القاهرة والاسكندرية ابتهاجا بافتتـاح المجلس الجديد . واشترك فيها كثير من النواب والاعيان والموظفين وطبقات الشعب كافة ، وعبرت الصحف أصدق تعبير عن شعور الرأى العام نحو هذا الحادث الهام فى حياة مصر القومية

وقد اجتمع المجلس يوم افتتاحه وانتخب من بين أعضائه لجنة عهد اليها تحضير الجواب على خطاب العرش وتقديمه الى الخديو ، وهذه اللجنة مؤلفة من عشرة أعضاء من النواب البارزين وهم : احمد بك الشريف ، عبد السلام بك المويلحى ، محمد بك الشواربى ، أمين بك الشمسى ، هلال بك منير ، محمود بك سليمان ، أحمد بك على ، مراد أفندى السعودى ،

اسماعيل أفندى سليمان ، على بك شعير

وقد أعدت اللجنة الجواب وأقره المجلس، وفى يوم الخميس ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، ذهب سلطان باشا رئيس المجلس ومعه عبد الله باشا فكرى كبير الكتاب وأعضاء اللجنة العشرة الى سراى الاسماعيلية بملابسهم الرسميـــة لتقديم جواب المجلس على خطاب العرش ، فقابلهم الخديو بحضور الوزراء ، وتلا محمود بك سليمان الجواب ، وهذا نصه :

« بعد حمد الله تعالى على توفيقه وارشـــاده ، والصلاة والتسليم على من اصطفى من عباده ، نقوم لدى هذه السدة الخديوية الكريمة نحن معاشر نواب الأمة المصرية مقام النيابة عن جميعها فى تقديم واجب الشــــكر لهذا الجناب الخديوى الفخيم على انعطاف عواطفه نحو مجلس الشورى النيابية الذى افتتحه بنطقه الشريف اظهارا لمقصده الجليل من حيز القول الى عالم الفعل واجابة لرغبة الأمة ، ونظرا للمصلحة العامة .. بعد أن زالت العوائق دونه وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلائل هممه الخديوية التى ذللت لها صعاب المسائل ، وخضعت دونها رقاب المشاكل ، حتى صفا الوقت واطمأنت الحال ، « ودنى المنى وانقادت الآمال » . ولقد شنف أسماعنا وأنعش أرواحنا ذلك النطق الكريم ، وملك أفئدتنا وملأها سرورا وطربا بما تضمن من الافصاح عما عرفناه لولى النعمة ، وألفناه من نزاهة النية ونبالة القصد ، حتى لقـــد نطقت السرائر بما بدا على قسمات الوجوه من سمات السرور . فلم تدع للألسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كريمة لمولى متفضل عليها متحبب اليها محب لحريتها مشغوف بخيرها ومنفعتها

« فلم يبق الا أن نبذل غاية ما فى السعة ونأتى على قاصية الاستطاعة فى نفع هذه الأمة التى ندبتنا للنظر فى منفعتها واستنابتنا عن أنفسها لرؤية مصالحها ، سالكين فى ذلك من

مسالك الحزم والتبصر وحسن النظر ما تحسن بعناية الله مغبته ، وتحمد بيمن توفيقه عاقبته ، ويعضد مقاصد حكومتنا السنية المتجهة للسداد والرشاد وسلامة البلاد والعباد ، ويؤيد ما لنا من روابط التبعية للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التى منحتنا عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية ما جلت به النعمة وعظمت المنة ، ويؤكد علائقنا الودادية مع الدول الاجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدة بلادنا مبتهلين الى الله جل ثناؤه وتقدست آلاؤه فى أن يحرس لنا هذا الجناب الخديوى الفخيم ويديم لأوطاننا به النفع العميم ، أدام الله توفيقنا على أحسن مايرام وبلغ به الوطن العزيز غاية المرام »

وتعد خطبة رئيس مجلس النواب يوم افتتاح المجلس وتعقيب سليمان باشا أباظة عليها وجواب المجلس على خطبة العرش من الوثائق الهامة فى تاريخ المجلس .. وهى صورة ناطقة تمثل لنا جانبا من الحياة السياسية والآداب البرلمانية فى ذلك العصر ، ولغة هذه الوثائق ومعانيها حسنة — فى مجموعها — وتدل على سهولة استساغة نواب سنة ١٨٨١ للأساليب البرلمانية الحديثة

وضع الدستور

واشتغلت وزارة شريف بوضع الدستور ، وكان يسمى فى اصطلاح ذلك العصر « اللائحة الاساسية » أو « القانون الأساسى » ، وقد وضع على أحدث المبادىء العصرية ، اذ يتضمن القواعد الرئيسية للنظم البرلمانية ، كتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب ، وتخويل المجلس حق تقرير القوانين بحيث لا تصدر الا بتصديق منه ، وتقرير الميزانية ، والرقابة على أعمال الحكومة وموظفيها والزامها بعدم فرض أى ضريبة أو اصدار أى قانون أو لائحة الا بعد

تصديق المجلس ، وقد أخذ بنظرية وحدة الهيئة النيابية فجعلها ممثلة فى مجلس النواب دون مجلس للشيوخ

ولما أتم شريف باشا وضع الدستور عرضه على مجلس النواب للمناقشة فيه واقراره .. ففى عصر يوم ٢ يناير سنة ١٨٨٢ ، جاء الى مجلس النواب يصحبه سائر الوزراء ، فعرض الدستور على هيئة المجلس ، وألقى فى هذا المقام خطبة ضافية ذكر فيها خلاصة ما احتواه من القواعد ، وألمع الى أنه بوضع هذا الدستور انما ينفذ الخطة التى رآها من ثلاث سنوات ، فى عهد الخديو اسماعيل

وقد أحال المجلس مشروع الدســتور على « اللجنة الدستورية » وهى لجنة ألفها خصيصا للنظر فيه وكانت تسمى « لجنة اللائحة » وقد بحثت اللجنة مواد الدستور وأقرت معظمها مع تعديلات يسيرة فى بعضها لا تغير من جوهره شيئا . وكاد الأمر يتم بالاتفاق بين الحكومة والمجلس على نصوص الدستور ، لولا الأزمة السياسية التى أدى اليها تدخل فرنسا وانجلترا فى وضع الدستور وانتهت بسقوط وزارة شريف

أزمة يناير سنة ١٨٨٢

اعترض وضع الدستور أزمة سياسية خطيرة نسميها أزمة يناير سنة ١٨٨٢ .. ترجع الى ســوء نية انجلترا وفرنسا حيال مصر وائتمارهما بالنظام الدستورى ، الذى كاد يستقر باعلان اللائحة الاساسية . ولم يكن بقى على اعلانها وصدور المرسوم بها سوى اجراءات شكليةمن تبادل الرأى بين مجلس النواب والحكومة على التعديلات الطفيفة التى أدخلتها لجنة المجلس فى مشروع اللائحة ..

ولكن انجلترا وفرنســا أرادتا أن تحدثا حــدثا يخلق الاضطراب فىمصر ، وقد يودى بالدستور.. وذلك بتدخلهما

فى شؤون مصر الداخلية ، وايقاع الفرقة بين الخديو والأمة ، لكى تتخذا من هذه الفرقة ذريعة للتدخل المسلح

ففى اليوم الثامن من شهر يناير سنة ١٨٨٢ توجه السير ادوار مالت معتمد انجلترا ، والمسيو سنكفكس المعتمد الفرنسي مجتمعين الى سراى عابدين ، وقدما الى الخديو مذكرة مشتركة من الدولتين بتاريخ ٧ يناير سنة ١٨٨٢ ، قوامها أنهما حيال الحوادث الأخيرة قد أجمعتا على تأييد سلطة الخديو

وفحوى المذكرة ان الدولتين انتحلتا لنفسيهما حق القوامة والرقابة على مصر واقرار الأمن والنظام فيها ، والتدخل فى شؤونها الداخلية .. وظاهر من عباراتها أن فرنسا وانجلترا كانتا تنظران بعين الاستياء الى تأليف مجلس النواب وقيام النظام البرلمانى فى مصر .. ولم تكتما الاعراب عن هذا الاستياء صراحة فى المذكرة ، اذ جعلتا من الحوادث الموجبة للتدخل « صدور الأمر الخديوى باجتماع مجلس النواب »

قوبلت هذه المذكرة فى مصر بالسخط العام .. وهاجت لها الخواطر ، وتوجه شريف باشا الى معتمدى فرنسا وانجلترا وأنهى اليهما اعتراضه على المذكرة

وأعقب هذا التدخل تدخل آخر ، اذ طلب قنصلا الدولتين من شريف باشا بايعاز من الرقيبين الاوربيين ألا يخول مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وقدما اليه فى ٢٦ يناير سنة ١٨٨٢ مذكرة بهذا المعنى أثناء اشتغال «اللجنة الدستورية» بالنظر فى اللائحة الاساسية ..

كان هذا التدخل تحديا بالغا لكرامة البلاد وحقوقها ، وتدبيرا مبيتا بين الدولتين للتدخل المسلح وخلق الذرائع للاحتلال .. اذ ما شأن انجلترا وفرنسا بنظام مجلس النواب المصرى ؟ وأى قانون يخولهما حق التدخل فى وضع الدستور



محمد شريف باشا

والمطالبة بحرمان المجلس حق تقرير الميزانية ؟!

لا شك أن هذا عدوان منكر لا سند له من الحق ولا من العهود المبرمة بين مصر والدولتين ، لا سيما أن مشروع اللائحة الاساسية كان ينص فى صراحة لا ابهام فيها على احترام اتفاقات مصر الخاصة بتسوية الديون . وفى هذا النص الكفاية لاطمئنان الدول ورعاياها على حقوقهم .. أما التذرع بهذه الديون لحرمان مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، وهو أهم خصائص البرلمان ، فهوالظلم والاعتساف والتحكم الذى لا مسوغ له ، وهو الطمع الاستعمارى الذى لا يحترم حقا ولا يرعى عهدا

كان الموقف على جانب كبير من الخطر .. فهناك أولا حقوق الامة وكرامتها ، ولا تقبل أمة تحترم نفسها أن تنزل على ارادة دولتين غاصبتين تريدأن حرمان مجلس النواب حقا من أقدس حقوقه ، وهو تقرير الميزانية .. وهناك من جهة أخرى الخطر الماثل أمام رجل الدولة ، اذ يرى البلاد هدفا للتدخل المسلح من جانب الدولتين المتحفزتين للاحتلال

وقد ارتأى شريف باشا درءا للازمة أن لايبت مجلس النواب بقرار نهائى فى المادة المتعلقة بالميزانية ، وأن يرجئها الى حين ، حتى تنجلى الغمة . وبذلك يتفادى التدخل المسلح الذى لم يكن فى استطاعة مصر أن تصده لما كانت عليه وقتئذ من الضعف والارتباك . والتأجيل فى ذاته لم يكن مضيعا لحقوق الامة فى الدستور ، بل كثيرا ما يكون التأجيل من الوسائل السياسية التى يعمد اليها لاتقاء الازمات .. على أن وضع الدستور قد يستغرق وقتا يطول أو يقصر ، على حسب الظروف والملابسات . ولم يكن النص الخاص بالميزانية فى ذاته مستعجلا لأن ميزانية سنة ١٨٨٢ كان قد صدر المرسوم باعتمادها فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨١ ، أى قبل انعقاد مجلس النواب .. فالبحث فى أمر الميزانية لاتبدو

أهميته العملية الا فى ختام سنة ١٨٨٢ حيث توضع ميزانية سنة ١٨٨٣ ، فارجاء البت فى هذا النص لم يكن له من الخطر ما يدعو الى التصادم بين المجلس والوزارة

وقد نصح المستر « بلنت » عرابى وصحبه بالاعتدال فى موقفهم من هـذه الأزمة ، وبأن لا يقطعوا برأى فى نص الميزانية قبل أن تفاوض الوزارة حكومتى فرنسا وانجلترا . وأيده الشيخ محمد عبده فى نصيحته ، وروى عنه أنه قال فى هذا الصدد : « لقد لبثنا عدة قرون فى انتظار حريتنا ، فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر » .. ولكن نصيحة الاثنين ذهبت عبثا !

وقد عرض شريف باشا على مجلس النواب فكرة التأجيل .. ولكن عرابى ورؤساء الضباط والأعضاء البارزين من النواب لم يقبلوا هذا الحل ، وارتأوا رأيا آخر يناقضه ، وهو تقرير مادة الميزانية فى الحال . ويلوح لنـا أن ثمة عاملا آخر غير الاقتناع كان له دخل فى الأخذ بهـذا الرأى وهو انصراف العرابيين عن شريف ، ورغبتهم فى اقصائه عن الحكم ، واسناد رآسة الوزارة الى رجل منهم ، اذ لم يكن يخفى أن شريف باشا وان كان قد ألف وزارته على قاعدة اجابة مطالب العرابيين ، لكنه كان يشعر حيالهم بشىء من الاستقلال والكرامة ..

وهـذا ما جعل العرابيين يرغبون فى التخلص منه ويستبدلون به رجلا من خاصتهم .. وقد ساعد على ظهور هذه الرغبة طموح محمود باشا سامى البارودى الى رآسة الوزارة .. فقـد كان البارودى كثير الطموح الى السلطة والجاه ، ومن هنا تعقدت الأزمة ، وامتنع الأخذ برأى شريف باشا ، لأن البارودى وهو وزير الحربيـة فى وزارة شريف باشا ، قد زين لعرابى وصحبه أن يتشبثوا برأيهم ، ويرفضوا التأجيل ، ويقرروا مادة الميزانية فورا . وقد رتب على هذه

الخطة وصوله الى الرياسة ، لأنه كان مفهوما أن رفض النواب رأى شريف باشا يؤدى بداهة الى استقالته ، فيدعى هو الى تأليف الوزارة الجديدة .

استقالة شريف باشا

وكان ما رتبه البارودى .. فقد اتفقت كثرة النواب على رفض التأجيل وعلى اقرار مادة الميزانية كما هى . ورأى شريف باشا من حديثه مع أعضاء اللجنة الدستورية أنهم راغبون فى اسقاط وزارته ، فلم ير بدا من تقديم استقالته فى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢

وقد كان يجدر بالنواب أن يتريثوا فى الأمر .. وأن لا ينقلبوا بهذه السرعة على من كان موضع آمالهم حتى الأمس . ومما يستوقف النظر ويدعو الى الأسف ، أن يكون أول عمل هام لمجلس النواب هو التخلص من الرجل الذى أنشأه وناضل من أجله ووضع نظامه الأساسى .. ولكنها الأهواء والمطامع كان لها الأثر البالغ فى ركوب هذا المسلك

ويعد سقوط وزارة شريف باشا اقصاء تاما لسلطة الخديو وانتصارا حاسما للحزب العسكرى وعلى رأسه عرابى ، لأن الخديو لم يكن راغبا فى استقالة شريف باشا
وقد ذاعت شهرة عرابى فى أوربا عقب سقوط هذه الوزارة بعدما تبين أن له النفوذ الفعال فى مجلس النواب .. اذ استطاع بواسطته اسقاط الوزارة التى رغب فى التخلص منها

وزارة البارودى

نزل الخديو على ارادة الحزب العسكرى – وفى الظاهر ارادة النواب – فأسند رياسة الوزارة الى محمود سامى

البارودى .. فألفها وأدخل عرابى فيها وزيرا للحربية .. ويبدو من التأمل فى الكتاب الذى رفعه الى الخديو بتأليف الوزارة أن لا خلاف فى المبادىء العامة بين الوزارة الجديدة والوزارة المستقيلة ..

والخلاف الحقيقى بينهمـا هو فى اقرار المواد المتعلقـة بالميزانية فورا .. وكان شريف يرى تأجيلها الى حين . وثمة فارق آخر فى التشكيل ، فان وزارة البارودى مؤلفـة من صميم العرابيين .. وحسبك أن فيهـا عرابى باشا وزيرا للحربيـة ، وقد كانت فى ذلك الحين أهم الوزارات شـأنا وأعظمها نفوذا . وربما كان هذا من أهم الأسباب الحقيقية التى أدت الى تغيـير الوزارة ، لأن عرابى كان يطمع فى أن أن يتولى وزارة الجهادية بعد أن ارتقى فى عهد وزارة شريف باشا الى منصب وكيلها ، كما كان يطمع البارودى فى رآسة الوزارة . وهكذا كان التطلع الى المناصب الوزارية ـ ولم يزل ـ من أسباب ما حل بمصر من الكوارث



ثورة عرابى

فى مرحلتها الثانية

المرحلة الثانية من الثورة

ويقيننا أن الثورة العرابية قد بدأت تسلك سبيلا بعيدا عن الحكمة من يوم أن اتفق عرابى وصحبه على اسقاط وزارة شريف باشا وبدأت بذلك مرحلتها الثانية ٠٠ مرحلة الشطط والخطل ، فان شريف باشا كان بلا نزاع أقدر من البارودى على حسن تدبير الأمور فى تلك الاوقات العصيبة، اذ له من ماضيه السياسى وثقافته واختباره ما يجعل له كفاية ممتازة فى الاضطلاع بالمهام السياسية ، أما البارودى فقد كانت نشأته أدبية وحربية فحسب ، وعلى أنه من أعلام الأدب وكبار الشعراء ، وله فى ذلك المقام الذى لا يبارى ٠٠ لكن هذه المزايا ليست هى المطلوبة لتصريف سياسة مصر، وخاصة فى ذلك العصر المضطرب ٠٠ أضف الى ذلك أن النشأة الحربية اذا اجتمعت الى الشعر والادب ، تثير فى النفس روح الخيال والتطلع الى أقصى مراتب المجد والعلا ٠ ومن هنا جاءت آمال البارودى بعيدة الأفق ، لا تقف عند حد ، حتى بلغت التطلع الى العرش

وقد عظم شأن عرابى بتقلده وزارة الحربية ، فانها الوزارة الوحيدة التى كانت تتطلع اليها الانظار فى ذلك الحين ٠٠ وفيها كانت تتمثل سلطة الحكم ، وقوة الحركة الوطنية ، فأصبح عرابى الرئيس الفعلى للحكومة ٠ وزاد من مكانته نيله بعد تقلده الوزارة رتبة لواء « باشا » ، لما للألقاب والرتب من الأثر الذى لا ينكر فى نفوس العامة والخاصة ٠ وصار له الأمر والنهى ، لا فى وزارة الحربية فحسب ، بل فى كل وزارات الحكومة ٠ وأصبح دكتاتورا محضا، وأضحت

داره ملجأ لطلاب الحاجات وأصحاب الشكايات

دستور سنة ١٨٨٢

أقر مجلس النواب الدستور وصدر به المرسوم الخديوى فى ٨ فبراير سنة ١٨٨٢ وقدمه البارودى الى المجلس موقعا عليه من الخديو ، وألقى لهذه المناسبة خطبة بليغة جاء فيها:

« أيها السادة النواب ٠٠ أحسب نفسى سعيد الطالع بحضورى بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الاساسى الذى سيكون آن شاء الله قاعدة لجميع أعمالكم ، ويسرنى كل السرور أننى لم أحمله اليكم الا بعد يقينى أنه خير أساس يمكنكم أن ترفعوا عليه من الاعمال ما يعزز شأن البلاد وينمى ثروتها ويقوى أصول العدالة فيها ٠٠٠

« الا أننى أعلم كما تعلمون أن مجرد وضع القانون على أصول الحرية وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم ، بل لابد أن ينضم الى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الاعمال والافكار منحصرة فى دوائرها ٠ وقد قال عقلاء السياسيين أن الوصول الى هذا النوع من الكمال ، أعنى حصر جزئيات الاعمال وكلياتها فى دائرة القانون ، انما ينال بعد العناء وطول التجارب ٠٠ لكننى لا أعد هذا صعبا عليكم ، فان العناية الالهية ساعدت سعد البلاد بوقوع الانتخاب على حضراتكم ، وأنتم على أكمل درجات العقل والفضيلة ٠ ولا عناء فى اتباع القانون الا على القاصرين ، وفى أملى أنكم ستحققون ما يظنه أحباء البلاد فيكم عندما تبتدئون فى الاعمال المهمة التى تهيأتم الآن لمباشرتها ، بأن تستعملوا صادق النظر للوقوف على ما فيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى لا يضيع الزمن الطويل

فى الحصول على فائدة قليلة • وهذا لا يكون الا بتخليص الافكار وتمحيص الطوايا من شوائب النزعات الشخصية بأن نجعل الاعمال وقفا على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى أبنائكم

« ان التفات النظر الى الخصوصيات يبعث فى القلوب محاسدات ومنافرات تحمل على الخلاف الدائم ، نعوذ بالله ، وانكم تعلمون أن الذين رقوا الى ذروة العز وأوج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم فى طلب النفع العام،فاعترف العالم بفضلهم وأجلتهم القلوب فأعلتهم أعلى المنازل ، فثبتوا فى مكانتهم ما داموا بحلية الاخلاص ، وانى أهنىء نفسى بوقوفى بين عقلاء البلاد العارفين بحقوق بلادهم عليهم ، العالمين بأن شرفهم معقود بشرف أوطانهم ، الموقنين بأنهم لن يكونوا نوابا حقيقيين الا اذا أقاموا على صدقهم براهين من العمل وحججا من الثبات فى خطة الاعتدال حتى يقنع بها البعيد كما عرفها القريب

« وفى علم حضراتكم أيها السادة أننى عند استلامى رياسة النظار رفعت الى جناب خديوينا المعظم تقريرا بينت فيه مبادىء الهيئة الحاضرة وأظنكم قرأتموه وتأملتم معانيه، وقد تكرم على جناب الخديوى بقبوله • وانى مؤمل فيكم أن تكونوا عضدا لنا وساعدا قويا على تتميم ما قصدنا ليستقر أمر النظام وتتوفر لدينا أسباب الثروة والرفاهية ، ونحفظ الحقوق التى لنا ، ونؤدى الواجبات التى علينا ، ونوفى بجميع عهودنا لمن عاهدناه • ونكون بذلك قد أرضينا سلطاننا الأعظم الذى يسره نجاحنا وتقدمنا ، وأرضينا جميع الدول المتمدنة التى تحب أن ترانا حائزين لشرفنا حافظين لحقوقنا، قائمين بعهودنا • وآخر ما نتواصى به أن لا نجعل للتعصب المشربى دخلا فى الاعمال الوطنيه التى كلفتكم البلاد أن تقوموا بأدائها ، وأن تكون الوطنية الحقة هى الباعث القوى

على كل فكر والغاية القصوى من كل قول وعمل ، نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه رفعة أوطاننا وتقدم بلادنا وأن يمتع البلاد ببقاء حضرة خديوينا المعظم أيده الله »

ولما انتهى من خطبته قدم للمجلس نسخة الدستور مصدقا عليها من الخديو

فنهض عبد السلام بك المويلحى وألقى كلمة شكر للبارودى على اسراعه بالتصديق على الدستور . ورد عليه البارودى باسمه واسم زملائه بأنهم لم يفعلوا الا الواجب. ثم ألقى سلطان باشا بلسان النواب كلمة شكر أخرى وانتهت الجلسة اذ كانت الساعة السابعة

وبعد انفضاض الجلسة توجه النواب الى السراى الخديوية ليؤدوا للخديو واجب الشكر .. فلما مثلوا بين يديه تلقاهم بالبشر والايناس ، وتقدم سلطان باشا بالنيابة عنهم وقال: « ان حضرات النواب وفدوا الى هذه الساحة الفيحاء ليقدموا للجناب المعظم شكرهم وامتنانهم على ما أولاهم جنابه الكريم من النعم وما منحته حضرته العلية لأهل القطر من التفضل والاحسان » ، ثم دعا للجناب الخديوى بدوام العز والاقبال وأمن جميع الحاضرين .. فوقع ذلك موقع القبول لدى الخديو وشكر النواب على صنعهم الجميل ، ثم جلسوا ودارت بينهم أحاديث ودية

وأعرب لهم الخديو عن ميله الغريزى لمحبة الاصلاح وحسن مساعيه لمنفعة رعيته ، وأنه لا يقصد بهم الا الخير ، ولا يريد لهم غير خطة التقدم والعمران . ثم نصح لهم أن يسلكوا جادة الخير ويسيروا فى سبيل المنافع العمومية بقلوب ثابتة ونيات صادقة ، متخذين الحزم مرشدا والسكون والتأنى دليلا ، ووعدهم بأنه مستعد لمساعدتهم فى كل ما أرادوه من الاعمال النافعة للبلاد .. فخرجوا من لدنه شاكرين ، ثم قصدوا الى ديوان الداخلية وكرروا الشكر

لرئيس مجلس الوزراء ، فقابلهم بالترحاب • وكان عنده أثناء المقابلة وزراء المالية والحقانية والخارجية والاشغال •• فقدم لهم النواب شكرهم وثناءهم ، وأنابوا عنهم سلطان باشا فى تقديم الشكر عنهم للوزراء ، ثم انصرفوا فرحين مسرورين

وأخذ مجلس النواب يضطلع بمهمته فى كفاية وجهد يستحقان التقدير والثناء•ومع أنه لم يجتمع الا زمنا وجيزا لم يتجاوز ثلاثة أشهر ، فقد قام بطائفة صالحة من الاعمال• فقد قرر الدستور •• وهذا من أهم أعماله • ووضع النظام الداخلى للمجلس ، وتباحث فى مسائل هامة تتصل بتقدم البلاد ورفاهيتها كعلاج غلاء الاسعار وتعميم التعليم الابتدائى، ومنع تضخم المعاشات • ونظر فى اقتراح قدمه نائب اسنا بانشاء خزان أسوان وأقره المجلس ، وهذا يدلك على أن نواب سنة ١٨٨٢ لم يفتهم التفكير فى أعظم مشروعات الرى التى تمت فى العهد الحديث

ظهور الفتن

كانت مدة انعقاد المجلس فترة تقدم ونشاط تمتعت مصر خلالها بالهدوء والسكينة فى ظل النظام الدستورى • ولم تكد تنتهى الدورة النيابية حتى اكفهر جو الصفاء الذى ساد مصر من قبل ، وأخذت الاحداث تتوالى على البلاد •• فكأن انفضاض المجلس كان نذيرا بالانتكاس والرجعة •• ولقد كان محتملا لو بقى المجلس منعقدا أن يعالج هذه الاحداث بالحكمة والروية،ولكن شاءت الاقدار والملابسات أن يضطرب الجو بعد انتهاء الدورة البرلمانية ،فاحتملت وزارة البارودى وحدها تبعة معالجة الموقف ، وواجهت مشكلات عدة داخلية وخارجية ، وتفاقم الخلاف بينها وبين الخديو حتى أدى الى استقالتها

وأول الاحداث الداخلية التى انتابت البلاد بعد انفضاض

مجلس النواب هو مؤامرة الضباط الشراكسة ٠٠ وهى حادثة خطيرة كان لها تأثير كبير فى تطور الثورة العرابية ، بل فى مصير البلاد قاطبة ٠٠ وخلاصتها أنه فى شهر أبريل سنة ١٨٨٢ علم عرابى من طلبة باشا عصمت قائد اللواء الاول أن بعض الضباط الشراكسة يأتمرون به ، ويدبرون الأمر لقتله وقتل رؤساء الضباط الوطنيين والوزراء ، وأن بعض من صدر اليهم الأمر منهم بالسفر الى السودان كانوا قوام هذه المؤامرة ، فعرض عرابى الأمر على الوزراء ، ثم على الخديو ، فتقرر تحقيق هذه المؤامرة فى مجلس حربى وتألف هذا المجلس برياسة الفريق راشد باشا حسنى

فأخذ المجلس فى التحقيق ، وسأل من عرفت أسماؤهم من المتآمرين ٠٠ فدلوا على ثمانية عشر ضابطا مشتركين معهم فى المؤامرة ٠ فأمر المجلس بالقبض عليهم وأخذ فى استجوابهم ، فدل هؤلاء أيضا على غيرهم ، فقبض عليهم ٠٠ حتى بلغ عدد المعتقلين نحو أربعين ضابطا ، وفى مقدمتهم عثمان باشا رفقى وزير الحربية السابق ، وخصم عرابى اللدود ٠ وقد سيق المقبوض عليهم الى ثكنة قصر النيل ، وعوملوا بالغلظة والشدة

واختلفت الآراء فى حقيقة هذه المؤامرة ، فقال بعض الرواة انها مؤامرة حقيقية ، كان القصد منها اغتيال رؤساء الحزب العسكرى وفى مقدمتهم عرابى ٠ وقال البعض الآخر انها مؤامرة خيالية ٠ قوامها فزع عرابى وخوفه على حياته ، فصدق الرواية التى خلقتها أوهام المفسدين ، وأراد الانتقام من خصومه ٠ وقد كان عرابى لا يفتأ تساوره الهواجس من ناحية خصومه

وفى ٣٠ أبريل سنة ١٨٨٢ أصدر المجلس حكمه فى القضية ، وهو يقضى على الاربعين ضابطا المتهمين بالنفى المؤبد الى أقاصى السودان ، مع تجريدهم من الرتب العسكرية

والامتيازات والنياشين ، وأن يكونوا متفرقين فى الجهات التى ينفون اليها ولا تكون هذه الجهات فى مركز الحكمدارية « الخرطوم » ولا المديريات ولا السواحل. وصدر هذا الحكم أيضا على اثنين من غير العسكريين مع تجريدهما من الحقوق المدنية ، وأحيلت محاكمة خمسة غيرهما الى المحاكم الاهلية. وحكم على راتب باشا الذى عد محركا للمؤامرة بالتجريد من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين ، وحرمانه العودة الى مصر ، واذا عاد يقضى عليه بالنفى على النحو السابق

رفع الحكم الى الخديو للتصديق عليه .. فرآه بالغا منتهى القسوة ، فامتنع عن اقراره ، ووقع من أجل ذلك خلاف كبير بينه وبين الوزارة ، اذ أصر على تعديل الحكم . وتمسكت الوزارة باقراره . وانتهى الأمر بأن أصدر الخديو ارادة سنية فى ٩ مايو سنة ١٨٨٢ بتعديل الحكم الى النفى من القطر المصرى، والترخيص للمحكوم عليهم بالتوجه أنى شاءوا خارج القطر مع عدم حرمانهم رتبهم ونياشينهم . وقد وقع الخديو هذه الارادة بحضور السير ادوار مالت والمسيو سنكفكس قنصلى بريطانيا وفرنسا

على أن هذا التعديل لم يحسم الخلاف بين الخديو والوزراء، فقد ذهب البارودى الى الخديو عقب توقيعه أمر التعديل ، ولامه فى لهجة شديدة لنزوله على ارادة قناصل الدول واهماله رأى الوزراء . وطلب اليه اضافة عقوبة التجريد من الرتب العسكرية الى أمر التعديل .. فاجتمع القناصل ثانية لدى الخديو عقب هذه المقابلة ، وانتهى الاجتماع باصرار الخديو على الارادة السنية التى أصدرها ..

فهاج ذلك سخط الوزراء ، واجتمعوا يوم ١٠ مايو اجتماعا طويلا دام ثمانى ساعات انتهوا فيه الى وجوب انعقاد مجلس النواب للنظر فى هذا الخلاف ــ وكانت قد فضت دورته ــ وبدا على اجتماعهم روح المعارضة الشديدة

للخديو . فأنكروا عليه حق العفو .. وصرح الخديو من ناحيته أنه لا يطيق استمرار هذه الحال لأنه يراد المساس بامتيازاته . ولما طال اجتماع الوزراء قلق قناصل الدول وأوجسوا خيفة من تفاقم الخلاف . وجاءوا أثناء الاجتماع وسألوا عما اذاكان ثمة خطر يتهدد حياة الرعايا الاوروبيين، فأجيبوا بألا شيء يتهددهم ألبتة ، وأبلغهم وزير الخارجية « مصطفى باشا فهمى » ، أنه بازاء استحالة الاتفاق مع الخديو .. ولان رئيس الوزارة لا يمكن أن يستقيل فى هذا الظرف ، فان المجلس قرر دعوة مجلس النواب الى الانعقاد لينظر فى الخلاف القائم بين الخديو والوزراء

وكان لهذا القرار خطورته..لان عرض الخلاف بين الخديو والوزارة على مجلس النواب مع اصرار الخديو على موقفه معناه التهديد بخلعه .. وهذا ما كان عرابى وصحبه يذكرونه فى أحاديثهم

ولما كانت الدعوة الى اجتماع مجلس النواب يجب أن تصدر عن الخديو .. فقد أوفد مجلس الوزراء حسين باشا الدرهمللى وكيل الداخلية الى الخديو لابلاغه القرار ، ولكن الخديو رفض عقد المجلس ، فدعت الوزارة النواب الى الاجتماع بواسطة المديرين . وهذا لا يعد اجتماعا قانونيا طبقا لأحكام الدستور « اللائحة الاساسية »

ولقد لبى أكثر النواب الدعوة ، فجاءوا القاهرة .. وتعددت اجتماعاتهم الخاصة ، وكان الوزراء لا يفتأون يعقدون مجلسهم لتقرير خطتهم تجاه الخلاف المتفاقم بينهم وبين الخديو

وفى ظهر يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ اجتمعوا فى دار البارودى ومعهم بعض رؤساء الجيش .. ثم جاءهم محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب يصحبه عبد السلام بك المويلحى ، أحد النواب البارزين . ثم جاءهم بعض النواب،

وتحدثوا فى أمر الخلاف وتعـددت الاجتماعات من النواب والوزراء ، وكان فريق من النواب يميل الى حسم الخـلاف بالحسنى ، اذ رأوا أن استمرار الشقاق يهدد البلاد بأعظم الاخطار ٠٠

ولم يَوافق النواب عامة على عقد المجلس بصفة رسمية لعدم مشروعية الاجتماع غير العادى الا بأمر من الخديو ، كما تقضى بذلك المادة ٩ من الدستور ٠٠ وتعددت مع ذلك اجتماعاتهم غير الرسمية،ووقف النواب من أمر هذا الخلاف موقف الاستقلال والاعتدال ، فلم يعتبروا أنفســـهم آلات صماء فى يد الحزب الغالب ٠ ولم يذعنوا لارادة المسيطرين على هـــذا الحزب ٠٠ بل تدبروا الأمر بوحى من ارادتهم فبرهنوا على استقلال يحمدون عليه ، وكانوا لخلفائهم مثلا صالحا فى الاضطلاع بأعباء النيابة وتقدير الأمانة التى فى عهدتهم

وقد سوى الخلاف مؤقتا بين الوزارة والخديو ببقاء الوزارة فى مركزها مع تعديل حكم المجلس العسكرى طبقا لما ارتآه الخديو

وكان يجمل بعرابي وصحبه أن يقبلوا هذا التعديل من بادىء الأمر بغير حاجة الى ايجاد هذه الأزمة ٠٠ وكان الأنفع للبلاد ما داموا قد قبلوا التعـديل فى النهاية أن لا يثيروا من أجله حربا بينهم وبين الخديو فى وقت كانت الأخطـار تكتنف مصرفيه وتتهدد استقلالها ٠ ولم يكن الخلاف الذى شجر بينهم وبين الخديو فى هذه الحادثة مما يستوجب عقد مجلس النواب ، لان عقد المجلس بصفة مستعجلة ، وبغير الاوضاع القانونية ، معناه اعلان الثـورة على الخديو ٠ ولم يكن بقى من أوجه الخلاف بعد أن اتفقت وجهة نظر الفريقين على تعديل الحكم ســـوى تجريد الضـــباط المحكوم عليهم من الرتب العسكرية أو عدم تجريدهم ٠٠ والمجالس النيابية لا تعقد

بصفة غير عادية من أجل خلاف صغير كهذا

ومما يؤخذ على الزعماء أنهم خلال تلك الأزمة قد جاهروا فى اجتماعاتهم برغبتهم فى خلع الخديو وتعيين الأمير حليم باشا مكانه ، ولم يستمعوا الى نصائح المعتدلين الذين حذروهم عواقب هذا الطيش ٠٠ ولو كان على رأس الوزارة رجل أكثر حكمة وأبعد نظرا فى الأمور من البارودى ، لما استفحل الخلاف بينها وبين الخديو الى هذا الحد ٠ وهذا ما دعانا الى الاعتقاد بأن سقوط وزارة شريف باشا لم يكن من مصلحة البلاد فى شىء، وانه بداية المرحلة الثانية للثورة العرابية ، مرحلة الخطل والشطط

حضور الاسطولين الانجليزى والفرنسى

استفاضت الانباء فى غضون الخلاف بين الوزارة والخديو عن اعتزام انجلترا وفرنسا ارسال أسطوليهما الى الاسكندرية ، وقد تحققت هذه الانباء ٠٠ فقررت الدولتان على أثر ما بلغهما من اشتداد الخلاف بين الخديو والوزارة ودعوة مجلس النواب الى الاجتماع بدون أمره ، ارسال أسطوليهما الى مصر ، اذ عدتا هذه الحالة حالة ثورة تستدعى التدخل ٠ وأفضى اللورد «جرانفيل» وزير خارجية انجلترا بهذه الفكرة يوم ١٢ مايو سنة ١٨٨٢ الى المسيو «تيسو» سفير فرنسا فى لندن ، قائلا ان الحاجة ماسة الى القيام بمظاهرة بحرية فى مياه الاسكندرية ٠ وقد صادفت هذه الفكرة قبولا من الحكومة الفرنسية ، وسوغت الدولتان هذا العمل بأن الغرض منه حماية رعاياهما من الاخطار التى يستهدفون لها ٠ ولم يكن ثمة خطر ولا خوف من هذه الناحية ، وانما هى حجة مصطنعة ووسيلة باطلة تستر الغرض الحقيقى ، وهو خلق الذرائع للتدخل المسلح فى شؤون مصر

وتلك كانت المظاهرة البحرية الثانية التى قامت بها

الدولتان خلال الحوادث العرابية ، والأولى كانت فى شهر أكتوبر سنة ١٨٨١ لمناسبة حضور الوفد العثمانى الأول كما تقدم بيانه ، والثانية كانت أشـــد خطرا من الاولى ، اذ أنها لم تكن مظـــاهرة فحسب ، بل كانت مقـدمة لضرب الاسكندرية وللاحتلال البريطانى

اتفقت الدولتان على أن ترسل كل منهما ست بوارج الى المياه المصرية ٠٠ وجاءت الانباء بأن الاســـطولين على أهبة الحضور ، فقوبل الخبر فى مصر بالقلق والانزعاج

كانت هذه الانباء جديرة بتحذير العرابيين والخديو عواقب الخلاف بينهما ، لان مجيء الاسطولين الانجليزى والفرنسى كان نذيرا بالتدخل المســلح فى شؤون مصر ٠٠ ولكن لم يعتبر الفريقان بهـــذا النذير ، واستمر كل منهما يكيـد للآخـر ، وهكذا تغلبت الشـــهوات الشخصية ونزوات الرؤوس على مصالح الوطن العليا فى أشد الساعات خطرا

أعلن زوال الخلاف ظاهرا يوم الاثنين ١٥ مايو سنة ١٨٨٢ ، فى الوقت الذى كانت البوارج الانجليزية والفرنسية تتأهب لتمخر العباب قاصدة الاسكندرية

بدأت البوارج تصل الى مياه الاسكندرية يوم الجمعة ١٩ مايو سنة ١٨٨٢ ٠٠ ففى أصـيل ذلك اليوم جاءت مدرعة انجليزية ، وفى صباح السبت ٢٠ منه دخلتها ســـفينتان أخريان ، وثلاث سفن فرنسية ٠ وكانت السفن الانجليزية بقيادة الاميرال السير بوشان سيمور ، والفرنسية بقيـادة الاميرال كونراد ٠ ولما كان مجيئهما « بصفة ودية » فقـد أطلقت المدافع تحية لقدومهما !

وبعد ظهر يوم السبت نزل الاميرالان الى البر مرتدين ملابسهما الرسمية ٠٠ وزارا محافظ الاسكندرية ، فرد لهما الزيارة تبعا للتقاليد المعتادة ٠٠

وفى ٢١ مايو جاءت الاسكندرية أيضا سفينتان حربيتان

يونانيتـــان « تأمل ! » وبارجة آنجليزية أخرى قادمة من مالطة ، وفى يوم الاثنين جاءت بارجة انجليزية وتوجهت الى بور سعيد ، وفى أوائل يونيه وصلت ثلاث بوارج انجليزية أخرى الى الاســـكندرية كما جاءت بارجة فرنسية وجاءت أيضا بارجة أمريكية

مطالب انجلترا وفرنسا

لم يكد يحضر الاسطولان الانجليزى والفرنسى الى ميــاه الاسكندرية حتى أخذت الدولتان تخاطبان مصر بلغة التهديد والبلاغات الرسمية ٠٠ فبدأتا بطلب استقالة وزارة البارودى وخروج عرابى من القطر المصرى ٠ وأخذ المسيو سنكفكس قنصل فرنسا العام على عاتقه أن يسعى أول الأمر الى هذا الغرض «بطريقة ودية» ، فاتصل بزعماء العرابيين بواسطة سلطان باشا ليحملهم على قبول هذه المطالب ، من غير حاجة الى بلاغ نهائى ٠ فعرض عليهم سلطان باشا هــذه المطالب كأنها مقترحات من عنده ، فرفضوا قبولها ٠ ومن ذلك الحين فقد سلطان باشا ثقة العرابيين ، وبدأ انحيــازه الى صف الخديو

ولو أن عرابى قبل هذه المقترحات وغادر البلاد لكان ذلك تضحية منه فى سبيل مفاداتها من التدخل الاجنبى المسلح، ولتركها على الأقل فى ظروف أسعد حالا وأهون من رحيله عنها بعد هزيمة التل الكبير

وفى يوم الخميس ٢٥ مايو سنة ١٨٨٢ جاءت تعليمات الحكومتين الى قنصليهما ٠٠ ومضمونها تقديم البلاغ النهائى الذى أعدتاه الى الوزارة المصرية ، وانتظار الجواب منها ٠ وبعد ظهر ذلك اليــوم قدم القنصلان الى البارودى بلاغ الدولتين فى شـــكل مذكرة « نوتة » طلبا فيها اســتقالة الوزارة ، وابعاد عرابى باشــا عن القطر المصرى مؤقتا مع حفظ رتبه ومرتباته ونياشينه ، واقامة عبــد العال حلمى

باشا وعلى فهمى باشا الديب فى الارياف بجهات لا يخرجان منها مع حفظ رتبهما ومرتباتهما ونياشينهما

رد الوزارة

اجتمع الوزراء يوم ورود المذكرة ، وقرروا رفض مطالب الدولتين . ويقول البارودى انه نصح عرابى بقبولها فلم يقبل هو واخوانه ، وأيد هذه الرواية أحمد بك رفعت سكرتير مجلس الوزراء .. اذ قال ان البارودى أفضى اليه بأنه مقتنع بقبول هذه المطالب « ولكن الجهادية لم تقتنع » فقال له أحمد بك رفعت : « اقنعهم » فأجابه البارودى : «لا يمكننى ، فاننا متحالفون مع بعض» ، وهذايعطيك فكرة عن الحالة السياسية فى ذلك الوقت العصيب ، ويدلك على أن البارودى كان يأتمر بأوامر عرابى فى السياسة العامة، ولو خالفت رأيه .. وليس هذا ما يجب على رئيس الوزارة أن يعمله فى أزمة خطيرة يرتبط بها كيان البلاد

أما الخديو فقد أعلن قبول مطالب الدولتين . فاستقالت وزارة البارودى فى ٢٦ مايو سنة١٨٨٢احتجاجا علىمطالب الدولتين وعلى قبول الخديو اياها ، فقبل الخديو استقالتها. وهاجت الخواطر وخاصة بين الضباط لان قبول استقالة الوزارة معناه اقصاء عرابى باشا عن وزارة الحربية

وبالرغم من استقالة الوزارة ، فان عرابى بقى علىاتصال دائم بضباط الجيش لكى يضمن أن لا يقبل الجيش وزيرا للحربية سواه .. وهذا ظاهر من الخطاب الذى أرسله بتاريخ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ الى أنصاره من الضباط ، فقد أخبرهم فيه أنه مع استقالته من وزارة الحربية فانه لم يستقل من رياسة الحزب الوطنى ، ويطلب اليهم أن يأتمروا بأوامره وأن يحافظوا على الأمن

ويقول عرابى فى مذكراته انه أرسل هذه الرسالة تلغرافيا الى جميع مراكز العسكرية بعد أن قابله قناصل

الدول وطلبوا اليه تأمين رعاياهم

لم يكن من الميسور فى هذه الظروف تأليف وزارة جديدة تخالف الوزارة المستقيلة فى خطتها وتنال ثقة النواب والضباط

ففى صباح يوم السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ أى غداة استقالة الوزارة عقد الخديو فى سراى الاسماعيلية اجتماعا كبيرا برياسته ، حضره النواب والعلماء وآلاعيان وأصحاب المناصب والرتب ٠٠ وكان من الحاضرين شريف باشا ، فكلفه الخديو تأليف وزارة جديدة ، فأبى وأصر على الاباء

اجتماع خطير

وفى غروب ذلك اليوم – ٢٧ مايو – اجتمع النواب فى دار محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب ، ووفد عليهم كبار العلماء ٠٠ فعقدوا اجتماعا حافلا ، ثم جاءهم عرابى وهو فى شدة الغضب ، فأخذ يخطب فيهم متهددا متوعدا كل من يناصر الخديو

وجاء جمع من كبار الضباط ، منهم عبد العال حلمى باشا وعلى فهمى باشا الديب ، ومحمد عبيد بك ، وبصحبتهم نفر غير قليل من صغار الضباط والجند ، فدخلوا مكان الاجتماع بشكل مظاهرة عسكرية يطلبون خلع الخديو علنا ، ويتهددون من يظهر له الولاء ٠ وقد بلغ تهور العرابيين أشد ما يكون ٠٠ اذ ألقى عرابى خطبة ملأها طعنا فى الخديو وفى العائلة الخديوية ، ونادى بخلعه ، وختم خطبته بقوله : « من كان معنا فليقم ! » فحدثت ضجة كبيرة فى المكان ووقف الضباط ٠٠ ولكن معظم النواب والملكيين لم يقوموا ، فتهددهم الاميرالاى محمد بك عبيد بالسيف ، فظلوا جالسين ٠ وتبين من ذلك الموقف أن النواب لا يوافقون عرابى على خلع الخديو

ولم يكتف عـرابى بذلك ، بل هدد بمحـــاصرة سراى الاسماعيلية التى كان الخديو مقيما بها ، وأمر باحضار ألاى خليل بك كامل لهذا الغرض • وانتهى الاجتماع فى هرج ومرج دون أن يظفر بضم النـــواب الى صفه ، ولما رأى هو وطلبة ويعقوب سامى أن النواب لا يوافقونهم على إعلان خلع الخديو ، اكتفوا بالالحاح فى بقاء عـــرابى وزيرا للحربية ، فقبل سلطان باشا أن يقوم بهذه الوساطة لدى الخديو فى ذلك •• وقابل سلطان باشا الخديو فى ذلك اليوم بسراى الاسماعيلية، وتحدث معه مليا فى شأن الخلاف وايجاد طريقة لتسويته ، ثم اجتمع بدار سلطان باشـــا جمع من النواب والعلماء وضباط الجيش ، وانتهوا الى الاتفـــاق على مقابلة الخـــديو ورجائه ابقاء عرابى باشـــا وزيرا للحربية ، لكى لا يضطرب حبل النظام • فذهب وفد من النواب مؤلف من سلطان باشا ، وحسن باشا الشريعى ، وسـليمان باشا أباظة ، الى سراى الاسماعيلية وقابلوا الخديو وعرضوا عليه رغبتهم فى بقاء عرابى « ناظراً للجهادية » ، وبعد اصراره على رفض طلبهم عاد فقبل رجاءهم وأصـــدر أمرا الى عرابى باعادته الى وزارة الحربية ، هذا نصه :

« ولو أنكم اسـتعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت مرآعاة لحفظ الراحة والأمنية ، استصوبنا بقاءكم على نظارة الجهادية والبحرية• وأصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام أحوال العســكرية بالطريقة الكافلة لحفظ الأمنية العمومية على الوجه المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا »

عاد اذن عرابى الى تقلد وزارة الحربية ورياســة الجيش والســيطرة على الحكومة • وظلت النفـوس قلقة تترقب ما تتمخض عنه الحوادث ، وبقى عرابى وصحبه نافذى الكلمة فى شؤون الحكومة كافة

مذبحة الاسكندرية

موقف الدول

ظلت انجلترا مشتركة مع فرنسا فى موقفهما حيال مصر حتى حضور الأسطولين . وقد ظهر اشتراكهما فى العمل فيما وقع من الأحداث السابقة ، كوضع الرقابة الثنائية ، ثم المظاهرة البحرية الأولى التى وقعت فى اكتوبر سنة ١٨٨١ ، ثم تقديم مذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ التى أدت الى سقوط وزارة شريف باشا ، وتقديم المذكرة الأخيرة التى أدت الى استقالة وزارة البارودى .. على أن انجلترا قد اعتزمت بعد أن قطعت هذه المرحلة التمهيدية أن تنفرد بالعمل تحقيقا لأغراضها الاستعمارية .. ولم يخف اللورد جرانفيل هذه النية عن الحكومة الفرنسية فقد أبلغ المسيو دى فريسينيه رئيس وزراء فرنسا بما يأتى : « اننا كنا سعداء بالأمس اذ شاطرنا حكومتكم رأيها حين كنا نأمل الوصول الى نتيجة مرضية ، ولكن مع الأسف ليست هذه هى الحالة الآن »

وصرح السير ادوار مالت قنصل انجلترا العام فى مصر يوم ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ « أنه لايعتبر نفسه مقيدا بالوسائل المنطوية على التساهل الواردة فى مذكرة ٢٥ مايو »

وبدت نية الانفراد بالعمل من الجانب الانجليزى بمظهر فعلى فيما بعث به أميرال الاسطول البريطانى الى حكومته يوم ٢٩ مايو سنة ١٨٨٢ ينبئها بأن المصريين ينشئون بطارية تجاه احدى بوارج الاسطول ويطلب ارسال بوارج أخرى ، فلبت الحكومة طلبه . ودل هذا العمل على نية انجلترا فى احتلال مصر

ورأى مسيو دى فريسينيه أنه يستطيع انقاذ الموقف بدعوة الدول الى عقد مؤتمر للنظر فى المسألة المصرية ، فعرض فى ٣٠ مايو سنة ١٨٨٢ على الدول الأوربية الكبرى عقد هذا المؤتمر .. فلم تتردد انجلترا فى قبول هذه الفكرة ، وبادر اللورد جرانفيل وزير خارجيتها باعلان قبولها اذ كان يعتقد أن السياسة الانجليزية لا يصعب عليها أن تبتدع الحوادث التى تسوغ تدخلها المنفرد فى مصر

الوفد العثمانى الثانى

فى أثناء أزمة استقالة وزارة البارودى أرسل الخديو توفيق برقية الى السلطان ينبئه فيها عن هياج الضباط ، فجاءه الرد من الباب العالى بأن السلطان باعث اليه بلجنة للنظر فى المشكلة .. ففى اليوم الثانى من شهر يونيه سنة ١٨٨٢ عين مصطفى درويش باشا معتمدا عثمانيا ساميا للحضور الى مصر ، وعهد اليه برآسة وفد أرسله السلطان الى مصر لمعالجة الحالة فيها . وكان هذا جوابها على رسالة الخديو وعلى فكرة عقد مؤتمر دولى للنظر فى المسألة المصرية ، فقد كان ظنها أن حضور « مندوب شاهانى » يغنى عن عقد مثل هذا المؤتمر ، ويكفى لاعادة السلام والوئام فى مصر . وكذلك كانت سياستها قائمة على الجهل وقصر النظر ، فبينما كانت انجلترا تعمل على التدخل الحربى وترسل أسطولها تمهيدا وتأييدا لهذا التدخل ، فان الحكومة التركية توهمت أن مجرد ايفادها مندوبا ساميا كدرويش باشا يعيد الأمور الى نصابها فى مصر ، ويحول دون تدخل انجلترا . وتوهمت أن عدم اشتراكها فى المؤتمر يمنع الدول من أن تتدخل أو تبرم أمرا فى المسألة المصرية

كان هذا هو الوفد العثمانى الذى جاء مصر فى أثناء الحوادث العرابية ، والوفد الاول هو الذى حضر فى شهر اكتوبر سنة ١٨٨١ برياسة على نظامى باشا كما تقدم بيانه

ويهمنا أن نقرر أن كلا الوفدين لم يحضر بنية خالصة نحو مصر ، بل حضر للمظاهرة وللاعلان عن سلطة تركيا فى القطر المصرى ، دون أن يعمل كلاهما أى عمل نافع فى فض الخلاف بين الخديو والجيش أو فى انقاذ مصر من مطامع انجلترا

جاء الوفد العثمانى الثانى برآسة درويش باشا فى الوقت الذى اكتمل فيه عدد البوارج الانجليزية والفرنسية فى مياه الاسكندرية .. وقد كانت رؤية هذه البوارج كافية لافهامه أن الموقف جد عصيب ، وأن حضوره بصفته مندوبا عن السلطان لا يمكن أن يؤثر فى الموقف شيئا بازاء تلك المدافع الضخمة الفاغرة أفواهها ، وتلك المعدات الحربية التى تنذر بالشر والدمار ، وأن هذا الموقف لا يحله حضور مندوب عثمانى عدته المظاهر الفارغة التى يحاط بها ، ولا يهمه قبل كل شىء الا الرشا والأموال التى يتطلع اليها

□

كل ما فعلته تركيا اذن تجاه حضور الأسطولين الانجليزى والفرنسى أن أوفدت درويش باشا المذكور ، ثم أرسلت قبل وصوله الى مصر تلغرافا فى ٥ يونيه بأن وزارة الخارجية البريطانية أبلغت السفارة التركية فى لندن بأن الجنود المصرية تجرى التجهيزات والترميمات فى حصون الاسكندرية على نية تهديد الأسطولين الانجليزى والفرنسى ، وأن الباب العالى يطلب منعها اذا كانت جارية . ثم أردف ذلك بتلغراف آخر فى اليوم التالى يستعجل الرد

وكان هذا البلاغ من وزارة الخارجية البريطانية بداية التحرش بالسلطات المصرية ، اذ بنى على ما زعمه الأميرال سيمور من أن السلطات المصرية تحصن القلاع المواجهة

للأسطول . فكان ذلك السبب المتحل باعثا لتركيا على طلب الكف عن هذه التجهيزات . ورأى عرابى ازاء هذا الالحاح أن يأمر بالكف عنها ، وأرسل الى الخديو كتابا بذلك فى ٥ يونيه سنة ١٨٨٢ خلاصته أن هذه التجهيزات انما هى ترميمات اعتيادية لا يمكن الاستغناء عنها فى أى وقت وأنها لم تكن لقصد سيىء ، بل هى ضرورية لبقاء الاستحكامات الواجب حفظها وتعهدها بدوام الترميم والاصلاح

ونوه فى النهاية الى أن استمرار وجود تلك الترميمات هو السبب الوحيد لتسكين روع الأمة المصرية وازالة القلق والاضطراب المستولى على القلوب من وجود الأسطول الانجليزى فى المياه المصرية واجرائه حركات ومناورات حربية داخل الميناء وخارجه وأخذه مقاسات أعماق المياه واقتراب السفن الانجليزية من الشواطىء أمام الاستحكامات ، وأن هذه الاجراءات هى التى تعتبر تهديدات حقيقية ، وهى التى هيجت أفكار الأمة المصرية وأحدثت الاضطراب ، ومع ذلك فانه حرر بوقف الترميمات المذكورة « رجاء عودة الدونانمة الانكليزية » ، وقد وقفت فعلا أعمال الترميم من ذلك الحين

وانك لترى فى موقف تركيا حيال مصر احراجا ظاهرا لها ، فان كل الدلائل تدل على نية التحرش من جانب الانجليز ، ومع ذلك فان الحكومة التركية لم تتحرك الا لتطلب من السلطات المصرية الكف عن اجراء الترميمات بالحصون . وكان هذا الطلب تأييدا ظاهرا للسياسة الانجليزية ، ولم يكن ايفاد درويش باشا فى هذا الموقف العصيب الا عملا عقيما لم تفد مصر منه شيئا

وصل درويش باشا الى الاسكندرية يوم ٧ يونيه سنة ١٨٨٢ على ظهر اليخت السلطانى « عز الدين » ، يصحبه ابنه ومعه الشيخ احمد أسعد أحد المقربين الى السلطان عبد الحميد ووكيل الفراشة بالمدينة المنورة ، وبعض الضباط

والمأمورين .. وبلغ عدد الوفد وحاشيته ٥٨ شخصا . وقد كان كلا الفريقين يعمل على اجتذابه الى ناحيته ، وبدا هذا التزاحم منذ وصل الوفد الى الاسكندرية ، فقد أوفد الخديو على ذو الفقار باشا السر تشريفاتى يصحبه حسن حلمى باشا من أعضاء مجلس الأحكام وطه لطفى باشا من الياوران لاستقباله على ظهر اليخت ..

وأرسل عرابى من ناحيته يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية ، ووقع الخلاف بين الرسولين فى أثناء المقابلة . ولكن درويش باشا استقبل كليهما بالبشاشة ، ونزل وصحبه بسراى رأس التين . وفى اليوم التالى ركبوا قطارا خاصا أقلهم الى العاصمة ، وقد عرجوا فى الطريق على مدينة طنطا حيث زاروا مقام السيد احمد البدوى ، يتبركون بزيارته .. ثم استأنفوا السفر الى أن بلغوا العاصمة ، ونزلوا بسراى الجزيرة التى أعدت لاقامتهم حتى تنتهى مهمتهم ، وبعد أن أخذوا راحتهم ذهبوا الى سراى الاسماعيلية فقابلهم الخديو بالترحاب ورد الزيارة للمندوب العثمانى بسراى الجزيرة ، على أن الخديو لم يكتم عن درويش باشا استياءه من حسن مقابلته لمندوب عرابى ومن لهجة الخطاب حين قابله بسراى الاسماعيلية .. فتظاهر درويش باشا بأنه جاء لتثبيت سلطة الخديو

وكانت خطة الوفد أن يتظاهر لكلا الفريقين المتخاصمين (الخديو والعرابيين) أنه معه .. فمن مظاهر تأييده للعرابيين أنه طلب نحو مائتى نيشان لضباط الجيش مكافأة لهم على ولائهم واخلاصهم للذات الشاهانية ، وطلب لعرابى باشا النيشان المجيدى من الطبقة الاولى . فكان هذا علامة على رضاء الاستانة عنه وعن مسلكه ، على أن درويش باشا قد انتهى الى الانضمام علانية للخديو ...!

وظهر تحول درويش باشا الى جانب الخديو من نصحه

لعرابى بالذهاب الى الاستانة ليقابل السلطان ، وأكد له أنه سيلقى منه كل رعاية واكرام . وقد فطن عرابى الى عواقب هذه النصيحة ، وأنه قد لا يعود من الاستانة اذا هو ذهب اليها ، فاعتذر للمشير العثمانى بأن الأمة لا تسمح له بمغادرة البلاد . والنصيحة وان كانت فى ذاتها ليست صادرة عن نية حسنة ، ولكنا نعتقد أن رحيل عرابى فى تلك الآونة كان خيرا من بقائه فى مصر . ومهما تكن عواقب رحيله عنها فانها تهون الى جانب ما حل بمصر وبعرابى ذاته من الكوارث بعد ذلك ..

ولكى نقدر مبلغ ما كان لحضور درويش باشا من الأثر ومبلغ عجزه عن معالجة الموقف ، يكفى أن نذكر أنه لم يكد يمضى على حضوره بضعة أيام حتى وقعت مذبحة الاسكندرية المشئومة وذلك فى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، فكانت اعلانا رهيبا باخفاق مهمة المندوب العثمانى ، وقد حضر ضرب الاسكندرية يوم ١١ يوليه ثم انقلب الى الاستانة فى ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ دون أن يعمل أى عمل لمنع وقوع هذه الكوارث

بعد استقالة البارودى

كانت الحالة فى أشد الاضطراب بعد استقالة وزارة البارودى ، فالوطنيون من جهة توقعوا شرا مستطيرا من مجىء الأسطولين الانجليزى والفرنسى ، وأخذوا يترقبون الحرب والقتال من ساعة الى أخرى ، والأجانب من جهة أخرى علموا أن البلاد قادمة على حرب .. فكانوا يخشون على حياتهم أن تستهدف للخطر اذا قامت الحرب المنتظرة ، فمصدر الاضطراب هو فى مجىء الأسطولين ، لا فى استقالة وزارة البارودى ذاتها ، لأن هذه الاستقالة ما كانت لتحدث فى البلاد حدثا لو وقعت فى ظروف عادية ..

فلو أنها استقالت دون أن يكون الأسطولان مرابطين فى

الاسكندرية لأمكن حل الأزمة الوزارية بغير عناء كبير ، اما باعادة وزارة البارودى ذاتها ، أو بتأليف وزارة أخرى تضطلع بأعباء الحكم وتعمل على تهدئة الخواطر . ولكن وجود الأسطولين قد أوجد حالة غير طبيعية ، اذ كان مجيئهما مظهرا للتهديد والوعيد .. فبقيت مناصب الوزارة شاغرة منذ ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، وتولى الخديو سلطة الحكم مؤقتا ، ثم اضطر أن يعيد عرابى باشا الى وزارة الحربية خوفا من انتقاض الجيش على الحكومة ، وبقيت الوزارات الاخرى شاغرة

وأخذ الأجانب يهاجرون من القاهرة والأقاليم الى الاسكندرية ، ليكونوا تحت رعاية الأسطولين وعلى مقربة منهما ، فغصت مدينة الاسكندرية بالأجانب من سكانها ومن القادمين اليها من الأقاليم . وكان احتشادهم فيها من الاسباب الباعثة على تفاقم الهياج ، لأن أحاديثهم كانت تدور حول اقتراب وقوع القتال وما يستهدفون له من غضب الأهلين اذا نشبت الحرب بل قبل نشوبها ، لأن مجرد وجود الأسطولين فى مياه الاسكندرية وتقديم بلاغ الدولتين الى الحكومة المصرية واصرارهما على اجابة مطالبهما .. كل ذلك كان رمزا لاعتداء الدولتين الأوربيتين على البلاد واهاجة الخواطر

مذبحة الاسكندرية

فى هذا الجو من اضطراب الخواطر وقعت الحادثة المعروفة بمذبحة الاسكندرية .. ففى يوم الأحد ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، وقع شجار بين أحد المالطيين من رعايا الانجليز وأحد الأهلين يدعى « السيد العجان » .. كان المالطى هو البادىء فيه بالعدوان ، فقد كان الوطنى صاحب حمار ركبه المالطى وأخذ يطوف به من

صبيحة النهار متنقلا من قهوة الى أخرى ، وانتهى طوافه الى حانة « خمارة » قريبة من قهوة القزاز بالقرب من مخفر اللبان بآخر شارع « السبع بنات » .. فطالبه الوطنى بأجرة ركوبه فلم يدفع له سوى قرش صاغ واحد ، فجادله فى قلة الأجر . فما كان من المالطى الا أن شهر سكينا طعنه بها عدة طعنات دامية مات على أثرها

وقع هذا الحادث فى الزقاق الكائن خلف « قهوة القزاز » ، فهرع رفاق القتيل الى ذلك المكان ، يريدون أن يمسكوا بالقاتل ، ولكنه فر الى أحد المنازل المجاورة . وأخذ المالطيون واليونانيون الساكنون بالقرب من مكان الحادث يطلقون النار على الأهلين من الأبواب والنوافذ ، فسقط كثير منهم بين قتيل وجريح .. فثارت نفوس الجماهير تطلب الانتقام لمواطنيهم ، وتحركت طبقة الدهماء للاعتداء على الأوربيين عامة ، فأخذوا يهجمون على كل من يلقونه منهم فى الطرقات أو فى الدكاكين ويوسعونهم ضربا .. وكان سلاحهم فى هذه المعركة العصى والهراوات ليس غير

وانبث الدهماء فى المدينة يستنفرون الناس للقتال ، ويقتلون من يلقونه من الافرنج ضربا بالعصى والهراوات ، ونهبوا دكاكين شارع السبع بنات . وامتد الهياج من هذا الشارع الى الشارع الابراهيمى والى شارع الهماميل وشارع المحمودية وجهة الجمرك والمنشية وشارع الضبطية « رأس التين » وغيرها من الشوارع التى يقطنها الأوربيون أو يمرون منها ، وقد قتل كثير منهم أمام الضبطية اذ كانوا قادمين من الترسانة عائدين من زيارتهم للبوارج الانجليزية والفرنسية ، وكان الأوربيون من ناحيتهم يطلقون الرصاص من النوافذ على الأهلين ، فقتل من الجانبين خلق كثير

واذ كان البادىء بالعدوان أحد الرعايا « المالطيين » وقد شاهده بعض الحاضرين يلوذ بالفرار الى منزل يسكنه

مواطنوه ، فقد أرسل قسم اللبان الى المستر كوكسن قنصل انجلترا فى الثغر لايفاد أحد موظفى القنصلية لكى يخرج المعتدى من ذلك المنزل . فحضر المستر كوكسن بنفسه أثناء اشتداد الهياج ، فأصيب بضربة حجر وعصا جرح بسببها جرحا بليغا . وجرح أيضا فى ذلك اليوم قنصل اليونان وقنصل ايطاليا ، فكانت اصابة القناصل من مظاهر خطورة الحالة

وكان عمر باشا لطفى محافظ المدينة حين بدأت الحادثة يتولى رياسة قومسيون تحقيق الجمرك بدار المحافظة ، فأبلغه أحد موظفى الضبطية نبأ الشجار الذى وقع بين الوطنى والمالطى . وكان ذلك فى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر ، فأوفد حسين بك فهمى وكيل المحافظة الى مكان الواقعة لفض الخلاف ، ثم جاء بعد ربع ساعة نبأ باستفحال الفتنة وتجسمها ، وأن السيد بك قنديل مأمور الضبطية مريض فى منزله . فذهب بنفسه الى جهة الواقعة بشارع السبع بنات

وهنالك أدرك خطورة الفتنة ورأى ازدحام الشارع بالمتجمهرين ، فطلب من اسماعيل باشا كامل قومندان الجنود بالاسكندرية ارسال المدد من الجند لوقف الهياج .. فتباطأ الأميرالاى مصطفى بك عبد الرحيم قائد الألاى الخامس الذى كان مرابطا برأس التين والقائمقام سليمان سامى داود قائد الألاى السادس الذى كان بباب شرقى فى ارساله الجند ، ولم يحضروا الا فى الساعة الخامسة مساء قبل المغرب بساعة ، وحين جاء الجند فرقوا المتجمهرين بغير صعوبة ، وانتهت الفتنة فى مغرب الشمس ، فساد المدينة سكون رهيب ، اذ لزم الناس بيوتهم ، وخلت الطرقات من المارة ، وانقضى الليل والناس فى وجل وفزع

وبلغ عدد القتلى فى هذه الحادثة ٤٩ منهم ٣٨ من الأجانب والباقون من الأهلين

اجتماع القناصل بالاسكندرية

اجتمع القناصل مساء يوم الحادثة ، وكان من بينهم الكابتن مولينو من ضباط الدارعة الانجليزية « انفنسبل » ، وقد عهد اليه الأميرال سيمور أن ينوب عن المستر كوكسن فى ادارة القنصلية عقب اصابته فى الحادثة . وحضر الاجتماع محافظ المدينة ، وتداولوا فيما يجب اتخاذه لاعادة النظام وتهدئة الخواطر ، فصرح كبار ضباط الجيش بالاسكندرية انهم متكفلون بحفظ الأمن .. على أن لا يتدخل الأسطولان فى الأمر ، فطلب القناصل من قائدى الأسطولين أن لا يتخذا تدابير ظاهرة ، ولكن بعض الزوارق الانجليزية شوهدت فى منتصف الليل قادمة من احدى بوارج الاسطول ترسو على شاطىء الميناء الشرقى

وكان مجيئها تنفيذا لتعليمات الأميرال سيمور الذى أصدر أمره بأن تخرج البارجة «سوبرب» من الميناء الغربى وترسو خارج الميناء الشرقى ، وأن ترسل بعض الزوارق الى البر لنقل النساء والاطفال الى البارجة ، فاعترض الضباط على هذه الوسيلة ، اذ رأوا فى حضور الزوارق الانجليزية الى البر ما يدعو الى هياج الجمهور والجند ، فوعد نائب القنصل البريطانى بابعاد الزوارق عن البر ، وانفض الاجتماع الاول على ذلك

وقع النبأ فى العاصمة

كان عرابى بالقاهرة حين وقعت الحادثة ، وقد علم بها تلغرافيا قبل الساعة الخامسة مساء ، فأسف لها أسفا عظيما .. ولما ذاعت أخبارها فى العاصمة مساء ١١ يونيه قوبلت بالاستياء والاستنكار فى الدوائر الوطنية ، لما توقعه

العارفون من عواقبها الوخيمة . وكانت ضربة موجهة الى العرابيين ، لأن أقل ما تدل عليه أن زمام الأمن قد أفلت من أيديهم ، وأنها تتخذ حجة ضدهم على أنهم غير قادرين على ضبط الأمن وصيانة الأرواح ، وبخاصة بعد أن أعيد عرابى الى وزارة الحربية وتعهد بكفالة الأمن والنظام

وكانت هذه المذبحة نذيرا للعرابيين بأن البلاد قادمة على خطر كبير ، اذ لم يكن خافيا أن السياسة الانجليزية قد دبرت الوسائل لوقوعها تحقيقا لأغراضها فى مصر . ولكن العرابيين لم يقدروا العواقب حق قدرها . وقد اتخذ القناصل هذه الحادثة ذريعة لمخاطبة ولاة الامور فى العاصمة بلهجة شديدة طالبين حماية الاجانب وأموالهم فى البلاد . وقررت الحكومة مساء ١١ يونيه ايفاد لجنة الى الاسكندرية للنظر فى أمر تلك الحادثة والكشف عن أسبابها والتحقيق مع المتهمين فيها

وعقد الخديو اجتماعا فى سراى عابدين صبيحة يوم الاثنين ١٢ يونيه ، حضره محمد شريف باشا ودرويش باشا المندوب العثمانى وقناصل فرنسا وانجلترا والنمسا وألمانيا وايطاليا والروسيا الذين جاءوا يطلبون تأمين رعاياهم على أرواحهم وأموالهم .. فجرت المباحثة فى هذا الاجتماع فيما يجب اتخاذه حيال حوادث الاسكندرية ، فاستقر الرأى على اعطاء وكلاء الدول السياسيين الضمانات الوثيقة التى تكفل اعادة الأمن الى نصابه ، وصيانة أرواح الاجانب وأموالهم

ومن أهم هذه الضمانات امتثال عرابى باشا لأوامر الخديو ، فدعى عرابى الى حضور الاجتماع ، وخوطب فى الامر فأجاب بالقبول ، وزاد أن تعهد للمجتمعين بمنع ما من شأنه اثارة الخواطر ، كالاجتماعات العامة وانعقاد الجمعيات والقاء الخطب ونشر المقالات المهيجة ، وأبان أن فى مقدوره بمساعدة جنوده تأييد الأمن واقرار الراحة والطمأنينة ، وتعهد الخديو

باصدار الأوامر الكفيلة بتهدئة الخواطر . وقال درويش باشا انه يأخذ على عاتقه تنفيذ الأوامر الخديوية بأن يشترك مع عرابى فى انفاذها ويشاركه المسئولية فى هذا الصدد ، فاكتفى وكلاء الدول ظاهرا بهذه العهود ، وانفض الاجتماع

وانفاذا لهذه العهود أصدر الخديو أمرا الى عرابى باشا بالتنبيه على قواد الجيش وضباطه وجنوده بالقاهرة والاسكندرية والاقاليم بزيادة الدقة والسهر على الأمن العام

وأصدر الخديو أمرا بهذا المعنى الى المحافظين والمديرين ، ونشر عرابى فى ذلك اليوم اعلانا بدعوة الجمهور الى الاخلاد الى السكينة والطمأنينة . وأذاع أمرا آخر وجهه الى قواد الجيش وضباطه وغيرهم يدعوهم الى بذل أقصى جهودهم لاقرار الأمن والراحة والنظام . وزادت الحكومة قوات الجيش فى الاسكندرية لتكون كافية لقمع كل فتنة تحصل بين الأجانب والأهلين ، فأنفذت اليها الألاى الثانى والألاى الرابع وعهدت بقيادتهما الى طلبة باشا عصمت الذى صار منذ ذلك الحين قومندانا عاما لقوات الجيش فى الثغر

نزوح الأجانب عن البلاد

وكانت الأنباء التى يتناقلها الاجانب مجمعة على أن الحرب لا محالة ناشبة فى مصر .. وكانوا يتوقعون من آن لآخر أن تطلق البوارج الانجليزية والفرنسية قنابلها على المدينة ، وأن قوات الدولتين لا تلبث أن تهاجم البلاد . وفى هذه الحالة لا يأمنون على أنفسهم اذا نشبت الحرب أن يستهدفوا لانتقام الأهلين .. ومن هنا جاءت فكرة نزوح الأجانب عن البلاد ، فأخذ القاطنون منهم بالاسكندرية يهاجرون منها بحرا ، والأجانب فى القاهرة والأقاليم يفدون الى الاسكندرية للاقلاع منها الى الخارج ، وبدأ رحيل الأوربيين عن البلاد فى اليوم التالى لمذبحة الاسكندرية ، وكثرت جموعهم النازحة

فى الأيام التالية . ونزل المهاجرون منهم الى السفن التى كانت راسية فى الميناء ينتظرون أن تقلع بهم

وبلغ عدد الراحلين منهم يوم ١٢ يونيه سنة ١٨٨٢ أكثر من عشرة آلاف مهاجر نزلوا الى البحر متفرقين فى البواخر والسفن الشراعية ، ولم تعارض ادارة جوازات السفر ولا الجمارك أحدا منهم فى النزول الى البحر ، فكثرت جموع المهاجرين يحملون أموالهم وأمتعتهم ، وامتلأ الميناء بالسفن المقلة لهم ، وظلت الهجرة مستمرة فى الأيام التالية حتى بلغ عدد الراحلين لغاية يوم ١٨ يونيه ٣٢٫٠٠٠ مهاجر وبلغ عددهم ستين ألفا قبيل ضرب الاسكندرية ، فكان هذا السيل المتدفق نذيرا بما يتمخض عنه الجو من الأحداث الجسيمة

ومما ساعد على تعاظم سيل الهجرة أن قناصل الدول رغبوا الى رعاياهم الرحيل عن البلاد ، وأفضوا اليهم بأنهم يتوقعون حوادث أشد هولا من مذبحة ١١ يونيه ، وأن الحرب وشيكة الوقوع ، فسارعوا الى الهجرة . وأعدت كل دولة سفنا لنقل رعاياها ، فهرع الفقراء والمعوزون الى النزول اليها ، وأخذ الموسرون منهم أماكنهم فى البواخر المعتادة ، وتسلل الأوربيون من كل ناحية فى القطر المصرى قاصدين الميناء ، حتى خيل لمن يرى جموعهم الراحلة أنه لم يبق منهم فى البلاد الا نفر قليل

وزاد الناس شعورا بخطر الموقف انتقال الخديو فجأة من العاصمة الى الاسكندرية ، فقد اعتزم السفر اليها عقب حادثة ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ ، وحجته تهدئة الخواطر فيها ، وسافر اليها يوم الثلاثاء ١٣ يونيه ، وودعه على المحطة عرابى باشا وزير الحربية ، وقبل أن يتحرك القطار عهد الى عرابى مراقبة أحوال القاهرة والسهر على الأمن العام فيها واتخاذ الاحتياطات الكفيلة بمنع وقوع أى حادث ، وصحبه

فى سفره درويش باشا المندوب العثمانى

من المسئول عن المذبحة ؟

لا شك أن حضور الأسطولين الانجليزى والفرنسى هو السبب الاول لحوادث ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ ، فقد هاج حضورهما الخواطر وأوغر صدور المصريين على الأوربيين عامة لما فى مجيئهما من معنى التحدى والعدوان ، كما أنه أغرى الأوربيين بالوطنيين لشعورهم بأن الأسطولين انما جاءا لحمايتهم ولاذلال المصريين

كتب الشيخ محمد عبده (الاستاذ الامام) فى هذا الصدد يقول :

« ان الحكومة الانجليزية على عادتها فى اختلاق العلل وارتجال المساءات قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجه مطمعها ، واتخذت مجرد التغيير فى بعض نظامات الحكومة الخديوية سببا للمناواة ، واندفعت لتسيير مراكبها الى مياه الاسكندرية تهديدا لحكومة الخديو وعدوانا عليه ، ثم نفخ بعض رجالها فى أنوف ضعفة العقول من الأجانب المقيمين بالثغر حتى أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين قضاء لشهوة انجليزية ، وأقامت منها حكومة انكلترا حجة فى العدوان على الأراضى الخديوية ، ولو أن بصيرا نظر الى أحوال القطر المصرى بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بداءة الخلل فى ذلك القطر من يوم ورود المراكب الانكليزية لثغر الاسكندرية ، ولا نسبة بين ما كان قبل ذلك من عموم الأمن ورواج الأعمال وانتظام المصالح وبين ما كان بعده »

فالمسئولية العامة تقع على كاهل السياسة البريطانية والفرنسية . أما المسئولية الخاصة فى وقوع المذبحة بالذات فتستطيع أن تتبينها من أن أول من أشعل الفتنة مالطى

من رعايا بريطانيا وأخ لخادم القنصل البريطانى ، ولا يمكن أن يكون هذا من قبيل المصادفات ، والسياسة البريطانية هى التى استغلت الحادثة وهولت فيها وجسمتها لتتذرع بها الى التدخل المسلح فى شؤون البلاد ، وقد وصفها المسيو فريسينيه رئيس وزارة فرنسا فى ذلك الحين وصفا لا مبالغة فيه ولا تهويل ، اذ قال بأنها من الحوادث العارضة التى تقع أحيانا فى الثغور التى يسكنها عدة أجناس ، وشبهها بالفتنة التى حصلت قبل عام فى مرسيليا بين العمال الايطاليين والفرنسيين

وزارة اسماعيل راغب باشا

بقيت البلاد بلا وزارة منذ استقالة البارودى أى من ٢٧ مايو .. فلما وقعت حوادث ١١ يونيه اتجهت الأنظار الى وجوب تأليف وزارة تضطلع بأعباء الحكم وتضع حدا للفوضى التى استهدفت لها البلاد

وكان الخديو قد بارح القاهرة ووصل الى الاسكندرية عقب مذبحة ١١ يونيه كما أسلفنا ، فسعى قنصلا ألمانيا والنمسا لديه باتفاقهما مع مندوب تركيا للتقريب بين الخديو وعرابى وترغيبه فى تأليف وزارة جديدة يبقى فيها عرابى وزيرا للحربية . فأخذ الخديو يستشير بعض رجال الدولة فى أمر تأليف الوزارة الجديدة . فاستدعى شريف باشا ثم مصطفى فهمى باشا ثم عمر لطفى باشا وغيرهم ، وكلف كلا منهم بتأليف الوزارة . فأبوا جميعا لما كان بينهم وبين عرابى من الجفاء . وتدخل قنصلا ألمانيا والنمسا ومندوب تركيا من جديد ، واتصلوا بعرابى وتفاوضوا معه فى هذا الشأن ، واستقر رأيهم بعد استطلاع رأيه على النصح للخديو باختيار اسماعيل راغب باشا لتشكيل الوزارة . وعلى ذلك ألف راغب باشا الوزارة وفيها عرابى وزيرا للحربية كما كان

ولو حسنت نيات انجلترا لأمكن لوزارة راغب باشا أن تعيد الأمور الى نصابها وتزيل الآثار السيئة التى نجمت عن حوادث ١١ يونيه ، فان هذه الحوادث قد وقع مثلها فى بعض ثغور البلاد الاوربية دون أن يترتب عليه سلب استقلالها وانتهاك حقوقها . ولكن انجلترا التى دبرت مذبحة الاسكندرية أبت الا أن تستغلها دون نزاهة ولا هوادة حتى تصل الى احتلال مصر . وكان من تدابيرها ألا تمكن وزارة راغب باشا من تهدئة الخواطر واقرار الأمن فى نصابه ..

وأغلب الظن أنها لم تكن تبغى تأليف الوزارة لكى تبدو البلاد فى حالة غير عادية وتتخذ من ذلك ذريعة الى التدخل فى شؤون البلاد .. فلما تألفت قابلتها السياسة الانجليزية بالجفاء وعدم الثقة والغض من قدرتها على اعادة الأمن الى نصابه ، وأخذت تخلق لها العقبات والعراقيل . وبارح السير ادوار ماليت قنصل بريطانيا العام الاسكندرية يوم ٢٧ يونيه وأناب عنه المستر كارترايت الذى شهد ضرب الاسكندرية . وغادر المدينة أيضا المستر كوكسن القنصل البريطانى . وأوعزت الحكومة البريطانية الى السير أوكلن كولفن الرقيب المالى الانجليزى بالامتناع عن حضور جلسات مجلس الوزراء . وهذه علائم ونذر تنبىء عما كانت تبيته السياسة الانجليزية من اثارة الحرب والقتال

ميثاق النزاهة

مؤتمر الاستانة

دعا المسيو دى فريسينيه رئيس الوزارة الفرنسية الدول الأوربية الكبرى الى عقد مؤتمر للنظــر فى المسألة المصرية ، فلبى هذه الدعوة كل من انجلترا وألمانيا والروسيا وايطاليا والنمسا .. أما تركيا فانها رفضت الفكرة بحجة أن ايفاد مندوبها درويش باشا الى مصر كاف لحل مشكلتها ! وقد اعتزمت ايفاده الى مصر فى الوقت الذى علمت فيه باقتراح عقد المؤتمر ، أى أنها عارضت المؤتمر بارسال مندوب سام الى مصر واتخذت من ارساله وسيلة لرفض عقد المؤتمر ، واحتجت أيضا بأن الأحوال فى مصر لا تستدعى عقد مؤتمر بعد تأليف وزارة راغب باشا واضطلاعها بأعباء الحكم واعادتها الأمن الى نصابه ، فلم يبق شىء يمكن أن يتفاوض فيه المؤتمر

وقد أبلغ وزير خارجية تركيا سفراء الدول الأوربيــة بالاستانة هذا القرار ، ولكن الدول لم تعبأ به واعتزمت عقد المؤتمر . وبقيت تركيا على امتناعها ورفضت الاشتراك فيه حتى ضرب الاسكندرية ، فكان من المهــازل السياسية أن يجتمع مؤتمر دولى فى الاستانة للنظر فى المسألة المصرية دون أن تشترك فيه حكومة الاستانة ذاتها ، ودون أن تشترك فيه مصر ، وكان واجبا على كلتيهما أن تشتركا فيه

وليس هذا المظهر وحده هو الذى يدل على اضــطراب السياسة العثمانية فى المسألة المصرية ، بل ان مسلكها كله كان مجموعة متناقضات واضطرابات .. فبينما كانت تتظاهر بتأييد سلطة الخديو اذا بالسلطان عبد الحميد يعلن عطفــه على عرابى ويمنحه نيشانا رفيع الشأن ، ثم اذا جد الجد

ونشبت الحرب بينه وبين الانجليز طعنه فى الصميم باعلانه عصيانه . فكان هذا الاعلان من أكبر أسباب هزيمته وخذلانه . فهذا التناقض والاضطراب . مضافا اليه قصر نظر تركيا وسوء نيتها نحو مصر . ورغبتها فى انقاص استقلالها . ثم ما جبلت عليه من الدس والوقيعة ، وتأثر وزرائها بالمال والرشا . جعل من السياسة التركية عامل فساد استخدمته بريطانيا لتحقيق أطماعها فى مصر

اجتمع المؤتمر بدار السفارة الايطالية فى «ترابيا» بضواحى الاستانة على شاطىء البوسفور يوم ٢٣ يونيه سنة ١٨٨٢ وكان أعضاؤه سفراء الدول العظمى الست بريطانيا وفرنسا وألمانيا والنمسا والروسيا وايطاليا ، والسفير البريطانى هو اللورد دفرين

ميثاق النزاهة

ثم اجتمع للمرة الثانية يوم ٢٥ يونيه ، وقبل البدء فى مداولاته إبرام العهد المشهور بميثاق النزاهة **Protocole de Désintéressement** ، وقد وضعه المسيو دى فريسينيه فى ١٦ يونيه وعرضه على اللورد جرانفيل فقبله ، وهذا نصه :

« تتعهد الحكومات التى يوقع مندوبوها على هذا القرار بأنها فى كل اتفاق يحصل بشأن تسوية المسألة المصرية لا تبحث عن احتلال أى جزء من أراضى مصر ولا الحصول على امتياز خاص بها ولا على نيل امتياز تجارى لرعاياها لا يخول لرعايا الحكومات الاخرى »

وقد وقع عليه أعضاء المؤتمر جميعا ..

هذا هو العهد الذى ارتبطت به الدول وفى مقدمتها انجلترا فى مؤتمر الاستانة .. ولكن انجلترا حين أبرمته كانت تنوى نقضه ، كما نقضت سائر عهودها فى المسألة المصرية . والدليل

القاطع على ذلك أنها فى الوقت الذى أبرمته ـ ٢٥ يونيه سنة ١٨٨٢ ـ كانت تعد معدات الحرب والقتال وتجهز جيشها لاحتلال مصر . ولم يمض على هذا العهد ستة عشر يوما حتى ضرب أسطولها مدينة الاسكندرية بمدافعه يوم ١١ يوليه

واجتمع المؤتمر فى جلسته الثالثة يوم ٢٧ يونيه ، وأخذ أعضاؤه يتداولون فى المسألة المصرية ، وأخذ اللورد دفرين يلقى بيانه عن الحالة فى مصر ، ذهب فيه الى أن الفوضى قد تمكنت من مصر من جراء ثورة الجيش وانتقاضه على الخديو ، وأن هذه الفوضى قد أدت الى اختلال الادارة وارتباك الأحوال ووقوف حركة التجارة وفقدان الثقة وعجز الأهلين عن سداد الضرائب وعجز الحكومة عن الوفاء بتعهداتها المالية حيال الدائنين الأجانب ، ثم تعريض حياة الأوربيين للخطر

ويؤخذ من بيان اللورد دفرين أن انجلترا كانت تقصد من الاشتراك فى المؤتمر اعلان أن الحالة فى مصر تستدعى التدخل فى شؤونها ، وأن هذا التدخل يجب أن يكون حربيا لقمع الثورة واعادة سلطة الخديو . وكانت ترمى الى أن يكون هذا التدخل انجليزيا .. ولكنها تظاهرت على لسان اللورد دفرين بأنها تبغى أن يكون تركيا ، وهى عالمة بأن الحكومة التركية بلغت من الضعف والتردد بحيث لا تقدم على هذه المهمة . ولو أنها تدخلت بجيشها لكان من المحتمل أن يكون ذلك انقاذا للموقف وتفاديا من الاحتلال ، لأن الدول الأوربية ما كانت لتقبل بقاء جيش عثمانى فى مصر الى ما شاء الله . وفى الحق أن الحالة لم تكن تستدعى ارسال جيش عثمانى أو غير عثمانى ، فان وزارة راغب باشا كانت تستطيع اعادة الأمن والنظام الى نصابه لو لم تبادرها السياسة الانجليزية بالعقبات والعراقيل

كانت انجلترا واثقة من جمود السياسة التركية وضعفها ،

مطمئنة الى انقسام الدول الاوربية فى الرأى وعدم اتخاذها قرارا معينا فى المسألة المصرية .. فانتهزت هذه الفرصة وأخذت قبل انعقاد المؤتمر وخلال انعقاده تعد معدات الحرب والقتال لتنتهك بأسطولها وجيشها حرمة العهود والمواثيق ، وتحتل مصر تحت سمع المؤتمر وبصره

وقد بدت منها نية الخداع جلية فى مفاوضاتها بالمؤتمر ، فقد اقترح السفير الايطالى على الاعضاء بجلسة ٢٧ يونيه أن تقرر الدول الامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر ما دام المؤتمر منعقدا ، ولو كانت انجلترا حسنة النية لوافق مندوبها على هذا القرار ، ولكن الواقع كما أسلفنا أنها كانت تجهز معدات الحرب لاحتلال مصر ، فأخذ اللورد دفرين يلح فى ضرورة وضع تحفظ لهذا القرار حتى قرر المؤتمر اضافته وهو « فيما عدا الاحوال القهرية » ، فنم بذلك على ما كانت تضمره انجلترا من مخادعة المؤتمر ، وما كانت تبيته من نية الشر والعدوان ، ونقض العهد والميثاق ، وقد اطمأنت بعد وضع هذا التحفظ ، وتركت المؤتمر يجتمع ويقرر ما يشاء ، اذ كانت هذه الكلمة كافية لتجعل قراراته عديمة القيمة

ومن الغريب أن المركيز دى نواى سفير فرنسا قد أيد اللورد دفرين فى اقتراحه اضافة هذه الحاشية ، فدل بذلك على مبلغ تخبط السياسة الفرنسية فى ذلك الحين . وقد اغتبط اللورد دفرين لهذه الاضافة وأرسل فى اليوم التالى الى اللورد جرانفيل رسالة يقول فيها : « اننا فى الواقع منذ أن تم تعديل اقتراح السفير الايطالى هذا التعديل الهام لم نعد نعتبر للاقتراح قيمة كبيرة »

قرر المؤتمر فى جلسته الثالثة وجوب التدخل فى مصر لاخماد الثورة ، وأن يعهد الى تركيا بهذه المهمة بأن ترسل الى مصر قوة كافية من الجند لاعادة الأمن والنظام اليها !

وأخذ يتداول فى الجلسات التالية فى شروط هذا التدخل وحدوده ، واستفادت انجلترا من هذا البطء لاتمام تدابيرها وانفاذ خطتها فى تدخلها المنفرد ، ووضع المؤتمر فى جلسته السابعة — يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ — قواعد هذا التدخل وهى : أن يحترم الجيش الذى ترسله تركيا مركز مصر وامتيازاتها التى نالتها بموجب الفرمانات والمعاهدات ، وأن يخمد الثورة العسكرية ويعيد الى الخديو سلطته ، ثم يشرع فى اصلاح النظم العسكرية فى مصر ، وأن تكون مدة اقامته فى مصر ثلاثة أشهر الا اذا طلب الخديو مدها الى المدة التى تتفق عليها الحكومة المصرية مع تركيا والدول الأوربية العظمى ، ويعين قواد هذا الجيش بالاتفاق مع الخديو ، وتكون نفقاته على حساب مصر ويعين مقدارها بالاتفاق مع مصر وتركيا والدول الست العظمى الاوربية

وقد صدر هذا القرار على أن يعرض على الحكومة التركية والحكومات الأوربية الست التى لها ممثلون فى المؤتمر ، وأرسل نص القرار الى هذه الدول فأقرته ، ووافقت على تقديمه الى الحكومة التركية . فأرسل اليها ولكنها لم تقره ، ووقفت موقف الاحجام والتردد ، شأن السياسة التركية فى ذلك العهد . واعتمدت فى رفضها التدخل على تقارير درويش باشا الذى يقول فيها أنه ليس فى مصر ما يوجب تدخلها . وقد وافقت انجلترا على دعوة تركيا الى التدخل فى هذا الوقت الذى كانت تعد فيه معدات القتال لتتدخل هى بمفردها ، ذلك لأنها كانت مطمئنة الى بطء السياسة التركية وترددها ، وأنها تستطيع خلق (الحالة القهرية) التى نوه اليها اللورد دفرين ، فتتذرع بها الى التدخل الحربى من جانبها ، ضاربة صفحا عن قرار المؤتمر . وقد أنفذت خطتها ، اذ ضرب الأسطول الانجليزى مدينة الاسكندرية يوم ١١ يوليه قبل أن تتقدم الدول الى تركيا بقرار المؤتمر

وقبل أن يتبين موقف تركيا حيال هذا القرار

أما التدخل فى ذاته فلم يكن ثمة موجب له لأن الحالة فى مصر كانت طبيعية بعد تأليف وزارة راغب باشا .. ومن الوقائع الثابتة أن انجلترا أخذت تجهز معدات القتال قبل انعقاد المؤتمر ، فقد أصدرت وزارة البحرية الانجليزية فى ١٥ يونيه تعليماتها الى بواخر النقل بالاستعداد للسفر الى مصر مقلة كتائب الجنود فى ذلك الحين لارسالها الى الديار المصرية

وقد كانت آخر جلسة عقدها المؤتمر قبل ضرب الاسكندرية — وهى الجلسة السابعة — يوم ٦ يوليه ، فلما وقع الضرب ظهر أن المؤتمر لم يكن الا مهزلة اتخذتها انجلترا وسيلة لشغل الناس عما تضمره من نياتها العدائية ، واجتمع المؤتمر مع ذلك بعد الضرب يوم ١٥ يوليه ، وأخذ يستأنف النظر فى تدخل تركيا الحربى !

عرابى والمؤتمر

استمر المؤتمر كما أسلفنا يعقد جلساته على غير طائل ، وانجلترا تعد المعدات للقتال .. وقد كان انعقاده مدعاة الى اعتقاد عرابى وصحبه أن المسألة المصرية ستحل بطريق المفاوضات بين الدول ، وأن انعقاد المؤتمر مانع من انفراد انجلترا أو غيرها من الدول من التدخل الحربى فى مصر . وكان هذا اغراقا منهم فى حسن الظن أو الجهل بما تنويه انجلترا ..

وفى الحق أن العرابيين كان ينقصهم الحصافة فى الرأى وبعد النظر السياسى ، وأغلب الظن أنهم كانوا لا يعرفون الموقف السياسى على حقيقته ، وكانوا يعتمدون على مايتلقونه من بعض الأفراد الأوربيين من الأوهام والاخبار الملفقة . ولم يكن لديهم قلم أخبار فى مصر ولا فى الخارج يطلعهم على حقيقة الأحوال السياسية وتطوراتها

هذا فضلا عما اشتهروا به من الغرور والخيلاء ، اذ كانوا يتوهمون أنهم قادرون على دفع اعتداء الانجليز أو أية دولة أخرى دون أى استعداد جدى للحرب . ولم يكونوا يقدرون قوة أعدائهم ، ولا قوتهم هم أنفسهم ، فبينما كان الانجليز يستعدون للحرب والقتال ويحشدون جنودهم فى انجلترا ومالطة والهند ويستطلعون قوة العرابيين ويقفون على حقيقة معداتهم ، كان العرابيون لا يعرفون شيئا عن معدات الانجليز .. بل كانوا يتوهمون أنهم لا يجرؤون على اعلان الحرب والقتال أو النزول الى البر . وكذلك كان شأن وزارة راغب باشا عامة فانها كانت لا تزيد كثيرا عن مستوى العرابيين فى العلم والمعرفة ، وكان عرابى هو الآمر المتسلط عليها اذ كان وزير الحربية والبحرية فيها

ومما ساعد العرابيين على التمادى فى غرورهم رؤيتهم الأسطول الانجليزى راسيا فى مياه الاسكندرية دون أن تنشب الحرب أو يتحفز للضرب ، فخيل الوهم لهم أن مجيئه لم يكن الا من قبيل التهديد والوعيد ، وأنه لا يجرؤ على انزال الجنود الى البر ، واتخذوا من موقف السكوت الذى لزمه يوم مذبحة الاسكندرية دليلا على أنه لا قبل له بالحرب والقتال ..

ولكن الواقع أن الانجليز كانوا ينتظرون أن يهيئوا الجو فى أوربا لقبول تدخلهم الحربى .. فدبروا مذبحة الاسكندرية حتى يظهروا الحالة فى مصر بأنها حالة فوضى واضطراب ونهب وقتل لا يؤمن معها على حياة الاجانب ، وأنها تستدعى تدخل الدول لوضع حد لهذه الفوضى ، ثم اشتركوا والدول فى عقد مؤتمر الاستانة للمفاوضة فى ايجاد علاج لهذه الحالة الخطيرة ، وهيأوا الأفكار فى أوربا لضرورة التدخل لقمع الثورة فى مصر ..

فلم يكن انتظارهم هذه المدة ــ ولم تكن فى ذاتها طويلة ــ

الا لاحكام خطتهم واتمام تجهيزاتهم الحربيـة ، ثم لتمكين الجاليات الأوربية من الهجرة قبل أن تضرب انجلترا ضربتها فى مصر ، لـكى يكون عدوانهـا مقـرونا بعطف الأوربيين المهاجرين .. وتكون فى احتلالها كأنها نائبة عنهم وعن الدول الأوربية جميعا . كل ذلك والعرابيون غارقون فى أحلامهم معتقدون أن الحرب بعيدة الوقوع ، ولذلك لم يبد منهم أى عمل يدل على الاستعداد لخوض غمار القتال

وكانت أحاديث العرابيين دائرة حول ما يتسقطونه من أخبار المؤتمر ، وما تلوكه ألسنتهم من أن الأزمة ستحل قريبا بطريق السلم ، وأنها ستنتهى بخلع الخـديو توفيق وتعيين الأمير حليم باشا مكانه .. وهذا كل ما كان يشغل بالهم ويستحوذ على أفكارهم فى ذلك الوقت العصيب ، أما الاستعداد للحرب والتهيؤ للقتال فلم يفكروا فيـه تفكيرا جديا الا فى اللحظـة الأخيرة بعـد أن ضاع الوقت وسبق السيف العذل



ضرب الاسكندرية

ضرب الاسكندرية

كانت انجلترا تستعد للحرب قبل انعقاد مؤتمر الاستانة وخلال اجتماعه وقبل أن يقر قراره بدعوة تركيا الى ارسال جيش لها الى مصر .. وأخذت تدبر الاسباب والذرائع للتعجيل بضرب الاسكندرية ، لكى تضع المؤتمر أمام الامر الواقع

فأوعزت الى الاميرال سيمور قائد الاسطول البريطانى أن يخلق أية وسيلة للتحرش بمصر لاثارة الحرب عليها ، أى أنها أخذت تخلق « الحالة القهرية » التى أشار اليها اللورد دفرين فى مؤتمر الاستانة واشترط اضافتها الى قرار الامتناع عن التدخل المنفرد فى مصر ، فأخذ الاميرال يتأهب للعدوان، وكان يستعين برأى الجالية البريطانية فى خلق أسبابه ، ووجد على الاخص من السير أوكلن كولفن الرقيب المالى الانجليزى عونا كبيرا له فى ذلك .. اذ كان من أشد غلاة الاستعمار ومن الداعين الى احتلال مصر . وكان بعد رحيل السير ادوار مالت الممثل الفعلى لبريطانيا فى مصر ، فلا غرو أن كان على اتصال دائم بالأسطول

ولم يكن أسهل على القوة الغشوم من أن تخترع الوسيلة لاثارة القتال .. فقد أرسل الاميرال سيمور فى أول يوليه سنة ١٨٨٢ الى مجلس الاميرالية الامبراطورية ينبئها أنه اكتشف بعض ترميمات يقوم بها المصريون فى حصون الاسكندرية ، وأنهم يركبون بطاريات جديدة تجاه بوارجه ، وأن الاستعدادات الحربية قائمة فى البلاد ، وأن عرابى معتزم

سد بوغاز الاسكندرية لحصر البوارج الانجليزية التى كانت راسية فى الميناء

وبديهى أن هذا الاكتشاف انما كان وسيلة مختلقة لتسويغ الشر والاعتداء ، فان أية ترميمات تجرى فى الحصون لايمكن أن تكون وسيلة مشروعة لاثارة الحرب والقتال ، اذ كل دولة حرة فى أن تقوى معدات الدفاع فى بلادها ، بل واجب عليها أن تفعل ذلك فى كل وقت .. وخاصة فى مثل تلك الظروف العصيبة التى كانت تجتازها مصر ، فان مجرد حضور الاسطول البريطانى فيه معنى التهديد بالتدخل المسلح ، على أنه لم يكن ثمة ترميمات جدية تخيف الاسطول الانجليزى وتشغل باله

وقد أجابت الاميرالية الانجليزية فى ٣ يوليه على برقية الاميرال سيمور بأن يمنع كل محاولة لسد بوغاز الاسكندرية ، ورخصت له بأن يطلب وقف الأعمال الجارية فى الحصون ، وفى حالة الرفض فليدمرها بمدافعه

وتدل الدلائل والبينات على أن الحكومة البريطانية كانت مبيتة نيتها على ضرب الاسكندرية واحتلال البلاد مهما كانت الاسباب والملابسات ، وذلك قبل اختلاق حكاية ترميم الحصون ، وأنا ذاكرون هذه الشواهد فيما يلى :

أولا ــ فى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٢ عرض سفير انجلترا فى باريس على الحكومة الفرنسية الاشتراك فى اتخاذ وسائل عاجلة بقصد حماية قناة السويس ، فأجابه المسيو دى فريسينيه رئيس وزارة فرنسا أن لا خطر مطلقا يتهدد القناة وأن شركة القناة ذاتها لا تخشى من شىء سوى تلك الحماية التى يراد فرضها عليها لان احتلال القناة قد يؤدى الى قطع ترعة الاسماعيلية واستهداف القناة البحرية ذاتها لاعمال عدائية ، وختم دى فريسينيه جوابه بأن احتلالها عمل لا مسوغ له

ثانيا ــ يقول المستر بلنت أن وزارتى الحربية والبحرية فى انجلترا عقدتا النية منذ أوائل سنة ١٨٨٢ على مهاجمة مصر من ناحية قناة السويس ، وشاهد بنفسه الاستعدادات الحربية فى انجلترا فى شهر يونيه سنة ١٨٨٢ ، وكان يعتقد أن الغرض منها تقوية مركز انجلترا فى مؤتمر الاستانة ،ولكن تبين له فيما بعد أن الغرض منها مهاجمة مصر

ثالثا ــ موقف انجلترا فى مؤتمر الاستانة واصرار اللورد دفرين على وجوب التدخل الحربى فى شؤون مصر لقمع الثورة ، واضافته كلمة (الحالة القهرية) الى قرار الامتناع عن التدخل المنفرد كما تقدم بيانه ، كل ذلك يدل على ماكانت تضمره من التدخل بمفردها

رابعا ــ منذ أن جاء الاسطول البريطانى فى مايو تعاقد مع تجار الاطعمة على توريد المؤونة اللازمة للاسطول لمدة ثلاثة أشهر .. وليس هذا عمل أسطول جاء لوقت محدود بقصد حماية أرواح الاجانب كما قال الانجليز عند حضوره

خامسا ــ أرسل المسيو سنكفكس قنصل فرنسا العام الى المسيو دى فريسينيه رئيس وزارة فرنسا برقية من الاسكندرية فى ٢٨ يونيه سنة١٨٨٢يقول فيها : «ان هجرة الاوربيين مستمرة والشعور العام هنا أن التدخل الانجليزى أصبح وشيك الوقوع ولم يبق فى القنصلية الانجليزية الا كاتبان يسجلان أسماء الانجليز الذين يرغبون البقاء فى مصر»

سادسا ــ أرسل المسيو دى فورج De Forges قنصل فرنسا العام الى المسيو دى فريسينيه برقية من الاسكندرية يوم ٤ يوليه يقول فيها : « كل الدلائل تدل على أنه سيقع عمل حربى عاجل من الانجليز سواء باشتراكنا أو بدونه »

سابعا ــ اعترف الاميرال سيمور فى يوم ٦ يوليه سنة ١٨٨٢ بأن أعمال الترميم التى زعم أنها كانت جارية بها لغاية

يوم ٥ يوليه أوقفت ومع ذلك أصر على الضرب

ثامنا ــ تدبير مذبحة الاسكندرية من الادلة على تبييت انجلترا النية على الاحتلال

تاسعا ــ عهدت وزارة الحربية البريطانية الى المستشرق الاستاذ بالمر Palmer بالمجىء الى مصر وارتياد صحراء سينا لرشوة القبائل البدوية بين قناة السويس وغزة قبل نشوب الحرب ، وقد حضر، وقابله المسيو جون نينيه فى الاسكندرية عرضا فقال له الاستاذ بالمر : « أنصحك بمغادرة القطر المصرى لان الاسكندرية ستضرب بالقنابل عما قريب وستكون عرضة لان يقتلك الاهلون »

وقد قام الاستاذ بالمر بمهمته ، ولكن قتله البدو هو وصحبه . وحوكم قتلتهم عقب الاحتلال فحكم عليهم بالاعدام !

كل هذه الشواهد والنيات تدل على سبق اصرار انجلترا على ضرب الاسكندرية واحتلالها مهما كانت الاحوال ، أو اختلفت الأسباب

التحفز للضرب

فى ٦ يوليه أرسل الأميرال سيمور الى طلبة عصمت قومندان موقع الاسكندرية بلاغا أول بالكف عن أعمال التحصين الجارية فى الحصون. فأجابه طلبة فى اليوم ذاته بأنه لم يوضع أى مدفع جديد فى الحصون ولم يجر فيها أى عمل جديد ، وقد ذاع بلاغ الأميرال سيمور فى المدينة وتناقله الناس ، فأيقن العارفون بحقائق الأمور انه نذير الشر ، وأن الحرب واقعة لا محالة . وأوعز قنصلا انجلترا وفرنسا الى رعاياهما الباقين بالمدينة بالمبادرة الى الرحيل عنها ، فتسابقوا الى الهجرة والنزول الى السفن التى بالميناء. وبلغ عدد المهاجرين الأوربيين منذ حوادث يونيه الى ماقبل الضرب نحو ٩٩ فى المائة

من عددهم الأصلى ، وهاجر كثير من سراة المدينة الى داخل البلاد ، على أن معظم الأهلين بقوا بها

لم يقتنع الاميرال سيمور بجواب طلبة باشا .. وهيهات أن يقتنع ، لأنه انما يبغى من جوابه أن يختلق سببا مكذوبا ليتذرع به الى الضرب

وامعانا فى التحرش بعث الاميرال الى طلبة باشا عصمت بلاغا آخر يمهد به الى الانذار النهائى ، هذه ترجمته :

« البارجة انفنسبل فى ٦ يوليه سنة ١٨٨٢

« صاحب السعادة ... أتشرف باخباركم أنى علمت من طريق رسمى أنه قد صار البارحة تركيب مدفعين جديدين أو أكثر فى خطوط الدفاع القائمة على البحر وأن بعض استعدادات حربية قد عملت فى واجهة الاسكندرية الشمالية تحديا للأسطول الذى تحت قيادتى ، فيجب على والحالة هذه أن أنبه عليكم بوقف هذه الاعمال فان لم تقف وتجددت يكون واجبا على تدمير المعدات الجارى العمل فيها »

فرد عليه طلبة باشا عصمت بالجواب الآتى :

« عزيزى الاميرال الانجليزى

« أتشرف بأن أنبئكم بوصول خطابكم المؤرخ ٦ يوليه الذى تخبروننى فيه أنه اتصل بكم تركيب مدفعين وأن أعمالا أخرى جارية على شاطىء البحر .. فردا على ذلك أود أن أؤكد لكم أن الأخبار المذكورة لا حقيقة لها ، وأن هذه الأخبار مثل خبر التهديد بسد مدخل البوغاز الذى اتصل بكم وتحققتم كذبه

« هذا وانى لمعتمد على عواطفكم المتشبعة بروح الانسانية وأرجو قبول احتراماتى »

ولم يكتف الأميرال سيمور بطلب منع التحصين ، بل طلب أن تسلم له الحصون التى يزعم أنها تهدد الأسطول !

وفى صبيحة ١٠ يوليه أرسل الى طلبة باشا عصمت انذاراً نهائيا يطلب فيه تسليم البطاريات المنصوبة فى الحصون القائمة بشبه جزيرة رأس التين وعلى ساحل ميناء الاسكندرية الجنوبى والا ضرب الحصون فى صبيحة الغد — ١١ يوليه — ومعنى ذلك تسليم الحصون ذاتها

وهذا نص الانذار النهائى :

« أتشرف باخبار سعادتكم أنه نظراً لأن الاستعدادات العدائية الموجهة ضد الأسطول الذى أتولى قيادته آخذة فى الازدياد طول يوم أمس فى طوابى صالح وقايتباى والسلسلة فقد عقدت العزم على أن أنفذ غداً — ١١ الجارى — عند شروق الشمس العمل الذى أعربت لكم عنه فى خطابى المؤرخ يوم ٦ الجارى ان لم تسلموا الى حالا قبل هذه الساعة البطاريات المنصوبة فى شبه جزيرة رأس التين وعلى شاطىء ميناء الاسكندرية الجنوبى لتجريدها من السلاح »

وعقد الخديو بسراى رأس التين مجلسا عاما دعا اليه الوزراء وكبار رجال الدولة ليستشيرهم فى الموقف وفيما يجب أن يكون عليه جواب الحكومة على الانذار النهائى . فاستقر رأى المجلس على رفض مطالب الاميرال ..

وفى المساء حرر الوزراء الرد على الانذار النهائى طبقا لقرار المجلس وهذا نصه : « لم تعمل مصر شيئا يقضى بارسال هذه الأساطيل المتجمعة ، ولم تعمل السلطة المدنية ولا السلطة العسكرية أى عمل يسوغ مطالب الاميرال الا بعض اصلاحات اضطرارية فى أبنية قديمة ، والطوابى الآن على الحالة التى كانت عليها عند وصول الأساطيل . ونحن هنا فى وطننا وبيتنا ، فمن حقنا بل من الواجب علينا أن نتخذ عدتنا ضد كل عدو مباغت يقدم على قطع أسباب الصلات السلمية التى تقول الحكومة الانكليزية أنها باقية بيننا . ومصر الحريصة على حقوقها الساهرة على تلك الحقوق وعلى شرفها

لا تستطيع أن تسلم أى مدفع ولا أى طابية دون أن تكره على ذلك بحكم السلاح .. فهى لذلك تحتج على بلاغكم الذى وجهتموه اليوم وتوقع مسئوليات جميع النتائج المباشرة وغير المباشرة التى تنجم اما عن هجوم الأساطيل أو عن اطلاق المدافع ، على الأمة التى تقذف فى وسط السلام القنبلة الاولى على الاسكندرية المدينة الهادئة مخالفة بذلك لأحكام حقوق الانسان ولقوانين الحرب »

يتضح من البيانات والمراسلات المتقدمة أن الانجليز كانوا مصممين على احتلال الاسكندرية سواء ضربوها أو لم يضربوها وسواء قبلت طلباتهم فى الانذار النهائى أو لم تقبل. ولم تكن الوسائل السلمية كافية مجدية فى منعهم عن تنفيذ ما عزموا عليه .. فالمجلس العام الذى اجتمع برآسة الخديو وقرر رفض الانذار كان على حق فى قراره .. ولو أنه قرر التسليم بمطالب الأميرال سيمور لما كان تسليمه ليحول بين الانجليز واحتلالهم المدينة . وكل ما كان يؤدى اليه التسليم أن يقع الاحتلال دون مقاومة من جانب مصر ، ولم يكن هذا موقفا مشرفا ، فليس الخطأ فى رفض مطالب الاميرال ، بل الخطأ فى الانقسام الذى كان واقعا بين الخديو والعرابيين ، وكان عليهم أن يتلافوا ذلك الانقسام الذى أضعف الجبهة المصرية فى ساعة الخطر ، ولكن كلا الفريقين لم يبذل سعيا جديا فى تلافيه ، وكلاهما مخطىء من هذه الناحية

الحصون والأسطول

يجمل بنا قبل أن نتكلم عن وقائع الضرب أن نقابل بين القوتين المتحاربتين ، لأن من هذا البيان يتضح من كان مقدرا له الفوز والنصر

كان بالاسكندرية فى ذلك الحين عدة حصون تسمى « طوابى » جمع طابية ، وهذا الاسم متداول حتى اليوم

بين سكان الثغر ، ولا يزال بعض هذه الحصون (الطوابى) قائما حتى اليوم تبدو عليه آثار الخراب ، وبعضها لم يبق له وجود

وهذه الحصون كانت تمتد على شاطىء البحر من ناحية العجمى غربا الى أبو قير شرقا .. فأولها من الغرب طابية « العجمى » ، وهى قائمة فى جزيرة العجمى التى يسميها الافرنج جزيرة المرابط — أو مارابوت كما يكتبونها — ولذلك يسمونها قلعة المرابط واسمها الصحيح قلعة أو طابية العجمى وتسمى أيضا طابية العجمى البحرية تمييزا لها عن طابية العجمى القبلية التى سيرد الكلام عنها

وكانت طابية العجمى البحرية من أمنع حصون الاسكندرية ، ويوجد تجاهها على اليابسة طابية أخرى تسمى طابية العجمى القبلية ، وتعرف أيضا بطابية «العيانة» ، وهذه التسمية معروفة بين أهل هذه الجهة وواردة كذلك فى خريطة مصلحة المساحة .. ولم تكن لها أهمية حربية ، بل لم تشترك فى الضرب اذ لم يكن تم انشاؤها . ويلى هذه الطابية شرقا طابية « الدخيلة » ، ثم قلعة « المكس » وكانت من أمنع القلاع ، ومهمتها الدفاع عن مدخل الميناء «البوغاز»

ويلى قلعة « المكس » على طول الشاطىء الجنوبى للميناء عدة حصون واستحكامات ، وهى البرج نمرة ١٥ ، فطابية « القمرية » ، فطابية « أم قبيبة » ، ثم برج مستدير فيه مدفعان ، ثم طابية « صالح »

وعند « باب العرب » طابية تسمى طابية باب العرب تعادل طابية المكس فى تسليحها ، وتقفل لسان الارض الواقع بين البحر وبحيرة مريوط ، وهى واقعة الى ما وراء المقطع القديم الذى خرقه الانجليز عام ١٨٠١ قبل خروجهم من مصر ليدخلوا به مياه البحر الى بحيرة مريوط فأغرقت

يومئذ قرى كثيرة وتحولت به صحراء واسعة يابسة الى مستنقع ردىء

وفي شبه جزيرة رأس التين عدة حصون تحمى الميناء من الجهة الشمالية ، وهى طابية « الفنار » التى تحيط بفنار الاسكندرية وتشرف على الميناء ، فطابية « رأس التين » الواقعة شمالى سراى رأس التين ، فطابية الاسبتالية

وتلى هذه الحصون شرقا طابية « الأطة » وهى كلمة تركية تنطق أضه وتعنى الجزيرة ، وتسمى فى الاسكندرية طابية القضا ـ الواقعة شرقى حمام الانفوشى ـ ثم طابية «الهلالية» ثم طابية « قايتباى » التى يسميها الاوربيون حصن « فاروس » ومهمتها حماية المدينة من الجهة الشمالية الشرقية،وحماية الميناء الشرقى ، يقابلها من الطرف الشرقى لهذا الميناء طابية « السلسلة »

ويلى طابية « السلسلة » شرقا قلاع أبو قير ، وهذه لم تشترك فى القتال لبعدها عن ميدانه ، وبداخل المدينة طابية « كوم الناضورة » وطابية «كوم الدكة» وتعرف أيضا بكوم الدماس

وكان يحيط بالمدينة من جهة اليابسة سور قديم يسمى السور العربى الذى كان باقيا منه الى عهد قريب بعض آثاره بجهة باب رشيد « باب شرقى » ، وهو سور حصين به أبراج للمدافع

وهذه الحصون منشأة من عهد محمد على ، ما عدا كوم الناضورة وكوم الدكة فانهما منشآن من عهد الحملة الفرنسية ، وقلعة « قايتباى » المنشأة فى القرن الخامس عشر ، وكانت الحصون سنة ١٨٨٢ بحالتها التى كانت عليها فى عهد محمد على وابراهيم وعباس ٠ وقد أجرى فيها اسماعيل بعض الترميم وجلب لبعضها المدافع الضخمة من طراز أرمسترنج ، وهى التى كانت تضاهى مدافع الاسطول

البريطانى ، وكان عددها ٤٩ مدفعا ، أما المدافع الاخرى فلم يكن يعتمد عليها فى الضرب لقدمها وضعفها وقرب مرماها، ولم تكن لها أية قيمة حربية فى سنة ١٨٨٢ ، وهى معظم مدافع الحصون اذ كان عددها ٢٢٩ مدفعا والاهوان وعددها أربعون

وكانت حامية الحصون مؤلفة من ألاى طوبجية السواحل ومجموع قوته الرسمية ١٧٦٢ مقاتلا بين جنود وضباط وصف ضباط بقيادة الاميرالاى اسماعيل بك صبرى،ولكن عددهم الحقيقى كان دون ذلك . ويقول عرابي فى مذكراته أنه لم يزد عن سبعمائة يوم الضرب ، ويقول المسيو جون نينيه الذى شهد ضرب الاسكندرية أن نصف رماة القنابل « الطوبجية » كانوا متغيبين فى قراهم بحجة الاقتصاد والتوفير ، وهذا يفسر نقصان عددهم يوم الضرب . وقال أن الاميرال سيمور كان موقنا قبل الضرب أنه لن يلقى فى ميدان القتال سوى هيكل محارب قديم كان شاكى السلاح بالأمس ثم صار شبحا لا حراك فيه ، وقال فى موضع آخر يصف اهمال حالة الحصون : «ان معظم المدافع القصيرة المرمى لم تتحرك من موضعها منذ نحو ثمان وثلاثين سنة حين ركبها لاول مرة جاليس بك Galice Bey مفتش الاستحكامات فى عهد محمد على .. أما المائة مدفع وواحد من مدافع أرمسترنج من عيار تسع الى عشر بوصات ، فكان منها ٦٤ فقط مركبة فى مواضعها ، والسبعة والثلاثون الاخرى كانت ملقاة خارج مواضعها ، وأما ذخائرها فانها لم تنقل من مخازنها بالترسانة »

يخلص مما تقدم بيانه أن الدفاع عن المدينة كان ضعيفا متخاذلا ، وأن القوة التى واجهت الضرب لم تتجاوز ٧٠٠ مقاتل .. أما حامية المدينة فلم تشترك فى القتال ، وكانت مؤلفة من أربعة ألايات : اثنان منها كانا مرابطين أصلا فى

المدينة ، وهما الأُلاى الخامس من المشاة بقيـــادة الميرالاى مصطفى بك عبد الرحيم برأس التين ، والأُلاى الســـادس بقيادة الميرالاى سليمان بك سامى داود ، ويتألف من هذين الأُلايين اللواء الثالث بقيادة خورشيد باشا طاهر ، والجميع بقيادة الفريق اسماعيل باشا كامل. وقد زيد عليهما ألايان بعد مذبحة الاسكندرية ، وهما الأُلاى الثانى بقيادة خليل بك كامل . والرابع بقيـــادة عيد بك محمد ، ويتألف من هذين الأُلايين اللواء الثانى بقيادة طلبة باشا عصمت الذى جعله عرابى قائدا لموقع الاسكندرية وحاميتها

ويقول عرابى أن كل ألاى من المشاة كان مؤلفا من ٣٠٠٠ مقاتل فيكون مجموع الجند يوم ضرب الاسكندرية ١٢٠٠٠ من البيادة « المشاة » و ٧٠٠ من الطوبجية

أما الاســطول البريطانى فكان مؤلفا من ثمانى مدرعات كبيرة وخمس سفن مدفعية وسفينة للطربيد وأخرى كشافة

ومعظم مدافع هذا الاسطول من طراز أرمسترنج وعددها ٧٧ مدفعا ، والاسطول من هذه الناحية كان أقوى سلاحا من الحصـــون ، وكان يفوقها فى سرعة تحركه وابتعاده عن الهــــدف ، على حين أن الحصون كانت مستقرة يسهل على الاسطول رميها بمدافعه فيصيبها. وكانت خطته فى الضرب أن تجتمع عدة بوارج فتصوب نيرانها نحو حصن واحــد ، فتدمره أو تسكته ، ثم تتحول الى الحصن الذى يليــــه .. وهكذا تستطيع أن تدمر الحصون حصنا بعد حصن ، بينما الحصون لا تستطيع أن ينجد بعضها بعضا ، فهذه المقابلة وحــدها تنبىء مبدئيا بمصير الضرب وتدل عـلى أن كفة الاســطول البريطانى كانت أرجح بكثير من كفة الحصون المصرية

أصدر الأميرال سيمور يوم ١٠ يوليه ســـنة ١٨٨٢

تعليماته الى بوارجه لكى تأخـذ مواقفها يوم الضرب على الترتيب الذى وضعه

واتخذت البوارج موقفها على هذا النحو ليلة الضرب ..
أما عن الاستعداد للضرب من ناحية الحصون ، فقد استدعى عرابى فى تلك الليلة الأميرالاى اسماعيل بك صبرى قومندان حصون الاسكندرية . وكان عرابى وقتئذ « بالترسانة » يصحبه محمود باشا فهمى وطلبة باشا عصمت ومحمد باشا كامل وكيل نظارة البحرية ، وأصدر اليه تعليماته ، فانصرف اسماعيل بك صبرى والتقى بضابط الحصون ووزع كلا منهم فى مركز عمله

وأصدر أيضا تعليماته بتوزيع جنود الحامية على خطوط الاستحكامات من برج السلسلة شرقا الى قلعة العجمى غربا

وفى ليلة ١١ يولية كانت البوارج الانجليزية على أهبة القتال ، أما الاسطول الفرنسى فقد انسحب الى بور سعيد تنفيذا لتعليمات حكومته، ولم يترك سوى سفينتين لم تعملا عملا ما .. وهكذا ترك الفرنسيون الانجليز وحدهم ينفردون بالضرب والقتال ، ولو اشتركوا معهم لتغير وجه المسألة المصرية ولما استطاع الاحتلال الانجليزى أن يثبت أقدامه فى البلاد

مأساة الضرب

فى الساعة السابعة من صبيحة يوم الثلاثاء ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ أعطى الاميرال سيمور اشارة الضرب .. فأطلقت البارجة «الكسندرا» أول قنبلة على طابية الاسبتالية، وتلتها البوارج الاخرى . فأخذت تطلق قنابلها المدمرة على حصون المدينة وعلى المدينة ذاتها . أما القلاع فلم تجب على الضرب الا بعد الطلقة الثالثة ، بعد خمس دقائق . وكان الضرب من جانب الاسطول الانجليزى شديدا مروعا ،فكانت

قنابله محكمة المرمى شديدة الفتك ، أما مدافع القلاع فكانت ضعيفة متراخية ، وسقط كثير منها فى البحر دون أن تصل الى البوارج الانجليزية

وكانت البوارج أثناء الضرب تتحرك فى سيرها ، يحجبها عن الأعين دخان كثيف فلا يستطيع الرماة المصريون احكام المرمى واصابة الهدف منها ، وكل بارجة تحيط بها شبكة من الفولاذ اذا أصابتها قنبلة من قنابل الحصون صدت قوتها بحيث تضعف اذا نفذت الى البارجة ذاتها ٠ وقد ساعد على احكام المرمى من جانب الاسطول أن الاستعداد الحربى من ناحية الانجليز أقوى وأعظم منه من جانب القلاع المصرية اذ كانوا مطلعين على دقائق الاستحكامات ومبلغ ما بها من المدافع والميرة والذخيرة ومخازن القنابل فيها ، بخلاف العرابيين فان معلوماتهم عن قوات الانجليز كانت مشوشة ضئيلة ، وكانوا يظنون أن البوارج الانجليزية لا تقوى على هدم القلاع ولا تقف أمام مرمى قنابلها ٠ وقد اتضح عكس ما يظنون ، فان البوارج قد دكت الحصون وعطلت مدافعها ، فى حين أن الاسطول الانجليزى لم يصب بضرر يذكر

استمر الضرب من الساعة السابعة الى الساعة الحادية عشرة على أقصى ما يكون من الهول والشدة ، وقنابل الاسطول تقذف الخراب وتحصد الارواح ٠٠ ثم سكتت قليلا واستؤنف الضرب بعد هنيهة حتى الساعة الثانية بعد الظهر ، ثم وقف هنيهة أخرى ، ثم استؤنف بعد ذلك الى منتصف الساعة السادسة مساء قبل الغروب بساعة

وقد تهدمت حصون الفنار ورأس التين والاسبتالية فى منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر ، حيث اجتمعت عليها المدرعات الكسندرا وسلطان وسوبرب ، ولما أسكتتها صوبت قنابلها الى قلعة « الاطه » وعاونتها فى ضربها

المدرعتـــان انفلكسيبل وتمرير فقـــذفت المدرعات الخمس نيرانهـــا على تلك القلعة فدمرتها بعد أن نسفت مستودع البارود فيها ، ثم تحولت الى قلعة « قايتباى » وظلت تقذفها بقنابلها الى الساعة الخامسة مساء فخربتها

وفى المنطقة الجنوبيـــة من الســـاحل ضربت المدرعات انفنسبل وبنلوب ومونارك وانفلكسيبل وتمرير حصـــون المكس وأم قبيبة والدخيلة فأسكتتها فى منتصف الســـاعة الثانية عشرة ، واتجهت السفينة كوندور الى قلعة العجمى فضربتها بالقنابل حتى أسكتتها

وفى نحو الساعة الأولى بعد الظهر شاهد الاميرال سيمور أن هذه الحصون قد أخلاها الجنود فأرسل عشرين بحارا الى البر دخلوا قلعة « المكس » وأتلفوا مدافعهـــا ثم عادوا الى سفنهم آمنين

وفى منتصف الساعة الرابعة شـــوهدت مدافع طابية « القمرية » تتأهب للضرب ٠٠ وعاد الجنود الى قلعة «المكس» فصوبت البارجتان «بنلوب» و «مونارك» مدافعهما الى الحصن المذكور وأخذتا فى ضربه حتى منتصف الساعة السادسة مساء حيث أمر الاميرال سيمور بالكف عن القتال ، فوقف الضرب بعد أن استمر عشر ساعات متوالية

وقد دافعت الحاميات عن الحصون دفاع المستميت ،وقام رجالها بواجبهم قدر ما استطاعوا ٠٠ ولكن قوة الاسطول ومدافعه كانت لها الغلبة فى هذا اليـــوم المشئوم ، فتهدم معظم الحصون ، وأصابت قنابل الاسطول كثيرا من مساكن الاهلين فدمرتها وأحرقتها ، كما أحرقت جناح الحرم بسراى رأس التين

وتفانى الأهلون فى الدفاع عن المدينة ، على رغم أن الحرب كانت حرب مدافع وحصـــون وبوارج ٠ فبذلوا كل ما فى استطاعتهم من تضحية واقدام

وقتل من المصريين خلال هذه الفظائع نحو ألفين ، ولم تزد خسائر الانجليز على خمسة من القتلى وتسعة عشر جريحا ٠٠!

وقد استيقن العرابيون يوم ١٢ يوليه أن الانجليز لابد محتلون الاسكندرية بعد أن دكوا حصونها ، فاستقر عزمهم على الانسحاب من المدينة ليستعدوا للمقاومة فى الداخل ٠ وكان الأحكم أن يقاوموا نزول الجنود الانجليزية الى البر بأن يوزعوا جزءا من قواتهم للمرابطة علي الشواطىء ومنع رسو القوارب المقلة للجنود الانجليزية ٠٠ فانهم بذلك يعطلون نزولها مدة طويلة ، وبخاصة لان الاسطول الانجليزى لم يكن قد تلقى المدد من جنود البر ٠ وكانت قوته مقصورة الى ذلك الحين على جنود البحارة ولم يكن عددهم يزيد عن ٥٧٠٠ مقاتل ، وهؤلاء لم يكن فى استطاعتهم أن يتغلبوا على حامية الاسكندرية

حريق الاسكندرية

وكان فى مقدور الحامية أن تصدهم عن النزول الى البر وتدافعهم لو حاولوا النزول ٠٠ ولكن العرابيين لم يفعلوا شيئا من ذلك لانهم لم تكن لديهم قيادة صالحة تدبر الخطط المحكمة للقتال ، فآثروا الانسحاب من الاسكندرية ،ورأوا أن يتذرعوا بكل وسيلة لتعطيل احتلال الانجليز للمدينة واستقرارهم فيها ، فأمر سليمان سامي داود قائد الآلاى السادس جنوده باضرام النار فى المدينة لكى يحول الحريق دون نزول الانجليز بها واتخاذها قاعدة حربية لزحفهم ، فشبت الحرائق الهائلة يوم الاربعاء ١٢ يوليه سنة ١٨٨٢ وبدأ اضرام النار فى نحو الساعة الثانية بعد الظهر ، وأخذ يمتد حتى صارت الاسكندرية شعلة من النار مساء ذلك اليوم ، واستمرت النار تضطرم فيها الى اليوم التالى

كان هـذا الحريق من الوجهة العسكرية عملا عقيما لانه لم يعطل نزول الجنـود الانجليزية الى البر فقد نزلوا فى صبيحة اليوم التالى ، واشترك فى الحريق بعض الاوربيين وبخاصة من الأروام والمالطيين الذين بقوا فى المدينة بعد هجرة معظمهم،وكانوا يقصدون من ذلك المطالبة بالتعويضات بعد انتهاء الحرب ، كما اشتركوا أيضا فى النهب

ويقول جون نينيه عميد الجالية السويسرية وكان شاهد عيان لهذه الحوادث ان الحرائق الأولى شبت فى الاحيـاء الاهلية من قنابل الاسطول الانجليزى يوم الضرب ٠ وكان الحريق الذى أمر به سليمان سامى داود على غير رأى عرابى والوزراء،فانفرد باحداثه سليمان دواد قائد الألاى السادس الذى كان مشهورا بالتهور والحمق،وكان يعتبر نفسه عرابى آخر بالاسـكندرية ، وقد صمم على ألا ينسحب الجيش من الاسكندرية الا بعد أن يجعلها خرابا٠وهذا يدلك على تشعب آراء العرابيين وعدم وجود وحدة فى قيادتهم ، لأن عملا خطيرا كحريق الاسكندرية ما كان يجب أن يحدث الا اذا صدرت به الاوامر مجمعة من قيادة الجيش ٠ ولكن الواقع أن عرابى لم يكن له دخل فيه ولما وقع لم يستطع أن يمنعه

واستقر رأى عرابى وصحبه على الانسحاب من الاسكندرية ثانى يوم الضرب ، فأخـذ الجيش يخليها يوم الاربعاء ١٢ يوليه ٠ وفى مسـاء ذلك اليوم غادرها عرابى ووصل الى « حجر النواتية » على ترعة المحمودية بعد الغروب ٠ وقضى الليلة هناك ٠ وفى الصباح ركب رفاصا سار به فى الترعة حتى وصل به الى «عزبة خورشيد» ومنها الى «كنج عثمان» بالقرب من كفر الدوار ٠ وهناك أمر بانشاء الاستحكامات وهى التى اتخذها الجيش المصرى معسـكرا له ، وعرفت بمعسكر كفر الدوار ٠ واتخذ عرابى عزبة « كنج عثمان » مقرا لقيـادة الجيش ٠٠ وفى صباح يوم ١٣ يوليه تحقق

الأميرال سيمور انسحاب العرآبيين وأنه لم يبق منهم أحد فى المدينة فأنزل كتيبة من جنوده البحارة ، واحتلوا سراى رأس التين وشبه جزيرة رأس التين

أوربا وضرب الاسكندرية

انسحبت فرنسا من الميدان ، وأمرت أميرال أسطولها بمغادرة الاسكندرية قبل الضرب .. فبارحها مساء ١٠ يوليه سنة ١٨٨٢ . ومعنى ذلك أن الحكومة الفرنسية تركت انجلترا تفعل ما تشاء وتعتدى ذلك الاعتداء الغشوم على المدينة فتدك حصونها وتهدم مبانيها وتحصد أرواح أهلها دون أن تبدى حراكا .. قابلت فرنسا هذا الاعتداء الوحشي بالجمود، ولو أرادت منعه لكان لها من مركزها الممتاز فى المسألة المصرية ما يحول دون وقوعه .. وكذلك فعلت دول أوربا العظمى فانها ظلت جامدة لا تحرك ساكنا أمام هذه المأساة .. ولو وقع مثل هذا الاعتداء على أمة أوربية كاليونان أو الجبل الأسود أو بلغاريا لاهتزت الحكومات الأوربية وتوعدت وأنذرت المعتدى بالضرب على يده ..

ولعلك تذكر موقفها حيال مصر ذاتها حين لبت نداء تركيا فى محاربة الثوار اليونانيين وما فعلته أوربا اذ ائتمرت بأسطولها فأحرقته غدرا وخيانة فى « نافارين » سنة ١٨٢٧ .. ولا تنس ما فعلته مع مصر فقد حرمتها ثمرة انتصاراتها على الترك فى عهد محمد على الكبير وائتمرت بها وأنقصت المزايا التى نالتها بحد السيف. أما فى سنة ١٨٨٢ فقد تركتها لبطش الانجليز دون أن تحرك ساكنا !

وليس من العسير علينا أن نفهم سبب هذا التباين فى المعاملة .. فأوربا لا تنظر الى مصر بالعين التى تنظر بها الى الأمم الغربية ، ولا تراها جديرة بالعطف الذى حبت به أمثال اليونان وبلغاريا . ومما يدلك على مشاركة أوربا

لانجلترا فى مسئولية حوادث سنة ١٨٨٢ أنه لم يكد الجيش الانجليزى ينتصر على العرابيين فى واقعة التل الكبير حتى بادر المسيو تيسو سفير فرنسا بلندن الى مقابلة اللورد جرانفيل وزير خارجية انجلترا وهنأه باسم الحكومة الفرنسية على هذا الانتصار . وكان جواب جرانفيل على تهنئته : « ان واقعة التل الكبير هى انتصار أوربى » ولو انهزم الجيش الانجليزى لكان ذلك كارثة على كل الدول التى تحسب حسابا للتعصب الاسلامى » !

وقد هنأ المسيو دكلرك رئيس وزارة فرنسا السفير البريطانى فى باريس بهذه الواقعة قائلا : « ان انتصار الانجليز على العرب فى مصر ينتج ثمرة طيبة لفرنسا فى تونس والجزائر ! »

وقوبل نبأ الضرب فى «مؤتمر الاستانة» بالفتور والجمود، ولم يكن المؤتمر قد انفض بعد .. ولو كانت الدول الاوربية حريصة على الدفاع عن حقوق مصر بل عن الحقوق عامة ، لكان لضرب الاسكندرية صدى عاجل فى المؤتمر يحفزه الى وضع حد لهذا الاعتداء . ولكنه على العكس قابله بالصمت والبرود ، ولم يبد أى اعتراض على انجلترا فى نقضها عهودها ، وخاصة عهودها فى ذلك المؤتمر بالذات .. لم يكن لهذا الاعتداء أى أثر فعلى فى نفوس المؤتمرين وهم سفراء الدول الاوربية الكبرى فى الاستانة ، وكل ما فعله مندوب روسيا أن نفض يده من المؤتمر وامتنع مؤقتا عن حضور جلساته ، وهو عمل سلبى لا يمنع الاعتداء ولا يحول دون استمراره

وفى ١٥ يوليه سنة ١٨٨٢ اجتمع المؤتمر لأول مرة عقب ضرب الاسكندرية ، وتحرك الى دعوة تركيا لارسال جيش عثمانى الى مصر تنفيذا لقراره الذى أصدره فى جلسته السابقة — ٦ يوليه — ولم يكن قد أبلغه اليها من قبل ، ورضى

السلطان ـ أخيرا أيضا ـ بالاشتراك فى المؤتمر للمباحثة فى اقرار الوسائل الكفيلة باعادة الأمور الى نصابها .. بدأت اذن تركيا تشترك فى المؤتمر بعد أن أصبح لا عمل له ، وأرسلت وزارة الخارجية العثمانية فى ١٩ يوليه تبلغه أنها تقبل الاشتراك فيه ، وعينت مندوبيها به وهما سعيد باشا وزير الخارجية وعاصم باشا وزير الاوقاف ، فحضرا جلسة ٢٤ يوليه ـ الجلسة العاشرة ـ وتولى سعيد باشا رياسة المؤتمر بصفته وزير خارجية الدولة التى انعقد المؤتمر فى عاصمتها ، وصرح بأن الحكومة العثمانية قبلت مبدأ ارسال جنود الى مصر ، وبجلسة ٧ أغسطس أعلن أن حكومته قبلت شروط التدخل التى قررها المؤتمر فى ١٥ يوليه ...

وكانت هذه الأقوال مهزلة أخرى ، اذ لم تكن تركيا قد أعدت جيشا ما .. وأبطأت فى انفاذ عزمها حتى انتهت الحرب بهزيمة العرابيين ودخول الانجليز القاهرة قبل أن يتحرك الجيش العثمانى الى مصر !

قناة السويس

وكل ما عنى به المؤتمر أنه بحث بجلسته التاسعة يوم ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ فى حماية قناة السويس من أن تصيبها الحرب بسوء . وذلك بناء على ما تظاهرت به انجلترا من الخوف على القناة أن يسدها العرابيون بعد ضرب الاسكندرية ، وكان هذا الخوف مع الأسف لا محل له ، لأن عرابى لم يفكر جديا فى سد القناة ، الا بعد احتلال الانجليز الاسماعيلية أى فى ٢٠ أغسطس ، ولكن انجلترا بادرت بمبادلة الدول تخوفها من هذه الناحية لكى تنتحل لنفسها حق حماية القناة اذا لم تتفق الدول على حمايتها دوليا ...

وقد عرض سفيرا انجلترا وفرنسا فى المؤتمر بجلسة ١٩ يوليه رأى حكومتيهما فى أن يكل المؤتمر الى من يختار من

الدول حماية القناة اذا أصابها اعتداء ، ولم يلق هذا الاقتراح قبولا من المؤتمر ، فاتفقت انجلترا وفرنسا على أن يصرح سفيراهما فى المؤتمر بأنهما مستعدتان عند الحاجة الى حماية القناة ، وقد صرح السفيران بذلك فى جلسة المؤتمر الحادية عشرة التى انعقدت يوم ٢٦ يوليه ، فلم يعترض المؤتمر ولم يبد احتجاجا

وأبلغ الباب العالى أعضاء المؤتمر فى ٢٤ يوليه ثم فى ٢٧ منه أن جنوده على أهبة السفر الى مصر وأنه مستعد للتدخل فيها ، ولكن بلاغه لم يقترن بأى عمل ، وعرضت وزارة المسيو دى فريسينيه على البرلمان الفرنسى فتح اعتماد لاعداد القوات الكفيلة بجعل القناة فى مأمن من كل اعتداء وحماية السفن المارة فيها ، ولكن البرلمان قرر فى ٢٩ يوليه رفض الاعتماد المطلوب .. مما أدى الى استقالة وزارة فريسينيه واضطرار الوزارة التى خلفتها - وزارة دكلرك - الى أن تنفض يدها من المسألة المصرية نزولا على قرار البرلمان .. فكان هذا القرار من فرنسا اعلانا بنفض يدها بل بافلاس سياستها فى المسألة المصرية ، والسبب الذى حدا بالبرلمان الفرنسى الى رفض الاعتماد هو الخوف من توزيع قوات فرنسا فى وقت كانت تخشى فيه على كيانها فى القارة الاوربية من تحفز ألمانيا ، فهو نفس السبب الذى حدا بالوزارة الفرنسية الى الاحجام عن مشاركة بريطانيا فى تدخلها الحربى حين عرضت عليها ذلك فى يوليه سنة ١٨٨٢ قبل ضرب الاسكندرية

وفى الوقت الذى أصدر البرلمان الفرنسى هذا القرار قرر البرلمان البريطانى فى ٢٧ يوليه الاعتماد المطلوب من الحكومة الانجليزية للحملة على مصر ، وذلك بأغلبية ٢٧٧ صوتا ضد ٢١ صوتا أى بأغلبية تشبه الاجماع ، وبلغ الاعتماد الذى قرره ٢ر٣٠٠ر٠٠٠ جنيه

يتضح مما تقدم أن المؤتمر لم يكن يعنيه رد الاعتداء عن مصر ، بل كل ما همه وشغل باله أمر قناة السويس ٠٠ وقد انتهى من مباحثاته العقيمة الى ترك الانجليز يتصرفون كما تهوى أطماعهم الاستعمارية

اجتمع المؤتمر للمرة الاخيرة يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٨٢ ، وكانت الجنود البريطانية قد زحفت فى داخل البلاد وظهرت بوادر انتصارها على العرابيين ٠٠ فلم يجد المؤتمر عملا يشغله سوى تأجيل انعقاده الى أجل غير مسمى ، ولم يجتمع بعدها اذ كانت قوات الانجليز قد تغلبت على العرابيين ، وبذلك انطوت صفحة المؤتمر بدون أن يعمل عملا ما فى صون حقوق مصر ، ورد عادية الانجليز عنها ، وأخفق اخفاقا جعله مضرب الأمثال فى المهازل السياسية الخالية من روح النزاهة والصراحة والاخلاص



الحرب

بين عرابي والانجليز

بين الخديو وعرابى

تربص الانجليز فى الاسكندرية حتى يعدوا العدة للزحف ، ويتلقوا الامداد التى جاءتهم بعد ذلك من انجلترا . . وأخذوا فى الأيام الأولى ينظمون الاحتلال مستعينين بالخديو ونفوذه الشرعى . وأذاع الأميرال سيمور يوم ١٧ يوليه منشورا بالمحافظة على الأمن علق فى شوارع المدينة ، وهو أول منشور أعلن الانجليز فيه أنهم مكلفون من جانب الخديو بالمحافظة على النظام

واستكتب الأميرال سيمور راغب باشا رئيس مجلس الوزراء خطابا بتاريخ ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ يبلغ فيه الأميرال مخالفة عرابى لأوامر الخديو فيما يقوم به من وسائل الدفاع ، وعزم الخديو على عزله من منصبه .. وهذا الخطاب يبدو غريبا من راغب باشا الذى كان حتى ضرب الاسكندرية يعضد العرابيين ويؤيدهم ، ويقاوم التدخل البريطانى . والخطاب يناقض أيضا قرار مجلس الوزراء الذى اشترك راغب باشا فى وضعه بوصفه رئيسا للنظار والذى رد فيه على انذار الأميرال سيمور قبيل ضرب الاسكندرية . وأرسل الخديو من سراى رأس التين يوم ١٧ يوليه تلغرافا الى عرابى بكفر الدوار يأمره فيه بالكف عن الاستعدادات الحربية ويحمله تبعة ضرب الاسكندرية . ويدافع فيه عن حسن مقاصد الانجليز ويأمره بالحضور الى سراى رأس التين ليتلقى منه تعليماته

فأجاب عرابى على هذه الرسالة ببرقية شرح فيها وجهة نظره ، وأبان الأسباب التى توجب استمرار الدفاع ، وهى

طلبات الأميرال سيمور ، وقرار مجلس الوزراء برياسة الخديو برفضها ولو أدى ذلك الى القتال . واعتذر عن الحضور الى الاسكندرية لأن الانجليز يحتلونها ، وطلب الى الخديو أن يوفد اليه الوزراء أو رئيسهم فى مركز الجيش بكفر الدوار للمداولة فى الموقف . ولما تحقق عرابى انحياز الخديو الى جانب الانجليز خشي أن يصدر من الأوامر ما يشل حركة الاستعدادات الحربية ، فأرسل عرابى الى جميع المديريات والمحافظات تلغرافات شديدة اللهجة اتهم فيها الخديو بممالأة الانجليز وحذر الجميع من اتباع أوامره التى تخالف حالة الحرب

وأرسل الى يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية بالقاهرة كتابا بتاريخ ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ ، دعا الى وجوب عقد جمعية عمومية من الذوات والأعيان والعلماء يعرض عليها الموقف ويطلب منها اصدار قرار فى شأن الخديو وفيما يجب عمله لصالح الأمة «وصلاحية مثل هذا الوالى عليها» ، وختم كتابه بالمثابرة على التجهيزات الحربية وأنه تحرر منه بذلك الى جميع حكام البلاد ..

وأذاع منشورا أرسله الى المديريات والدواوين كافة باعلان انضمام الخديو الى جانب الانجليز وخلع طاعته

كان يعقوب سامى باشا من الموالين لعرابى ، كما كان فى خاصة نفسه يرى بحق وجوب الدفاع عن البلاد ازاء عدوان الانجليز .. فلما جاء تلغراف عرابى اجتمع يوم وروده مع خاصته المناصرين له فى وزارة الحربية «قصر النيل» واستقر رأيهم على عقد مجلس بديوان وزارة الداخلية فى مساء ذلك اليوم مؤلف من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط والموظفين

فاجتمع المجلس المذكور وقرر دعوة العلماء والأعيان والرؤساء الروحانيين والوجهاء وكبار موظفى الحكومة بديوان الداخلية ليلا فى هيئة جمعية عمومية لاتخاذ ما يلزم

من القرارات بالنيابة عن الأمة . وأخذ هذا المجلس يتولى سلطة الحكم .. وظل كذلك خلال الحرب ، وقد سمى فى الوقائع المصرية « المجلس العرفى » وسنجرى على هذه التسمية الأخيرة فى سياق الحديث

وفى مساء يوم الاثنين ١٧ يوليه سنة ١٨٨٢ اجتمع المدعوون الى حضور الجمعية العمومية بوزارة الداخلية ، وبلغ عددهم أربعمائة عضو ، منهم الأمراء الموجودون بالعاصمة وشيخ الاسلام وقاضى قضاة مصر ومفتى الديار المصرية وكبار العلماء والرؤساء الروحانيون والنواب ووكلاء الدواوين والمديرون والقضاة والتجار والأعيان

وعرضت عليهم الرسائل التى تبودلت بين الخديو وعرابى ، وبين هذا الاخير ووكيل الحربية ، وتداولوا فى الموقف .. فأجمعوا على وجوب مداومة الاستعدادات الحربية مادامت بوارج الانجليز فى السواحل وجنودهم فى الاسكندرية ، وعلى استدعاء الوزراء من الاسكندرية للاستفهام منهم عن حقيقة الأمر ، وأصدروا قرارا بهذا المعنى ..

وعلى أثر اطلاع الخديو على قرار الجمعية العمومية أصدر أمرا فى ٢٠ يوليه سنة ١٨٨٢ بعزل عرابى من وزارة الحربية ، وعين عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية بدلا عنه . وبنى أمر العزل على مخالفة عرابى لأوامره ومداومته على الاستعدادات الحربية ، وقد صدر هذا الأمر بناء على قرار من مجلس الوزراء ، وكان بعضهم مخالفا لفكرة العزل ، ولكن الخديو أصر عليها ، وأبلغه هذا الأمر فى كتاب بعث به اليه

وأذاع الخديو فى الوقت نفسه منشورا علق فى شوارع الاسكندرية فصل فيه الأسباب التى دعت الى عزل عرابى من منصبه ، وأخذ فيه على عرابى اخلاء الاسكندرية دون مقاومة ، ثم دافع عن نيات الانجليز واحتلالهم الاسكندرية

وسوغه بأن الغرض منه المحافظة على الأمن !

وكان عرابى مرابطا فى معسكره بكفر الدوار حين أصدر الخديو أمره بعزله من منصبه ، فلم يكترث له واستمر يعد عدة الدفاع ليصد تقدم الانجليز ، وأرسل الى يعقوب سامى باشا يدعوه الى عقد الجمعية العمومية ثانيــة للنظر فى أمر العزل .. فقرر المجلس العرفى دعوة الجمعية العمومية الى الانعقاد ، واجتمعت بوزارة الداخلية يوم السبت ٢٣ يوليه سنة ١٨٨٢ ، وهذه هى المرة الثانية لاجتماعها ، ولم تجتمع بعــد ذلك ، وكان الحاضرون فى المرة الثانية أكثر عددا من المرة الأولى اذ حضرها نحو خمسمائة من الأعضاء ، منهم ثلاثة من الأمراء ، وشيخ الأزهر وقاضى قضاة مصر ومفتيها ونقيب الأشراف وبطريرك الأقباط الأرثوذكس ، وحاخام اليهود ، والنــواب والقضاة والمفتشون ومديرو المديريات والأعيان وكثير من العمد ومشايخ البلاد ، فلما اجتمعت الجمعية تليت عليها الأوامر الصادرة من الخديو ، والمنشورات التى أصدرها عرابى ، وتولى هذه التلاوة الشيخ محمــد عبــده (الاستاذ الامام) بناء على أمر حسين باشا الدرمللى وكيل الداخلية ، وألقى على باشا الروبى خطبة تناول فيها الخديو بالطعن والقدح ، وتليت فتوى شرعية من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ محمــد أبو العلا الخلفاوى بمروق الخديو من الدين لانحيــازه الى الجيش المحــارب للبــلاد . وتداول الأعضاء فى الموقف الحربى وفيمــا يجب عمله ، فاتفقت آراؤهم على عدم قبول عزل عرابى ، وبعد أن صدر هذا القرار قال يعقوب سامى باشا وكيــل وزارة الحربية : « حيث قرر هذا المجلس المحترم عدم عزل عرابى باشا من نظارة الجهــادية والبحرية ورأى لزوم بقــائه فى الوظيفة .. فأرجو من المجلس أن يرى رأيه فى أوامر الخديو التى تصدر الى من جنابه ، وكذلك ما يصدر من حضرات

نظاره المقيمين معه هل يلزمنى قبولها وتنفيذها أم لا ؟ »
فتداولت الجمعية العمومية فى هذه المسألة وأصدرت قرارها بوقف أوامر الخديو ونظاره وعدم تنفيذها

الحرب بين العرابيين والانجليز

عسكر عرابى بجيشه فى كفر الدوار وأقام بها الاستحكامات المنيعة ، وأخذت طلائع العرابيين تناوش الانجليز فى ضواحى الاسكندرية .. ولم يكن الجيش الانجليزى قد أمن بعد على مركزه فى الثغر ، بل كان يتوقع أن يهاجمه العرابيون بعد أن يلموا شعثهم عقب الهزيمة الاولى ، فأخذ الانجليز يحصنون استحكامات المدينة ووضعوا الحراس على مداخلها

وكانت طلائع المصريين ترابط فى الرمل وتستعد لمناوشة الأعداء .. واستمر الانجليز يلزمون خطة الدفاع فى الاسكندرية وينتظرون وصول الامداد . وفى ١٧ يوليه جاءهم مدد من ٢٧٠٠ مقاتل ، وجاء الاسكندرية الجنرال اليزون Alison فتولى قيادة الجيش البريطانى فى المدينة حتى يحضر القائد العام الجنرال ولسلى . وكان عدد الجيش البريطانى فى الاسكندرية ٣٦٨٦ مقاتلا - عدا جنود الأسطول - ثم جاءهم مدد آخر عدده ١١٠٨ من مالطة وجبل طارق .. فاحتل الانجليز الرمل فى ٢٣ يوليه ، ثم أخذ المدد الأكبر يتحرك من ميناء ولوتش Woolwich بانجلترا فى أواخر يوليه قاصدا مصر . وأصدرت الملكة فيكتوريا أمرا فى ٢١ يوليه بتعيين الجنرال السير جارنت ولسلى Sir Garnet Wolsley قائدا عاما لجيش الحملة على مصر ولم يصل الى الاسكندرية الا فى منتصف أغسطس

وكان المظنون لدى عرابى وصحبه أن لا يتخذ الانجليز قناة السويس ميدانا للزحف أو للحركات الحربية ، احتراما لحيدة القناة .. ولكن العارفين بالحقائق كانوا على يقين من أنهم

لا يرعون للقناة حرمة ، كما لم يرعوا حرمة المعاهدات فى ضربهم الاسكندرية ، فكانت خطتهم أن يهاجموا مصر من ناحية الاسماعيلية متجهين من طريق الزقازيق الى القاهرة

خطة العرابيين فى القتال

عين عرابى محمود باشا فهمى رئيسا لأركان حرب الجيش المصرى عقب ضرب الاسكندرية ، فوضع خطة سديدة للدفاع عن البلاد لو اتبعت باحكام لصدت تقدم الانجليز وأنقذت مصر من غارتهم .. وكان محمود فهمى من أكفأ المهندسين الحربيين ، وخلاصة خطته أنه عين خمسة مواقع رئيسية للدفاع : الاول فى كفر الدوار ، والثانى فى رشيد ، والثالث بين رشيد وبحيرة البرلس ، والرابع فى دمياط ، والخامس فى الصالحية والتل الكبير لصد الهجوم من ناحية قناة السويس . وقد أشار فى بداية الحرب بسد ترعة الاسماعيلية لمنع وصول المياه العذبة الى بور سعيد والاسماعيلية والسويس وسد قناة السويس ذاتها لمنع الانجليز من اتخاذها قاعدة عسكرية

ولو سدت قناة السويس فى بداية القتال لامتنع الاتصال بين القوات الانجليزية الآتية من البحر الابيض المتوسط والقوات الآتية من الهند . واستحال عليها الوصول الى الاسماعيلية من طريق القناة ، وفى هذه الحالة يضطر الجنرال ولسلى الى المغامرة بجيشه فى الصحراء الشرقية حيث لا ماء ولا كلأ ، أو يهاجم مصر من طريق الدلتا فتعوق الترع والجسور زحفه وخاصة فى أيام الفيضان (أغسطس — سبتمبر) ، ولكن عرابى لم يستمع لنصيحة محمود باشا فهمى وخشى عواقبها . وظن أن الانجليز يحترمون حياد القناة فلا يتخذونها قاعدة للزحف ، فكان هذا الخطأ أكبر عامل فى اخفاق خطة الدفاع التى وضعها محمود فهمى .

واكتفى عرابى باقامة معسكر فى التل الكبير على بعد نحو خمسين كيلومترا من الاسماعيلية و ١١٠ كيلومترات من القاهرة حشد فيه جانبا من الجيش ، ولكنه وزع معظم قواته فى كفر الدوار وعلى سواحل البحر الابيض المتوسط .. فكان الجنود السودانيون وهم من خيرة الجنود مرابطين فى دمياط بقيادة عبد العال حلمى . ورابط فى رشيد فيلق كبير ، واستقر معظم الجيش بقيادة طلبة عصمت فى كفر الدوار . ومع أن الانجليز استعجلوا الحركات العدائية فى قناة السويس وكانت هذه الحركات نذيرا كافيا لعرابى بما اعتزموه من خرق حياد القناة ، فان عرابى جبن عن العمل بنصيحة محمود فهمى فى سدها

ولقد بكر الانجليز فى خرق حرمة قناة السويس واتخاذها ميدانا للحركات العدائية .. وتدل الظروف والملابسات على انهم كانوا مصرين على اختلاق الذرائع لاحتلالها ، كما اختلقوها لضرب الاسكندرية . فقد تعللوا بأن ثمة ترميمات تجرى فى طابية « الجميل » على مدخل بحيرة المنزلة غربى بورسعيد . وأصدرت الحكومة البريطانية فى ٢٢ يوليه سنة ١٨٨٢ تعليماتها الى الأميرال سيمور باحتلال بور سعيد والاسماعيلية . وفى ٢٦ يوليه سنة ١٨٨٢ اقتحمت السفينة الحربية الانجليزية « أوريون » بقيادة الكبتن « فتزورى » القناة عند بورسعيد ، وألقت مراسيها يوم ٢٧ منه فى بحيرة التمساح على بعد ثمانمائة متر من الاسماعيلية . ولم يكد يمضى على دخولها القناة يومان حتى وصل الأميرال « هويت » الى السويس والأميرال « هوبكنس » الى بور سعيد ، واستقر كل منهما فى موقفه ينتظر التعليمات الخاصة باحتلال القناة ..

وهذه الحركات الحربية المبكرة فى ناحية القناة كانت تنم عما اعتزمه الانجليز فى بداية القتال من الزحف من طريق

قناة السويس .. ولكن عرابى مع ذلك ظل غافلا عن هذه النية !

واحتل الانجليز مدينة السويس فى ٢ أغسطس ، وظل عرابي برغم احتلالها يعتقد حرمة قناة السويس بحجة أن القناة انما تبتدىء من « بور توفيق » ضاحية السويس ـ والتى لا تبعد عنها الا بثلاثة كيلومترات ـ وكان احتلال السويس نذيرا آخر باتخاذ الانجليز لها قاعدة للزحف على العاصمة ، وقد تحرك المدد من الهند بعد سبعة أيام من احتلالها

وقائع الميدان الغربى

نقصد بالميدان الغربى ما بين الاسكندرية وكفر الدوار . تمييزا له عن الميدان الشرقى من الاسماعيلية الى التل الكبير

لقد وجه عرابى كل عنايته الى تحصين مواقعه فى الميدان الغربى ، واهمل الميدان الشرقى اهمالا تاما ، مما كان السبب الأكبر فى الهزيمة .. فأنشأ الاستحكامات المنيعة فى مواقع الدفاع مما يلي الرمل جنويا الى كفر الدوار بين بحيرة أبو قير وملاحة مريوط . ووضع محمود باشا فهمى تصميم هذه المواقع بمعاونة الأميرالاى محمد بك شكرى وهو من أكفأ ضباط أركان حرب الجيش المصرى .. فكانت مؤلفة من ثلاثة خطوط للدفاع يبعد كل واحد عما يليه بأربعة أو خمسة كيلومترات ، وأمام كل خط خندق عمقه خمس عشرة قدما ، وأقيمت المعاقل على جميع المرتفعات والآكام ، وركبت فيها المدافع وعددها خمسون مدفعا

وقعة الرمل

تحرك الانجليز يوم السبت ٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ يريدون التقدم من جهة « الرمل » بأورطتين من المشاة

وأورطتين من الفرســان .. فلما صــاروا على بعد ألف وخمسمائة متر من موقع المصريين التقى بهم البكباشى احمد أفندى البيار والبكباشى مصطفى أفندى حسان ومعهمــا أورطتان من المشاة وأورطتان من الفرسان ، وصدوهم عن التقدم .. ثم جاء خورشيد باشا طاهر قومندان خط الدفاع فى أبو قير ومعه ثلاثة بلوكات من الفرسان ، فهجم المصريون على الانجليز هجوما شديدا واضطروهم الى التقهقر اذ ولوا الأدبار منهزمين بعد أن دام القتال ثلاث ساعات ونصفا ..

ويقول الكولونل « سبتان » عن هذه المعركة أن الجنرال «أليزون» كان يقود الانجليز فيها وأن عددهم كان ألفى مقاتل وأن الجنرال « أليزون » كان لا يفتأ يناوش العرابيين حول الاسكندرية كل يوم لكى يوهمهم أن الجيش البريطانى قد اتخذ الاسكندرية قاعدة للزحف ، فى حين أن خطته الحقيقية هى الزحف من ناحية الاسماعيلية . وبذلك يشــغلهم عن تحصين التل الكبير ومواقع الدفاع فى الشرق

وقعة عزبة خورشيد

وهاجم الانجليز مقدمة الجيش المصرى فى كفر الدوار يوم ٧ أغسطس اذ تقدم جناحهم الأيسر من الرمل على جسر ترعة المحمودية وتقدم الجناح الأيمن بطريق السكة الحديد من القبارى .. وجاء القلب من طــريق كوبرى المحمودية ، فلما التقوا بالمصريين صمد هؤلاء لقتالهم ودافعوهم دفاعا مجيدا ، اذ انبرى للميسرة البكباشى محروس افندى يقود أورطته وأبلى فى قتالهم بلاء حسنا ، وجرح أثناء المعركة . وصمد للقلب والميسرة البكباشى محمد افندى فودة ومعه أورطة أخرى من الجنود ، واشتد القتال فى هذه الناحية واستمرت المعركة نحو أربع ساعات انتهت بتقهقر الانجليز منهزمين ، وسار المصريون على أثرهم حتى حجبهم الظلام عنهم .. وقتل من

المصريين فى هـذه الوقعة تسعة من الجنود وصف الضباط وضابط واحد وجرح منهم اثنا عشر جنديا وضـابطان ٠٠ أما خسائر الانجليز فكانت أكثر عددا من خسائر المصريين

الاستعداد للمعارك الكبرى

وبعد وقوع معركتى ٥ و ٧ أغسطس سنة ١٨٨٢ المتقدم ذكرهما ، استمر ورود الامدآد الى الانجليز فى الاسكندرية آتية من مالطة وقبرص وجبل طارق وانجلترا ٠٠ فاجتمع حوالى ٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ فى المدينة وضواحيها نحو أربعة عشر ألفا من المشاة وثلاث فصائل من الفرسان و٩٤٠ جنديا من المدفعية و ٥٤٠ من المهندسين وكثير من القائمين على خدمة الجسور والتلغراف والسـكك الحديدية ٠ وظل المدد يرد على الاسكندرية والسويس حتى بلغ عدد الجيش البريطانى قبيل معركة التل الكبير ٦٠٠ر٥٠ مقاتل

أما الجيش المصرى النظامى فلم يكن يزيد على ٠٠٠ر١٩ مقـاتل موزعين بين مختلف المواقع ، منهم ٨٠٠٠ فى كفر الدوار ، و ٣٥٠٠ بأبو قير ، و ٢٥٠٠ فى رشيد ، و ٥٠٠٠ فى دمياط ، وقد انضم الى هـذا الجيش عدد من المتطوعين والعربان ، ولكن الوقت لم يكن يسمح بتدريبهم على الحركات النظامية ، فلم يكن منهم فائدة ، ويقول جون نينيه الذى شهد هـذه الحوادث : « ان وجود جموع العربان من مشاة وركبان فى كفر الدوار لم يكن له فائدة ما للجيش بل كان ضررهم أكثر من نفعهم لعـدم اعتيادهم حركات الجيوش النظامية »٠ وقال المستر بلنت : « ان الجيش المصرى بأكمله لم يكن يزيد على ١٣٠٠٠ جنـدى نظامى منهم ٨٠٠٠ فى كفر الدوار ، أما المجندون الجدد فلم يكونوا بعد أكفاء للقتال»

ويقول جون نينيه أيضا : « ان الصحف الانجليزية كانت تبالغ فى عدد الجيش المصرى بكفر الدوار وتبلغه الى ٠٠٠ر٤٧

مقاتل على حين أنه دون هذا العدد بكثير »

فالاحصاء الصحيح هو ما ذكره جون نينيه ، وفى الحق أن الوقت لم يكن يتسع لزيادة عدد الجيش الى أكثر من هذا العدد ، فقد كان سنة ١٨٨١ لا يزيد على ٣٠٠ر١١ جندى (عدا الجنود المرابطة فى السودان) ثم زيد نظريا فى سنة ١٨٨٢ الى ٧٠٠ر١٧ ، لكن عدده الحقيقى كان أقل من ذلك كثيرا

ويقول عرابى فى مذكراته : « ان الجيش المصرى عندابتداء القتال كان مؤلفا من ثمانية ألايات من المشاة ، وثلاثة ألايات من الفرسان ، وألايين من الطوبجية البرية ، وثلاثة ألايات من طوبجية السواحل ـ المنوط بهم حماية الثغور ـ وفرقة من رجال الهندسة ، وأن مجموع ذلك فى حالة استكمال الفرق والألايات ٣٦٠٠٠ » وهو احصاء نظرى لا يمكن التعويل عليه لأن المعروف أن الفرق والألايات لم تستكمل قط عددها ، بل كان بعضها لا يبلغ نصف عدده الرسمى

والظاهر أن عرابى كان يميل بعد هزيمة التل الكبير وفى خلال محاكمته الى المبالغة فى عدد الجيش المصرى لكى يتخذ الدفاع عنه من ذلك دليلا على رغبته فى حقن الدماء مع وجود العدد الوافر لديه من الجند لاستمرار القتال . وسجل عرابى فى مذكراته انه كان بالقاهرة قبل ابتداء القتال مصنع للأسلحة ، ومعمل للبارود ، وآخر فى بولاق لصب المدافع ، ودار صناعة عظيمة لعمل البنادق والمدافع أنشئت فى طرة .. ولكنها لم تكمل قبل نشوب الحرب

يتضح لك من هذا البيان أن عدد الجيش الانجليزى كان يزيد على ضعف عدد الجيش المصرى .. وهذا وحده كان نذيرا بسوء العاقبة . وقد جعل الفريق راشد باشا حسنى قائدا لخطوط الدفاع فى الشرق ، وخورشيد باشا طاهر على

رشيد وأبو قير،وعلى باشا الروبى على مريوط ، وعبد العال باشا حلمى على دمياط ، ومحمود سامى باشا البارودى قائدا لمواقع الصالحية ، وطلبة باشا عصمت قائدا لفرقة كفر الدوار تحت امرة عرابى

واعتزم عرابى زيادة عدد الجيش ، فرأى أن أقرب الوسائل الى هذه الزيادة تجنيد الخفراء فى سائر المديريات لمرانهم على الحركات العسكرية من قبل ، فأصدر منشورا فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٨٢ بتجنيد ٢٥ ألفا يؤخذون من الخفراء ويحل محلهم غيرهم فى المحافظة على الأمن ، ووزع هذا العدد على المديريات كافة ، وأرسل الى المديرين يستحثهم على سرعة تجنيد هذا العدد ، وبين حاجة الدفاع الى ذلك

ولا شك فى أنه لو كان لدى مصر الوقت الكافى لجندت هذا العدد وأكثر منه .. ولكن الوقت لم يكن يتسع لتجنيد الخمسة والعشرين ألفا ولا غيرهم ، ويقول نينيه : « انه كان يمكن لعرابى بعد ثمانية أشهر أو عشرة حشد خمسين ألف مقاتل أو ستين ألفا ، فقد كان يشرف على حركة التجنيد يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية وكان كفؤا فى الادارة ، ولكن الوقت لم يتسع لهذا العمل »

ولما شبت الحرب لم يكن فى خزانة الحكومة مال ، لأن السير كلفن المراقب المالى الانجليزى أخذ الأموال الموجودة فى خزانة المالية وأنزلها بالاسطول الانجليزى ، قبل اعلان الحرب بأيام . وكذلك الأموال الموجودة بصندوق الدين حملها أعضاء القومسيون الى السفن الحربية بالاسكندرية ، فأرسل عرابى الى المديرين يدعوهم الى جمع الاموال والاعانات من مديرياتهم للجيش،وحرر من المجلس العرفى للمديريات بتحصيل الاموال من الاهالى بنسبة عشرة قروش عن كل

فدان على أن تحسب الاموال لمن يدفعونها من ضرائب الاطيان التى تستحق عليهم فى المستقبل

وتطوع الكثيرون فى الجيش جنـــودا مقاتلين يجودون بأرواحهم فى ســـبيل الدفاع عن الوطن ٠ وبدأت حركة التطوع فى القاهرة والاقاليم عقب ضرب الاسكندرية

والحق أن الأهـــلين قد تطوعوا لامـــداد الجيش بكل ما يستطيعون من نفس ومال وغلال وعتاد ومؤونة وميرة وخيول وماشـــية ، وجادوا بكل ما فى مقدورهم معتقدين بحق أن هذا واجب تفرضه عليهم الوطنية والدين

قلنا ان الحكومة البريطانية عهدت بقيادة جيش الحملة على مصر الى الجنرال الســـير « جارنت ولسلى » أحـــد القواد الارلنديين فى الجيش البريطانى ٠٠ فوصل الى الاسكندرية يوم ١٥ أغسطس سنة ١٨٨٢

لم يكن الجنرال ولسلى من القواد الذين اشتهروا بالكفاية العالية فى القيـــادة ، ولا ممن امتازوا فى معارك ســـابقة بالنبوغ فى الفنون الحربية ٠٠ بل كل ما عـــرف عنه أنه اشـــترك من قبل فى حـــرب القرم وفى بعض الحملات الاستعمارية الانجليزية٠وكان لم يزل برتبة قائم مقام جنرال حين تولى قيادة الحملة على مصر ســـنة ١٨٨٢ ، فلما انتهت بهزيمة العرابيين فى التل الكبير واحتلال العاصمة انهالت عليه ألقاب الشرف والتكريم ، فنال لقب لورد « فيكونت » ولسلى أوف كيرو « القاهرة » ورتبة جنرال وغير ذلك من دلائل التقدير ، على أنه تولى فيما بعد ـ ســـنة ١٨٨٤ ـ قيادة الحملة على قوات المهدى فى دنقلة ، فانتهت باخفاقها ومقتل غردون باشا ، وتولى سنة ١٩٠٣ قيـــادة الجيش الانجليزى فى حرب البوير بالترنســـفال ، فباء بالهزيمة والخسران ٠٠ وعدته حكومته مسئولا عن النكبة التى حلت

بالجيش الانجليزى ، فنحته عن قيادته وعينت بدله الجنرال اللورد روبرتس

من هـــذا البيان يتضح لك أن قيادة الجيش الانجليزى وذات الجيش الانجليزى الذى هاجم مصر ســـنة ١٨٨٢ لم يكونا كافيين للظفر بهـا واحتلالها ، لولا الانقســـام الذى أضعف قوة الدفاع عنهـــا ٠٠ فانسل الانجليز فى أرض معبدة ، ولم يلقوا المقاومة التى لقيها الجنرال «فريزر» حين نزل الاسكندرية سنة ١٨٠٧ على رأس جيش بريطانى أراد احتلال مصر فباء بالخيبة والخسران ٠٠

ولم يكد يستقر بالجنرال ولسلي المقام فى الاســـكندرية حتى أذاع الاعلان الآتى فى المدينة :

« بأمرالحضرة الخديوية ــ اعلان للمصريين ــ يعلن الجنرال قائد الجيوش الانجليزية بأن مقاصد الدولة البريطانية فى ارسالها تجريدة عسكرية الى القطر المصرى ليست الا لتأييد سلطة الحضرة الخـــديوية ، وعساكرنا يحاربون فقط حاملي السلاح ضد سموه ٠٠ فعموم الاهالى الذين فى سلم وسكينة تصير معاملتهم بكل تودد وانسانية ولا يحصـــل لهم أدنى ضرر بل يحترم دينهم وجوامعهم وعائلاتهم ، والاشياء التى تلزم الجيش يصير دفع ثمنها ، وعليه ندعو الاهالى لتقـــديم ذلك ، وان الجنرال قائد الجيش يسر جدا من زيارة مشايخ البلاد وخلافهم الذين يودون المساعدة لردع العصيان الذى هو ضد الحضرة الخديوية الحاكم والوالى الشرعى على القطر المصرى المعين من لدن الذات الشاهانية »

تجدد القتال

بدأت الحركات الحربيـــة بين الاسكندرية وكفر الدوار عقب احتلال الاسكندرية كما تقدم بيانه ، ثم تجددت عقب حضور الجنرال ولسلى ٠٠ ففى يوم السبت ١٩ أغسطس

سنة ١٨٨٢ تحركت قوة كبيرة من الانجليز جاء جانب منهم بالقطارات المسلحة من جهة القبارى وجانب آخر من جهة الرمل ومحطة السيوف وحجر النـــواتية ٠ فلما وصلت القطارات الى مقدمة الجيش المصرى أطلق اليوزباشى أحمد افندى فضلى مدفعا فكان ذلك ايذانا ببدء القتال

ودارت معركة شديدة بينهم وبين المصريين ، فصـــدهم المصريون عن التقدم بعد أن كبـــدوهم خسائر جمة ٠ ودام القتال ثلاث ســـاعات حتى غروب الشمس ٠ وكان يتولى قيادة الجيش فى هذه المعركة طلبة باشا عصمت قومنـــدان فرقة كفر الدوار ومعه رضا باشاومصطفى بك عبد الرحيم وعيد بك محمد وأحمد بك عبد الغفار والقائمقام أحمد بك عفت والقائمقام ســليمان سامى داود وبدوى بك حكمدار المدفعية ، وانتهت المعركة بارتداد الانجليز الى الاسكندرية

وفى أيام ٢٠ و ٢١ و ٢٢ أغسطس هاجم الانجليزمواقع الجيش المصرى فى كفر الدوار ، فدافع عنها المصريون خير دفاع ، وانجلت هذه المعارك عن ارتداد الجيش الانجليزى

وتعتبر معارك الميدان الغربى فى جملتها فوزا للعرابيين، لان الانجليز ارتدوا عن خطوط الدفاع فى كفر الدوار

فى الميدان الشرقى

تقدم القول بأن عرابى أهمل الدفاع عن البلاد من ناحية الشرق ، فلما جاء الجنرال ولسلى الاسكندرية كان أول عمل حربى له هو تدبير الزحف على العاصمة من ناحية قنـــاة السويس ٠٠ ولو أن عرابى بادر عنـــدما نشبت الحرب الى سد القناة لعجز الجنرال ولسلى عن الوصول بجيشـــه الى الاسماعيلية واتخاذها قاعدة للزحف ، ولكنه لم يفعل ٠٠ فكان احجـامه وبالا على مصر ٠ وقد لعب المسيو فرديناند



خريطة الميدان الشرقى
في الحرب العرابية سنة ١٨٨٢

دلسبس فى هذه المسألة دور الخدآع والتغرير لكى يفوت على العرابيين سد القناة

فقد عقد عرابى مجلسا عسكريا فى أواخر يوليه للنظر فى أمر القناة،فأجمع رأى المجلس على وجوب تعطيلها بحيث لا يستطيع الجيش الانجليزى اجتيازها والوصول الى الشاطىء الغربى منها ، وخاصة الاسماعيلية . فلما علم بذلك المسيو دلسبس أرسل الى عرابى أن يمتنع عن قطع القناة ، وأكد له كذبا فى تلغرافه « أن الانجليز يستحيل أن يدخلوا القناة .. يستحيل » ، فانخدع عرابى بهذا التلغراف رغم تحذير اخوانه اياه ونصحهم له بأن لا يصغى الى نصيحة دلسبس اذ ليس فى امكانه أن يمنع دخول الانجليز القناة أو يبر بوعده ، ولا هو صادق فى نصحه ، وانما كان غرضه صيانة القناة من التعطيل ، ولو ضحيت فى سبيل ذلك مصالح مصر وسلامتها

وقد استمر على خداعه حتى وصلت البوارج الانجليزية الى بور سعيد لاحتلال القناة ، فأرسل الى عرابى تلغرافا آخر يقول فيه : « لا تعمل عملا ما لسد قناتى .. فانى هنا ولا تخش شيئا من هذه الناحية اذ لا ينزل جندى انجليزى واحد الا يصحبه جندى فرنسى ، وأنا المسئول عن كل ذلك » ، وهنالك فقط شرع عرابى فى سد القناة ، ومع ذلك كان أمره فى هذا الصدد منطويا على التردد والابهام ، فقد قال فيه : « وما فعله الانجليز يبيح لنا سد الترعة الحلوة عن السويس واذا تهدد القنال زيادة على ذلك بأعمال حربية داخلية أبيح لنا ردمه وسده لتعدى الانجليز على حيادته فباتحادسعادتكم مع سعادة رئيس عموم أركان حرب يجرى ما فيه صالحنا »

ولم يكد يصل هذا الأمر المبهم الى راشد باشا حسنى قومندان خط الشرق حتى كان الانجليز قد اقتحموا القناة

٠٠ وكان الحزم والحكمة يقتضيان بأن يبادر عرابى الى سد القناة قبل أن تبدأ حركات الانجليز العدائية من ناحيـــة الشرق ، لان الانجليز الذين خرقوا حرمة المعاهدات الدولية ونقضوا عهودهم في مؤتمر الاستانة منذ ابتـــداء القتال بضربهم الاسكندرية ثم احتلالهم اياها لم يكن من المنتظر أن يحترموا حياد القناة فى قتالهم ٠ أما اعتماد عرابى على وعد دلسبس فى حماية القناة فأمر يدل على قصر النظر ، وقدكان من عيوب عرابى فى ساعة الخطر التردد والاحجام، فكانخطؤه فى مسألة القناة العامل الاكبر ان لم يكنالعامل الوحيدلانتصار الانجليز فى معارك الميدانالشرقى واحتلالهم العاصمة

ومن عجب أن يصر عـــرابى على رأيه الخاطىء مع أنه كما يقول جون نينيه كان مقتنعاكل الاقتناع قبل نشوب الحرب بضرورة منع المرور منالقناة وأنهقطع برأيه فى هذا الصدد اذ صرح للمســـتر كامرون مراســـل جريدة الستاندارد بحضور المسيو نينيه قبل ضرب الاسكندرية بقوله : «اننا سنحترم القناة ما دام العدو يحترم استقلال بلادنا٠٠ولكن اذا نشبت الحرب فاننا عنـــد أول طلقة مدفع سنهدم القناة مؤقتا ، وسأفعل ذلك آسفا لانى عالم بأن القنـــاة طريق تجارى محايد »

وقد كان هذا هو الوقت المناسب لسد القناة ٠٠ فليت شعرى ما الذى جعله يعدل عن هذا الرأى الصواب ويمتنع عن سدها حتى احتلها الانجليز ؟

احتلال بور سعيد والاسماعيلية

كان أول عمل حربى للجنرال ولسلى عند وصـــوله آلى الاسكندرية هو تدبير الزحف على العاصمة من طريق قناة السويس ٠٠ ففى ظهر يوم ١٩ أغسطس أقلع الاســـطول

البريطانى من الاسكندرية بقيادة الاميرال سيمور ، وكان مؤلفا من ثمانى مدرعات وثمانى عشرة باخرة من بواخر النقل تقل معظم الجيش الانجليزى بقيـادة الجنرال ولسلى قاصدا بور سعيد ، فبلغها صباح ٢٠ أغسطس ٠ وأخذت السفن الحربيـة تقتحم القناة ، ونزلت كتيبة من جنـــود الاسطول الى بور سعيد واحتلوا المدينة دون مقـاومة من الحامية ، وكذلك احتل الانجليز القنطرة والاسماعيلية فى هذا اليوم ٠ ومنعت البـــوارج الانجليزية مرور البواخر التجارية فى القناة،ومنع الاميرال هوايت من ناحيةالسويس دخول أية سفينة الى القناة ابتداء من١٩ أغسطس ، ووضع فى مدخل القناة بارجة حربية تنفيذا لهـــذا المنع ٠ وقد احتجت شركة القناة على خرق حرمةالقناة فذهب احتجاجها سدى ٠ وفى ٢٠ أغسطس احتل الاميرال هوايت «شلوفة» شمال السويس على القناة

وكانت طلائع العرابيين وعددهم نحو ألفين ترابط فى « نفيشة » غربى الاسماعيلية وعلى بعد نحو ثلاثةكيلومترات منها ، فأطلقت البوارج البريطانية قنابلها عليهم ، وكان هذا الضرب نذيرا بزحف الانجليز من هذه الناحية ٠٠

ووصل الجنرال ولسلى الى الاسماعيلية يوم٢١ أغسطس لتدبير حركات القتال فى الميدان الشرقى ٠ وكان يصحبه الاميرال سيمور والاميرال هوبكنس ٠ ووصلت عـلى أثره بقية البواخر المقلة للجيش البريطانى ، فنزلوا الاسماعيلية كما وصل المدد من الهند الى السويس ٠ وبذلك انكشفت الجبهة المصرية من ناحية القناة ، فى حين انه لو سدت القناة فى بداية القتال لما استطاع الجنرال ولسلى أن يصل بجنوده الى الاسماعيلية ويتخذها قاعدة للزحف ، ولقضى عدةأشهر قبل أن يهاجم خطوط الدفاع فى الدلتا

وفى يوم ٢٢ أغسطس وضع الانجليز أيديهم على سكة

الحديد بين الاسماعيلية والسويس وعلى ترعة المياه العذبة بين المدينتين ..

ولما تم للانجليز احتلال القناة رخصوا لشركة القناة بادارة أعمالها السابقة وعادت السفن التجارية تجتاز القناة. ويتبين من ذلك أن اعتراض الشركة على خرق الانجليز حيدة القناة لم يكن سوى اعتراض شكلى كان الغرض منه منع العرابيين من سد القناة حتى لا يتعطل انتفاع الشركة منها

وهكذا جعل الانجليز من القناة قاعدة حربية سهلت لهم مهمة الزحف على مصر ، ولولاها لما استطاعوا أن يصلوا الى الاسماعيلية بحرا وأن يزحفوا منها على العاصمة من طريق التل الكبير والزقازيق ، فوصول البوارج الانجليزية الى الاسماعيلية واتخاذهم اياها قاعدة زحفهم ما كان ليحدث لو لم تكن قناة السويس موجودة ، وكذلك كانت القناة شؤما على مصر فى جميع أدوارها ..

احتلال نفيشة

واحتل الانجليز نفيشة بعد احتلالهم الاسماعيلية .. ولهذا الاحتلال أهميته لان نفيشة هى أول محطة غربى الاسماعيلية ومنها تتفرع ترعة الاسماعيلية الى فرعين أحدهما الذاهب الى بور سعيد والثانى الى السويس .

وقد سد العرابيون ترعة الاسماعيلية فى نقطة «المجفر» غربى الاسماعيلية ليمنعوا ورود المياه العذبة الى الجيش البريطانى ، فهاجم الجنرال ولسلى «المجفر» يوم ٢٤ أغسطس واحتلها بجنوده

وتابع الانجليز زحفهم فاستولوا على « المسخوطة » يوم ٢٥ أغسطس بعد معركة عنيفة دارت بينهم وبين العرابيين، وكان يقود الجيش المصرى فيها الفريق راشد باشا حسنى

ووقع محمود باشا فهمى رئيس أركان حرب الجيش

المصرى أسيرا فى يد الانجليز فكان أسره أكبر ضربة أصابت الدفاع الوطنى

واستولى الانجليز على المحسمة يوم ٢٥ أغسطس ، وهى محطة تبعد عن نفيشــــة غربا باثنين وعشرين كيلو مترا ، وصارت المسافة بينهم وبين التل الكبير لا تتجـــاوز أربعة وعشرين كيلومترا ، وقد اســـتولوا فى المحسمة على سبعة مدافع كروب وكمية كبيرة من البنادق وعلى قطار من الذخيرة .

وكان الاستيلاء على المحسمة عملا حربيا على جانب كبير من الخطر ، لانه الخطوة الاولى التى اتخذها الانجليز للوصول الى معسكر العرابيين فى التل الكبير •• ثم احتل الانجليز القصاصين يوم ٢٦ أغسطس دون مقاومة تذكر ، فصاروا على مسافة خمسة عشر كيلومترا من التل الكبير

عرابى فى الميدان الشرقى

كان لأسر محمود باشا فهمى واحتـــلال « المحسمة » وانكشاف نية الانجليز فى الزحف على العاصمة من ناحية الشرق وقع شديد فى صفوف العرابيين •• فبادر عرابى الى الانتقال الى معسكر التل الكبير • وسار بالقطار من كفر الدوار ومعه جماعة من الضباط وطائفة من الحرس ، وكان يصحبه عبد الله نديم خطيب الثورة العرابية • فلما وصل القطار الى الزقازيق خف للقائه جمع حاشـــد من العمـــد والاعيان وأرباب الطرق والموظفين ، ونزل هنيهة بالمحطة ، وجلس بكشك هناك ، فاحتشد الناس للهتاف له وصاروا ينادون : « الله ينصرك يا عرابى • يا مولانا يا عزيز • اهلك عسكر الانجليز • يا سيمور يا وش القملة من قال لك تعمل دى العملة » • وبعـــد أن جلس هنيهة غادر الكشك وركب القطار وصار ينادى ويقول : « أنا لها أنا لها »

وســـار القطار الى التل الكبير بين هتـــاف المجتمعين

وصياحهم .. ولما وصل الى التل الكبير أعد عرابى لنفسه بالمعسكر خيمة سعيد باشا والى مصر السابق وكانت من أفخم الخيام . وأقام بها يحوطه الحرس والخدم ، وتشاور وأصحابه فيما يجب عمله ، وجاء على باشا فهمى من القاهرة يقود الألاى الاول من المشاة مددا للجيش ، ووضعوا خطة القتال التى استدعاها تبدل الموقف . فاتفقوا على مهاجمة مواقع الانجليز فى القصاصين ، وأرسلوا الى طلبة باشا عصمت فى كفر الدوار لكى يرسل لهم المدد من الرجال والعتاد . فجاءهم عيد بك محمد بألايه ، وأحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن بألايات الفرسان . وجاءهم من دمياط خضر بك خضر ومعه أورطتان من العساكر السودانية ، فاستعد الجيش المصرى لاتخاذ خطة الهجوم، وكانت قوات الانجليز موزعة كالآتى : الجنرال جراهام فى القصاصين، والجنرال درورى لو قائد الفرسان فى المحسمة، والجنرال ويليس فى المسخوطة

وقعة القصاصين الأولى

هاجم المصريون مواقع الانجليز فى القصاصين يوم ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ، وكان هجوما شديدا .. فاستولوا على المواقع الأمامية للانجليز . ولكن الفرسان البريطانيين بقيادة الجنرال « درورى » ما لبثوا أن كروا على المصريين فأجلوهم عن هذه المواقع . وخسر الانجليز فى هذه الوقعة ٨ قتلى منهم ضابط و ٦١ جريحا منهم عشرة من الضباط وامتد فيها القتال الى الليل

موقف تركيا

قدمنا أن موقف تركيا منذ شبت الثورة العرابية كان منطويا على سوء النية والخطل فى الرأى ، فقد أرادت أن تتخذ

من هذه الثورة فرصة لاسترداد امتيازات الاستقلال الذى نالته مصر .. فأخذت تغرى الفريقين المتخاصمين أحدهما بالآخر ، فتتظاهر تارة بتأييد الخديو ، وطوراً بتأييد العرابيين ، لتكسب من وراء هذا الاغراء نفوذا وسلطانا ، ولكنها فى الواقع لم تكسب شيئا وانما استفادت انجلترا من هذه السياسة الخرقاء ..

وبينما كان الانجليز يتقدمون فى داخل البلاد كانت المفاوضات ما زالت مستمرة بين اللورد دفرين سفيرانجلترا فى الاستانة والباب العالى للاتفاق على خطة ارسال الجيش العثمانى الى مصر ، وكانت انجلترا تقصد من هذه المفاوضات اطالة الوقت وتعطيل ارسال جيش من تركيا حتى تقمع الثورة بجيشها فلا يبقى محل لمجىء ذلك الجيش ، وقد تذرعت الى اطالة المفاوضات باشتراطها عدة شروط وهى :

(١) تحديد عدد الجيش العثمانى المزمع ارساله الى مصر بحيث لا يتجاوز خمسة أو ستة آلاف جندى

(٢) منعه من دخول مصر بطريق البر أو النزول الى الاسكندرية

(٣) عرض خططه الحربية على القيادة الانجليزية

(٤) التعهد بسحب هذا الجيش حين جلاء الجيش الانجليزى عن مصر

وقد رفضت الحكومة التركية هذه الشروط ، فكان ذلك سببا فى تعطيل ارسال جيشها ، ولو رضيت بأى شروط تضعها انجلترا وبادرت بارسال جيشها لكان ذلك خيرا واخف ضررا من احجامها عن انفاذه ، لأن مجرد وجود جيش تركى أو اى جيش آخر بجوار الجيش الانجليزى يحول دون استقرار الأخير فى البلاد ويؤدى لا محالة الى اجلاء الجيشين معا كما حدث حين ارسلت كل من انجلترا وتركيا

جيشا لاجلاء الفرنسيين عن مصر سنة ١٨٠١ ، فان وجودهما معا أدى الى جلائهما عن البلاد فى ذلك الحين

وقد أعلنت انجلترا على لسان اللورد دفرين انها لا تقبل اشتراك الجيش العثمانى مع الجيش الانجليزى فى اخماد الثورة الا اذا وقع الباب العالى على الاتفاقية المتضمنة شروط هذا الاشتراك

وفى غضون مهزلة المفاوضات التى جرت فى هذا الصدد طلب اللورد دفرين من سعيد باشا الصدر الأعظم أن يعلن السلطان عصيان عرابى وأن يقترن هذا الاعلان بالاتفاق على اشتراك الجيشين فى مصر ، وأخيرا وقع الطرفان على هذا الاتفاق فى ٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وهو يقضى بارسال ثلاثة آلاف جندى عثمانى الى بور سعيد ، وفى الوقت نفسه أعلن السلطان عصيان عرابى فى منشور طويل نشرته صحف الاستانة يوم ٦ سبتمبر

لم تكن انجلترا تقصد بهذا الاتفاق احترامه وتنفيذه ، فانها عجلت باخماد الثورة قبل أن تتحرك تركيا الى ارسال جيشها .. بل كان غرضها اذاعة اعلان السلطان عصيان عرابى أثناء زحفها ، لتتخذ منه وسيلة لاضعاف قوة الجيش المصرى وايقاع الفرقة والانحلال فى صفوفه ، وصرف القلوب عن تأييد عرابى فى القتال . ولو ترك السلطان وشأنه لما فكر فى اصدار هذا الاعلان لأنه فى خاصة نفسه لم يكن يعطف على الخديو توفيق ، ولا كان يميل الى تثبيت سلطته . ولكن السياسة الانجليزية الحت وتهددت واستخدمت كل الوسائط ومنها الرشوة لدى رجال المابين حتى أصدر السلطان اعلانه المشئوم ..

ولما هزم عرابى فى واقعة التل الكبير بادر اللورد «دفرين» الى ابلاغ الباب العالى انه بهزيمة العرابيين لم يعد ثمة موجب

لارسال جيش عثمانى ، لأن الجيش الانجليزى قد انتهى من مهمة اخماد الثورة !

فاعلان عصيان عرابى والحرب قائمة هو تدبير منطو على المكر والخبث ، وضعتـــه انجلترا لاضعاف قوة المقاومة فى مصر وتمكين جيشها من احتلال البلاد ، وهى التى طلبت من السلطان ذلك الاعلان كما تقدم بيانه

وقد ابتهج به الخديو وعهد الى سلطان باشا توزيع نسخ من جريدة « الجوائب » التى نشرته ، والاتصـــال بضباط الجيش المصرى لاطلاعهم عليه ، ووزع عليهم منشورات بهذا المعنى ، وتنقل سلطان باشا فى البلاد لدعوة العمد والأعيان الى مساعدة الانجليز ، ولا جرم أحدثت المنشورات تأثيرا كبيرا فى حالة الضباط المعنوية

وقعة القصاصين الثانية

فى صبيحة يوم السبت ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وقعت معركة كبيرة بين المصريين والانجــليز ، تعــد أكبر وقائع الحرب العرابية .. هجم فيها المصريون بقيادة الفريق راشد باشا حسنى ــ المعروف بأبى شنب فضة ــ على مواقع الانجليز فى القصاصين يريدون استردادها للمرة الثانية ، واحتدم القتال نحو ثلاث ساعات ولكن المعركة انتهت بتراجع المصريين بعد أن كادوا يوقعون بالجيش الانجليزى

وكان القائد العام لجيش المصريين هو الفريق راشد باشا حسنى وتقرر أن يتحرك محمود باشا سامى البارودى من الصالحية ليلا فيصل الى خط القتـــال عنـــد مطلع الفجر للاحداق بميمنة العدو وقد عمـــل بترتيب الهجـــوم رسم سلمت منه نسخة لكل أمير من القواد ، وفى الثلث الأخير من ليلة ٩ سبتمبر قام الجيش على هذا الترتيب ، فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل مكانه على خط النار ، ولكن العـــدو

كان عالما بما استقر عليه الرأى اذ أطلعهم عليه الاميرالاى على يوسف خنفس (الخائن) فبادر الجيش المصرى باطلاق المدافع ، واحتدم القتال بين الجيشين ، أما جيش الصالحية بقيادة البارودى فانه تأخر عن الميعاد المحدد له . ولما قرب من مكان الواقعة كان العدو متأهبا لقتاله ، فأطلق عليه مدافعه قبل أن يصل الى مكانه ، فتشتت وولى الأدبار ، فمنهم من عاد الى الصالحية ومنهم من ذهب الى معسكر رأس الوادى ، وأما راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومن معهما من الجيش فقد ثبتوا ثبات الأبطال حتى آخر النهار وجرح راشد باشا حسنى برصاصة فى قدمه .. وجرح على باشا فهمى فى ساقه ، وخسر كل من الجيشين خسارة كبرى من ضرب المدافع والبنادق التى كانت مقذوفاتها كالمطر فى الميدان . وكانت هذه الوقعة أشد حرب نشبت بين العرابيين والانجليز اذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهما نادر المثيل

ويقول جون نينيه عن هذه الوقعة : « ان اصابة القائدين الباسلين راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى فيها كانت خسارة كبرى منى بها الجيش المصرى لا تقل فى فداحتها عن أسر محمود باشا فهمى »

ويذكر المستر بلنت نقلا عن رواية المصريين له عن المعركة أن الانجليز فوجئوا بهجوم الجيش المصرى ، وكاد الدوق أوف كنوت يقع أسيرا ، ولكن حدث نقص فى تنفيذ خطة الهجوم ، وذلك أنه كان على محمود باشا سامى البارودى أن يتحرك من الصالحية فى الفى مقاتل ليلا ويهاجم فى الصباح ميمنة الانجليز ، ولكنه ضل الطريق ، فلم يصل فى الميعاد ولم يشترك فى المعركة ، وثمة نقص آخر ذكره المستر بلنت وهو أن عرابى كان واجبا عليه أن يشترك فى هذه المعركة ولو فى مؤخرة الجيش ان لم يكن فى المقدمة ، ولكنه جمد فى التل

الكبير ، ولم تظهر فى الميدان جميع قوة الجيش التى كان يجب استخدامها ، وكان من عوامل الهزيمة خيانة الضابط على يوسف خنفس

كانت هزيمة الجيش المصرى فى وقعة القصاصين الثانية ضربة شديدة كشفت الموقف الحربى ودلت على ضعف الجبهة المصرية أمام الهجوم الانجليزى .. وقد ظهر الاضطراب على زعماء العرابيين وبخاصة عرابى ومحمود سامى البارودى ، وبدأ اليأس يتسرب الى قلوبهم . وأدرك عرابى بعد فوات الفرصة أنه لو سد قناة السويس عند ابتداء الحركات العدائية لما بلغ الانجليز الاسماعيلية بهذه السرعة ، وما تقدموا فى داخل البلاد بهذه السهولة.. فأخذ يعالج الموقف فى كثير من التردد واليأس ، وبدأ بعد وقعة القصاصين فى ارسال الجرحى الى العاصمة اذ أقلتهم القطر الخاصة الى العباسية ، ومنهم القائدان الباسلان راشد باشا حسنى ، وعلى باشا فهمى . واستدعى على باشا الروبى قومندان موقع مريوط ليتولى قيادة جيش رأس الوادى . فحضر عصر يوم الثلاثاء ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، وأخذ يتفقد مواقع الجيش فى التل الكبير الذى أصبح بعد وقعة القصاصين هدف الانجليز فى هجومهم

معركة التل الكبير

تقع شرقى محطة التل الكبير على الضفة اليسرى لترعة الاسماعيلية هضبة تعلو السكة الحديد بثلاثين مترا وتمتد بانحدار خفيف نحو « الصالحية » ونحو « القصاصين » ، وكانت خطوط الدفاع المصرية فى « التل الكبير » تبتدىء من السكة الحديدية ، وتمتد بطول ستة كيلومترات متجهة من الجنوب الى الشمال . ويحمى معاقل الجند خنادق جافة عرضها من مترين الى ثلاثة وعمقها متر أو متران . ووراء

الخطوط الأمامية خطوط أخرى تمتد الى معسكر التل الكبير الواقع على السكة الحديدية . ولم يكن عرابى قد أتم خطوط الدفاع قبل نشوب المعركة ، ولم تكن هى ذاتها محكمة الوضع ، لأنها أقيمت على عجل ، وليس بها العدد الكافى من الجند لصد هجمات الأعداء

وكان الجيش المصرى فى التل الكبير كما قدره الجنرال ولسلى مؤلفا من ٢٤ طابورا وثلاثة ألايات من الفرسان وستة آلاف من البدو . وكان عرابى يشرف على حركات القتال .. ولكنه لم يتول القيادة الفعلية التى عهد بها الى على باشا الروبى ، وبلغت مدافع هذا الجيش من ٦٠ الى ٧٠ مدفعا

ويقول المستر بلنت : « ان جيش عرابى بالتل الكبير لم يكن يزيد على عشرة آلاف أو اثنى عشر ألف جندى ، والباقون كانوا من المجندين الأحداث الذين لم يسبق لهم اطلاق بندقية واحدة . أضف الى ذلك أن خيرة الجنود لم يكونوا بالتل الكبير بل كانوا فى كفر الدوار بقيادة طلبة باشا عصمت ، أو فى دمياط بقيادة عبد العال باشا حلمى ، وهؤلاء لم يشتركوا قط فى المعركة »

وكان من حسن التدبير أن يستدعى عرابى على الأقل الألاى المرابط فى دمياط لأنه كان يحتوى على خيرة الجند المدربين ، ولكنه لم يفعل .. ولم يأت من هذا الألاى سوى أورطتين مع مسيس الحاجة اليه . وعهد عرابى بالقيادة فى معركة التل الكبير الى على باشا الروبى ، ولم يكن على حظ ما من الكفاية الحربية .. اضف الى ذلك أنه كان الى ما قبل المعركة قائدا لفرقة مريوط واستدعاه عرابى الى التل الكبير بعد اصابة راشد باشا حسنى فى القصاصين ، فحضر قبل الوقعة بيوم واحد ، وهو وقت لا يكفى لتعرف مواقع القتال فى تلك الناحية ووضع الخطط الصالحة للدفاع

وزحف الجنرال ولسلى على التل الكبير فى أحد عشر الفا

من المشاة و ٢٠٠٠ من الفرسان ومعه ستون مدفعا ، وكان الهجوم من الناحية الشمالية للتل الكبير اذ كانت أصلح للزحف من الجهة الجنوبية المكونة من أراض زراعية تخترقها الترع والأقنية وتعوق سير الجنود . واعتزم الزحف ليلا لكى يوفر على جنوده عناء المسير فى شمس النهار المحرقة وسط رمال الصحراء وفى أرض مكشوفة. وقد رجح عنده الزحف فى الظلام ما لاحظه حين كان يستطلع مواقع المصريين فى التل الكبير من أنهم لا يضعون الطلائع أمام الاستحكامات الا من الساعة الخامسة صباحا ، وهذا نقص كبير فى الدفاع . فأراح ولسلى جيشه يوم ١٢ سبتمبر ..

وفى مساء هذا اليوم تأهب للزحف ، ولما جن الليل بدأ الجيش الانجليزى يتحرك من القصاصين فى منتصف الساعة الثانية صباحا ، وكان الظلام حالكا . وأصدر الجنرال ولسلى تعليماته بأن تطفأ كل الأنوار أثناء السير ، حتى لا يشعر العرابيون بزحفه . وكان يتقدم الجيش بعض ضباط الأسطول الذين لهم دراية بالاسترشاد بالنجوم لمعرفة خط السير فى الصحراء . ولكن هؤلاء لم يكن فى استطاعتهم الاهتداء الى مسالك الصحراء ، بل كان المرشدون الحقيقيون بعض عربان الهنادى ممن اشترى الانجليز ذممهم واتخذوهم عيونا لهم وجواسيس

ومن العجيب أن يقطع الجيش الانجليزى المسافة بين القصاصين والتل الكبير — وهى تبلغ خمسة عشر كيلومترا — دون أن تصادفهم طلائع المصريين ، ولو كان الدفاع محكما لما فات عرابى أن يجعل لجيشه طلائع على مسافات بعيدة ينبئونه بحركات الجيش الانجليزى ، واستمر الانجليز فى زحفهم حتى مطلع الفجر وعندئذ صارت كتائبهم على مسافة ١٥٠ ياردة من التل الكبير . وقد فوجىء المصريون بالهجوم اذ كانوا نائمين بعد أن سهروا فى سماع ذكر أرباب

الطرق ، فاستيقظوا على صوت البنادق . ولم يكد هؤلاء يضربون نفير الحذر حتى أمر الجنرال ولسلى جنوده بالهجوم .. فابتدأ فى الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين صباحا ، وكان على شكل نصف دائرة أحاطت بمعسكر العرابيين ، فاقتحمت الجنود الانجليزية الاستحكامات الأمامية ، وأطلق رماتها القنابل والبنادق عليهم ، وقتل منهم فى هذه الهجمة نحو مائتين قبل أن يصلوا الى الخنادق

ولكن الهجوم كان فجائيا شديدا ، فاستولى الانجليز على الاستحكامات الأمامية .. وبعد هنيهة هجموا على خط الاستحكامات الثانى ، واتجهت فرقة منهم تجوس خلال الاستحكامات ففتكت بنادقهم بالمصريين فتكا ذريعا ، وهجم فرسان الجيش البريطانى بقيادة الجنرال درورى لو على ميسرة العرابيين متجهين صوب محطة التل الكبير ، فأحدقوا بها . وأخذ المصريون على غرة فى الميمنة والميسرة ، وصمد للدفاع ألايان من السودانيين بقيادة الاميرالاى محمد بك عبيد وظلوا يدافعون الانجليز حتى استشهد معظمهم وقتل قائدهم البطل محمد عبيد . واستبسل أيضا فى القتال الآى من البيادة بقيادة احمد بك فرج ، وألآى عبد القادر بك عبد الصمد ، وكذلك أبلى اليوزباشى حسن افندى رضوان (الفريق حسن باشا رضوان فيما بعد) بلاء حسنا فى الوقعة اذ كان قومندانا للطوبجية . فلما فوجىء المصريون بهجوم الجيش الانجليزى اختل نظامهم .. لكن اليوزباشى حسن رضوان صمد للمهاجمين وأخذت مدافعه تصلى الانجليز نارا حامية وكبدتهم خسائر جسيمة ، وجرح هو فى تلك الوقعة . وقد أعجب الجنرال ولسلى ببسالته وترك له سيفه احتراما له ، ولم يزد عدد الجنود الذين اشتركوا فى المعركة على ثلاثة آلاف ، أما الباقون فقد تولاهم الذعر فألقوا أسلحتهم ولاذوا بالفرار . ولم تدم المعركة أكثر من عشرين

دقيقة لم تزد خسائر الانجليز فيها على ٥٧ قتيلا منهم ٩ ضباط و ٤٨ صف ضابط وجنديا و ٤٠٢ جرحى منهم ٢٧ من الضباط ، أما خسائر المصريين فقد تراوحت بين ١٥٠٠ قتيل أو ٢٠٠٠ ، وغنم الانجليز مدافع المصريين واستولوا على جميع مهمات الجيش وذخائره ومؤونته ..

كانت معركة التل الكبير سلسلة فضائح انتهت بهزيمة الجيش المصرى ، لم يحصل فيها قتال بالمعنى الصحيح الا من ثلاثة آلاف من الجند. وكانت فيما عدا ذلك أشبه بمهزلة أو مأساة ، فهى صفحة محزنة من تاريخ مصر الحربى والقومى ، وقد خلت من البطولة التى كان يمكن أن تغير من مصير المعركة أو تخفف من غضاضة الهزيمة وتقوى روح المقاومة فى البلاد



كارثة الاحتلال

الهزيمة

بلغ عرابي العاصـــمة ظهر يوم الهزيمة ـ الاربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ـ ، وكان أعضـــاء المجلس العرفى مجتمعين منذ ساعات طويلة فى « قصر النيـــل » ينتظرون أنبـــاء المعركة ، وبقى يعقوب باشا ســـامى ملازما مكتب التلغراف دون أن يكاشف أحدا بما كان يتلقاه من الاخبار، الى أن أنبأ الحاضرين أن ناظر الجهـــادية « عرابى » قادم على عجل الى العاصمة ، فأيقنوا أنها الهزيمة لا محالة

وبعد قليل جاء عرابى يصحبه على الروبى ، وكان وجهه مكفهرا وعلائم الاضطراب بادية عليه ٠٠ فجلس على مقعده وظل صامتا لا يتكلم مدة عشرين دقيـــقة ، ثم عقد مجلس حافل فى قصر النيـــل من أعضاء المجلس العرفى وبعض الأمراء والكبراء ، وأخذ عرابى يشرح لهم أسباب الهزيمة وكيف فوجىء بهجوم الانجليز ونسب الى الجند عدم اطاعة أوامره فى القتال ٠ ثم استشار الحاضرين فيما يجب عمله، وهل يجب الاستمرار فىالمقاومة أم أن الصواب فىالتسليم ٠٠ فاختلفت الآراء ، وكثر اللغط ، وتشعبت أفكار القوم، ثم قام الأمير ابراهيم باشا أحمد ابن عم الخديو وحث على الاستمرار فىالمقاومة قائلا : «ان القاهرة غاصة بالجند ومخازن الحربية ملأى بالسلاح والذخيرة والميرة ، ووسائل الدفاع متوافرة،والواجب هو الدفاع ما دام فينا بقية»٠فاستحسن الحاضرون قوله ظاهرا ، ولكن نفوسهم كانت قد دب اليها اليأس وجنحت الى التسليم،واستقر الرأى فىهذا الاجتماع على انشاء خط دفاعى فى ضواحى العاصمة

وانفاذا لهذا الرأى ذهب عرابى الى العباسية يصحبه محمد مرعشلى باشا باشمهندس الاستحكامات ومحمد رضا باشا قائد لواء الفرسان واللواء حسن باشا مظهر لاختيار الموقع الملائم لخط الدفاع ٠ وطلب من محمد مرعشلى باشا وضع تصميم لانشاء خط دفاعى أمام المطرية شرقى عين شمس ليستند يمينا الى الجبل ويمتد شمالا الى ترعة الاسماعيلية ثم ينعطف الى النيل عند فم رياح ترعة الاسماعيلية بالقرب من شبرا، ثم ذهبوا الى مركز الطوبجية

قال عرابى فى هذا الصدد : «وأردنا استعراض العساكر الموجودة هناك فلم نجد الا ألف رجل من خفراء البلاد بغير ضباط ، ونحو أربعين نفر سوارى فى مركز عساكر الخيالة مع الميرالاى أحمد بك نير ، فقال الميرالاى المذكور أنه يقف فى وجه العدو ويقاتله برجاله الاربعين حتى يموت معهم ولكن ما الفائدة وليس لدينا جيش يقوى على الدفاع ، فلما شاهدنا ذلك علمنا أن الاولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الحرب والدمار »

ثم رجع عرابى ومن معه الى المجلس العرفى بقصر النيل وأخبر الحاضرين بما شاهده ٠٠ فاستقر رأى الحاضرين على التسليم وكتابة عريضة الى الخديو يلتمسون فيها العفو عنهم ويقدمون له الخضوع ويعتذرون عن أفعالهم الماضية ٠ فحرروا العريضة وأمضاها عرابى ومن معه ، وأرسلوها مع وفد مؤلف من محمد رؤوف باشا حكمدار السودان السابق ، وبطرس غالى باشا وكيل الحقانية ، وعلى باشا الروبى، ويعقوب سامى باشا٠٠ ورؤوف باشا هو الذى تولى فيما بعد رياسة المحكمة العسكرية التى حكمت على عرابى وصحبه بالاعدام

احتلال العاصمة

لم تكد تنتهى معركة التل الكبير بما انتهت اليه حتى

أمر الجنرال ولسلى فرقة الفرسان بقيادة الجنرال « دروری لو » أن تبادر بالزحف على القاهرة لاحتلالها ٠وأمر الجيش الهندى بقيادة الجنرال مكفرسن باحتـــلال الزقازيق لمنع الجيش المصرى من استخدامها قاعدة لمواصـــلات السكك الحديدية ٠٠ فسار الفرسان نحو بلبيس واحتلوها ظهر يوم الخميس ١٣ ســبتمبر ، وحجز بها الجنرال دروری لو التلغرافات التى أعدها عرابى الى مديريات الوجه البحرى بحشد الجنــــود لمقاومة زحف الجيش البريطانى ، واحتل الجنرال مكفرسن الزقازيق فى ذلك اليـــوم دون مقـاومة واستولى فيها على خمسة قطرات مشحونة بالذخيرة والمؤن

واستأنف الجنرال دروری لو الزحف قاصدا العاصمة يوم الخميس ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، فتحرك من بلبيس فى منتصف الساعة الخامســـة صباحا فى قوة لا يمكن أن تكفى فى الاوقات العادية لاحتلال العاصمة ، ولكن هزيمة التل الكبير قد قضت على روح المقاومة

بلغ الجنود الانجليز العباســية فى نحو الساعة الرابعة مساء وعسكروا فى ثكنات الفرسان بها ٠٠وأرسل الجنرال دروری لو الى محمد رضا باشا قائد الجند بالعباسية يطلب اليه تجريد الجنــــود المصريين من أسلحتهم ٠ وكان عرابى وصحبه مجتمعين فى دار على باشا فهمى الذى كان لم يزل جريحا ملازما بيته بعد اصابته فى معركة القصاصين،فتلقى فى نحو الساعة السادسة مساء تلغرافا من قائد العباسية بوصـــول طلائع الانجليز ، فأرسل عرابى يأمره بالتسليم للقائد البريطانى

ولما انفض الاجتماع خرج عرابى يصحبه طلبة باشـــا عصمت ومحمود سامي باشا البارودى والمسيو جون نينيه ٠٠ فأشار عليهم المسيو نينيه بأن يسلموا أنفسهم كأسرى حرب للقائد البريطانى ، فعمل عـــرابى وطلبة بنصيحته ،

وتهيأ الاثنـان للذهاب إلى العباسـية لكى يسلما نفسيهما للجنرال درورى لو . أما محمود سامى البارودى فلم يقبل هذه النصيحة وقال : « انى ذاهب الى منزلى فاذا أرادونى فانهم يعرفون أين يجدوننى » ، وذهب عـرابى الى منزله يصحبه طلبة باشا والمسيو نينيه ، وأخـذ يتأهب لتسليم نفسه ، فلبس رداءه العسكرى وأخذ سـيفه . وفى نحو الساعة التاسعة مساء ركب عربة يصحبه طلبة باشا ، وأمر سائقها بالتوجه الى ثكنات الجيش بالعباسية ، فلما بلغاها جىء بهما الى الجنرال درورى لو ، فسلما سيفيهما اليه ، فأمر باعتقالهما فى غرفة من غرف الثكنة . وسارت كتيبة من الفرسان البريطانيين ليلا الى القلعة من طريق الجبـل واحتلتها وسلمت الحامية المصرية

وتولى تسليم القلعة الأميرالاى على يوسف خنفس ذلك الخائن الذى فتح لهم الطريق فى وقعة التل الكبير

واحتل الانجليز أيضا قصر النيل وقشـلاق عابدين ، وسلم الجنود الذين كانوا بهما أسلحتهم . فكان ذلك ايذانا باحتلال العاصمة

وقد خـرج بعض الأهلين من سكان باب الشـعرية والحسينية يحملون الهرآوات بقصد محاربة الانجليز . ولكن محافظ العاصمة ابراهيم بك فوزى رأى فى هـذه الحركة عملا لا يجدى ولا يؤدى الا الى سفك الدماء ، فردهم وأخذ يرقب حركاتهم منعا لوقوع الاحتكاك بين الانجليز والاهلين

واحتل الانجليز بعد ذلك مواقع الدفاع الاخـرى دون مقـاومة . ففى كفر الدوار حين علم ضباط الجيش فى مواقع الدفاع الاخرى بسقوط التل الكبير واستسلام عرابى استسلموا مثله . وقد علم طلبة باشا عصمت فى كفر الدوار بالهزيمة يوم وقوعها ، فسافر على عجل الى العاصمة فبلغها

مساء ١٣ سبتمبر ، والتقى بعرابى وسلم نفسه معه الى القائد درورى لو

ولما علم الجند بسفره تركوا أسلحتهم لضباطهم وتشتتوا ذاهبين الى بلادهم ، وكذلك فعل العربان ، وحضر السير افلن وود أحد قواد الجيش البريطانى - الذى عين فيما بعد سردارا للجيش المصرى - فى ١٦ سبتمبر على رأس كتيبة من الجند الى موقع الحصن المنيع الذى أنشأه عرابى وكان أول خطوط الدفاع ، ويعرف بعزبة « أصلان » فاحتله .. وكان يصحبه الى ذلك المكان ضابط من أركان حربه وآخرون من قبل الخديو ، وأمر بنسف الحصن .. فنسف وسلم الضباط المصريون أسلحتهم ، وأعلنوا طاعتهم للخديو ، واستولى الانجليز فى كفر الدوار على ما بها من المدافع والبنادق والذخائر

وحين علم محمود سامى باشا البارودى قائد موقع الصالحية بالهزيمة ، تركها ومن معه من الضباط والجنود وركبوا قطرات السكة الحديدية الى المنصورة ومنها الى طنطا ثم الى ايتاى البارود فكوم حمادة فبولاق الدكرور ، وانحل نظام الجند ، وتوجه كل منهم الى بلده . وارتأى البارودى وجوب استمرار الدفاع مع اخلاء القاهرة والانسحاب بالجيش الى الصعيد ثم الى السودان اذا أعجزهم الدفاع . وأرسل الى عرابى تلغرافا من المنصورة يطلب منه اغراق مديريتى القليوبية والشرقية لتعطيل زحف الجيش الانجليزى ، ثم الاستيلاء على جميع المراكب فى النيل وشحنها بالذخيرة وتوجيهها الى الصعيد مع الجيش . ولكن عرابى رفض العمل بهذا الرأى وأصر على التسليم ، وسجن البارودى بالقاهرة ضمن من سجن من العرابيين

وتسلم الانجليز حصون رشيد ، وتوقفت حامية أبو قير

عن التسليم فأرسل اليها الخديو يوسف شهدى باشا فسلمت ، وسلمت كذلك حامية مريوط ، ثم حامية دمياط

تأليف وزارة شريف باشا (الرابعة)

تبين فى غضون الحوادث السابقة أن وزارة اسماعيل راغب باشا لا قبل لها بمواجهة المشاكل التى استهدفت لها البلاد وأنها أضعف من أن تقوم بأعباء الحكم وسط هذه العواصف المختلفة ، فاستقالت لذلك ، واستدعى الخديو رياض باشا من أوربا فقدم اليها فى أواسط شهر أغسطس سنة ١٨٨٢ ، وبعد قدومه عهد الى شريف باشا تأليف الوزارة ، فلبى دعوته وألف الوزارة على النحو الآتى :

شريف باشا للرياسة والخارجية • رياض باشا للداخلية • عمر باشا لطفى للحربية والبحرية • على حيدر باشا للمالية • على باشا مبارك للاشغال • أحمد خيرى باشا للمعارف • حسين فخرى باشا للحقانية • محمد زكى باشا للاوقاف

والوزارة كما ترى مؤلفة من أعضاء تجمعهم فكرة تأييد سلطة الخديو ومخالفة العرابيين ، فشريف باشا قد انفصل عنهم من عهد استقالته من الرياسة فى فبراير سنة ١٨٨٢ ، ورياض باشا معروف بكراهيته لهم ، وكذلك عمر باشا لطفى ، وعلى باشا مبارك كان وزيرا فى وزارة رياض باشا الاولى التى أسقطتها الثورة فى سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وبقية الوزراء من الموالين للخديو

محاكمة العرابيّين

المحاكمة

اعتقل زعماء الثورة العرابية ، واعتقل أيضا كثيرون من الضباط والاعيان ، وألقوا فى السجون رهن التحقيق والمحاكمة ، وكثرت السعايات والوشايات،فأخذ المغرضون يشون بخصومهم بتهمة أنهم كانوا من الخارجين على الخديو، حتى امتلأت السجون بالمتهمين ، وبلغ عدد المقبوض عليهم أكثر من ٢٩٫٠٠٠ نفس

ووضعت الحكومة يدها على جميع زعماء الثورة ، ما عدا السيد عبد الله نديم ، فانه اختفى عن الانظار ولم تستطع عيون الحكومة أن تعرف مقره ، وقبض على كبار الضباط المعروف عنهم التشيع لعرابى أو الذين اشتركوا فى حوادث الثورة ، وغصت السجون بكبار المعتقلين .. نذكر منهم : عرابى باشا ومحمود باشا سامى البارودى ومحمود فهمى باشا ويعقوب سامى باشا وعبد العال حلمى باشا وعلى فهمى باشا وطلبة باشا عصمت (السبعة الزعماء) وحسن باشا الشريعى وزير الاوقاف فى وزارتى راغب والبارودى، وعبد الله باشا فكرى وزير المعارف فى وزارة البارودى الخ

وقد حوكم عرابى وصحبه أمام محكمة عسكرية مصرية بتهمة عصيان الخديو ، واهتم بأمره منذ القبض عليه المستر ولفرد بلنت المستشرق الانجليزى الذى ناصره منذ ابتداء الحركة والمشهور بمناصرته لمصر والمصريين ، وسعى جهده فى انقاذ عرابى من الاعدام ، ولم يكن هذا المسعى من صالح عرابى فى شيء ، لان حياته فى الواقع لم تكن لها قيمة بعد الهزيمة، وقد اختار له المستر بلنت باتفاقه مع السلطات الانجليزية

اثنين من المحامين الانجليز وهما المستر برودلى والمستر نابيه للدفاع عنه أمام المحكمة العسكرية

واستقر رأى الانجليز على أن يقدم عرابى وصحبه أمام المحكمة العسكرية بتهمة عصيان الخديو ، واستبعاد تهمة مذبحة الاسكندرية وتهمة احراقها ، وأن يعترفوا بجرمهم، وأن يستبدل الخديو بحكم الاعدام النفى المؤبد ، وأن يصدر بعد ذلك مرسوم بمصادرة أملاكهم مع عدم المساس بأملاك زوجاتهم وأن تقرر الحكومة لكل منهم معاشا يفى بحاجتهم مع حرمانهم رتبهم وألقابهم،فارتضى العرابيون هذا المصير. وعلى ذلك جرت المحاكمة ، وكانت بعد الاتفاق المتقدم ذكره محاكمة صورية عرفت نتائجها قبل انعقاد المحكمة . ولم تدم سوى يوم واحد .. اذ انعقدت المحكمة العسكرية برئاسة محمد رؤوف باشا يوم ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ بوزارة الاشغال بقاعة مجلس النواب ــ مجلس الشيوخ الآن ــ الساعة التاسعة ونصف صباحا لمحاكمة عرابى أولا. ولم يكن الجمهور يعلم بالموعد المحدد لانعقادها ، فلم يحضر الجلسة سوى نحو أربعين من النظارة ، منهم عشرون من مراسلى الصحف ، وكان مقررا أن يتولى الاتهام أمام المحكمة العسكرية المسيو بوريللى رئيس قلم قضايا الحكومة. ولكنه تنحى عن الجلوس فى مركز المدعى العمومى ، اذ رأى أن المحاكمة مهزلة متفق عليها من قبل . فجلس بدله قومندان الحامية الانجليزية فى التحقيق ، وأخذ مجلسه قريبا من المكان الذى أعد لعرابى ، وبعد أن أخذ أعضاء المحكمة مجالسهم مرتدين ملابسهم الرسمية جىء بعرابى من السجن

وكان قبل مجيئه قد وقع على وثيقتين .. الأولى يعترف فيها بارتكابه جريمة العصيان ، ويتعهد فى الثانية بأن لا يبرح الجهة التى تعينها الحكومة الانجليزية لمنفاه

دخل عرابى قاعة الجلسة مرتديا بذلة عادية ، وجلس فى

المقعد الذى خصص له ، وجلس محامياه الى جواره ٠٠ فتلا عليه رؤوف باشا رئيس المحكمة ورقة الاتهام مخاطبا اياه بما يأتى :

أحمد عرابى باشا ٠٠ أنت متهم أمام هـذه المحكمة بناء على طلب لجنة التحقيق بجريمة العصيان ضد الجناب الخديوى مخالفا المادتين ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى و ٥٩ من قانون الجنايات العثمانى فهل تقر بالتهمة أم لا ؟

فأجاب عرابى : « ان محاميى سيجيبان بالنيابة عنى »

فتلا المستر برودلى بالفرنسية ورقة أمضاها عرابى وفيها يعترف بجريمة العصيان ، وتلا كاتب الجلسـة صيغتها العربية

وعندئذ قرر رؤوف باشا بأن المحكمة ستختلى للمداولة وان الجلسة أوقفت على أن تنعقد فى السـاعة الثالثة بعد الظهر

وانعقدت المحكمة فى الموعد المذكور،وكان عدد الحاضرين فى هذه المرة كبيرا ٠٠ فلما فتحت الجلسة أمر رؤوف باشا كاتب الجلسة بتلاوة الحكم ، فتلاه ٠٠ وهو يقضى على عرابى بالاعدام ٠ وتلا ، عقب صدور الحكم ، الأمر الخديوى بابدال الاعدام بالنفى المؤبد ٠ واستغرقت تلاوة الحكم وأمر الخديو بتعديله عشر دقائق ، ثم انفضت الجلسة

وحوكم زملاء عرابى الستة وهم : محمود باشا سـامى البارودى ومحمود باشا فهمى ويعقوب سـامى باشا وعبد العال حلمى باشا وعلى باشا فهمى الديب وطلبة باشا عصمت بالطريقة التى حوكم هو بها ، أى انهم اعـترفوا بجريمة العصيان ٠ وقد رفض على باشا الروبى أن يدافع عن نفسه بواسطة المستر برودلى ، ورفض الاقرار الذى كتبه عرابى

فلم يحاكم معهم .. وصدر الأمر بنفيه عشرين سنة فى مصوع

وفى ٧ ديسمبر اجتمعت المحكمة لمحاكمة كل من : طلبة باشا عصمت ، وعبد العال باشا حلمى ، ومحمود سامى باشا البارودى ، وعلى فهمى باشا الديب فحكمت عليهم بالاعدام ، وتلا رئيس المحكمة أمر الخديو بتعديله الى النفى المؤبد أيضا

وفى يوم ١٠ ديسمبر حوكم محمود باشا فهمى ويعقوب سامى باشا فحكم عليهما أيضا بالاعدام ، مع تعديل الحكم الى النفى المؤبد

وأصدر الخديو أمرا فى ١٤ ديسمبر بمصادرة أملاك الزعماء السبعة المحكوم عليهم وأموالهم ، وحرمانهم حق امتلاك أى ملك فى الديار المصرية بطريق الارث أو الهبة أو البيع أو بأى طريقة ما ، مع ترتيب معاش سنوى لهم بقدر الضرورى لمعيشتهم . وقضى هذا المرسوم ببيع أملاكهم ، وما ينتج من هذا البيع من صافى الثمن يخصص لسداد التعويضات التى ستعطى لمن أصيبوا فى حوادث الثورة

وفى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٢ صدر أمر خديوى آخر بتجريد السبعة الزعماء من جميع الرتب والالقاب وعلامات الشرف التى كانوا حائزين لها

تنفيذ الحكم فى عرابى وزملائه

اختارت الحكومة الانجليزية جزيرة « سيلان » بالهند منفى للزعماء السبعة..فاجتمعوا فى سجن الدائرة السنية يوم ١٣ ديسمبر ليتداولوا فى تجهيز معدات الرحيل ، وفى ٢٥ديسمبر نفذ فىالزعماء حكم التجريد من رتبهموألقابهم، بأن جمعوا فى الساعة الثانية بعد ظهر ذلك اليوم فى ساحة «قصر النيل» وتلا عليهم على غالب باشا وكيل وزارة

الحربية أوامر التجريد ، وأعدت الحكومة لرحيل الزعماء الباخرة مريوتس « مريوط » وهى باخرة انجليزية حمولتها ١٤٠٠ طن استأجرتها خصيصا لنقل الزعماء وذويهم وحاشيتهم الى جزيرة سيلان، وأنزلتهم فيها بالدرجة الاولى. وعهدت الى الكولونل موريس بك وهو ضابط انجليزى كان فى خدمة الحكومة أن يرافقهم حتى يصلوا الى منفاهم

ففى مساء ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ أعدت لهم قطارا خاصا فى ثكنة قصر النيل لنقلهم الى السويس ، فركبوه هم ومن اختاروهم من الأهل والخدم، وودعهم المستر برودلى محاميهم على رصيف القطار ، وحضر سفرهم السيرشارلس ويلسن مندوب السلطة الانجليزية ، وتحرك بهم القطار فى الساعة العاشرة مساء ورافقهم الى السويس المستر نابييه، وكان يحرسهم رهط من الجنود المصريين وآخرون من الجنود الانجليز ، فبلغوا ميناء السويس الساعة الثامنة من صبيحة يوم ٢٨ ديسمبر ، وهناك ركبوا الباخرة «مريوتس» وأقلعت بهم فى الساعة الواحدة بعد الظهر الى ثغر كولومبو ميناء سيلان فوصلوا اليه مساء ٩ يناير سنة ١٨٨٣ ، ونزلوا الى البر فى صبيحة اليوم التالى

الزعيم فى المنفى

فى جزيرة سيلان

أقام عرابى وزملاؤه الستة فى جزيرة «سيلان» ، وكانت حياتهم فى المنفى حياة ألم وحزن ، وبؤس وشـــقاء .. اذ انقطعت صلتهم بالنـــاس ، وطال اغـــترابهم عن الوطن ، وبعدت الشقة بينهم وبين أهلهم وذويهم ، ولم يكترث لهم أحد ، ولم يعطف عليهم أحد

وجادت قريحة البارودى بشعر مؤثر فىالحنين الى الوطن والحزن لفراقه ، مما يعد آية فى البلاغة ، ويدلنا على مبلغ ما عاناه المنفيون من الآلام ، وهو وان كان يصور آلام نفسه وما يجيش به صـــدره ، لكنه فى شعره يصور لنا حالة الزعماء المنفيين من العرابيين عامة

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن :

محا البين ما أبقت عيون المها منى
فشبت ولم أقض اللبانة من سنى
عنـــاء ويأس واشـــتياق وغربة
ألا شد ما ألقاه فى الدهر من غبن
فان أك فارقت الديار فلى بهـــا
فؤاد أضـــلته عيـــون المها عنى
بعثت به يوم النـــوى اثر لحظة
فأوقعه المقـــدور فى شرك الحسن

الى أن قال :

ولما وقفنـــا للوداع وأسبلت
مدامعنـــا فـــوق الترائب كالمزن

أهبت بصــــبرى أن يعود فبزنى
وناديت حلمى أن يثوب فلم يغن

وما هى الا خطــرة ثم أقلعــــت
بنا عن شطوط الحى أجنحة السفن

فكم مهجة من زفرة الشوق فى لظى
وكم مقلة من غزرة الدمع فى دجن

وما كنت جربت النوى قبل هذه
فلما دهتنى كدت أقضى من الحزن

ولــكننى راجعت حــلمى وردنى
الى الحزم رأى لا يحــوم على افن

ولولا بنيـــات وشيب عــواطل
لما قرعت نفسى عــلى فائت سنى

وتعاقبت السنون على عــرابى وزملائه فى منفاهم بتلك الجزيرة النائية ٠٠ فضاقت صدورهم لطول الغربة ، وعدم العمل اطلاقا ، ورداءة المناخ ، وافتقارهم لمن يعطف عليهم أو يسأل عنهم ، فساءت لذلك حالتهم المعنوية،ووقع الخصام بينهم ٠٠ وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، وبدأ الخصام أول ما وقع بين عرابى وطلبة وعبد العال

وفى سنة ١٨٩٠ انتقل محمود باشا ســامى البارودى بعائلته بعد أن تزوج من كريمة يعقوب سامى باشا الى مدينة « كندى » التى تبعد ٧٤ ميلا عن كولومبو ٠ وترك عرابى وبقية زملائه بكولومبو متنافرين متخاصمين ، وتبعه يعقوب سامى باشا وقطن كندى ٠٠ وكذلك فعل طلبة باشا عصمت، وفى سنة ١٨٩٢ انتقل اليها عرابى ثم على باشا فهمى

مصير عرابى وزملائه

توفى عبد العال باشا حلمى يوم ١٩ مارس سنة ١٨٩١ بكولومبو ودفن بها ٠ وذهب محمود باشا فهمى الى كندى

ـ عاصمة الجزيرة ـ لتبديل الهواء٠٠وهناك أدركته الوفاة ليلة ١٧ يوليه سنة ١٨٩٤ ودفن بها

وفى فبراير سنة ١٩٠٠ رخصت الحكومة المصرية لطلبة باشا عصمت بالعودة الى مصر اذ ساءت صحته ٠ وقررت جمعية من الاطباء أنه اذا لم يعد الى بلاده فانه لا يعيش أكثر من خمسة أشهر ، وصادق على هذا القرار حاكم الجزيرة٠٠ فعاد الى مصر ، ولكنه لم يعش أكثر من المـــدة التى توقعها الاطباء،وتوفى فى ذلك العام ودفن فى قرافة الامام الشافعى

وفى شهر اكتوبر سنة ١٩٠٠ توفى يعقوب باشا سامى ودفن بجوار قبر محمود باشا فهمى بكندى،وكان قد صدر العفو عنه ورخص له بالعودة الى مصر ، ولكن وافاه القــدر قبل أن يبلغه الحاكم أمر العودة

وأصيب محمود باشـــا سامى البارودى بارتشـــاح فى القرنيتين أفقده نور عينيه ٠٠ وقررت جمعية الاطباء لزوم عودته الى مصر لمعالجته فى المنـــاخ الذى ولد فيه وألفه ٠ وصادق على ذلك حاكم الجزيرة ، فأصدر الخديو عباس حلمى الثانى أمرا بعودته الى مصر ٠ فرجع فى شهر ســبتمبر ســنة ١٩٠٠ ، وعفا عنه الخديو ومنحه حقوقه المدنية ورد اليه أملاكه الموقوفة وحصـــل على متجمد ريعها من ديوان الاوقاف ، ولكن لم يعد اليه بصره ، وتوفى فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٠٤

وفى ١١ يونيه سنة١٩٠١ صدر عفو الخديو عباس أيضا عن عرابى وعلى فهمى ٠٠ فبارح على باشا فهمى الجزيرة فى شهر أغسطس سنة ١٩٠١ وجاء القاهرة فى أول سبتمبر ٠٠ وجاءها عـــرابى فى أول أكتوبر سنة ١٩٠١ ، وكانت البلاد تغلى سخطا على الاحتلال وسياسته لما بدا من الحكومة البريطانية من نقض عهودها فى الجلاء ووضـــع يدها على حكومة البلاد ومرافقها



عرابى باشا بعد عودته من المنفى

وكانت عودة عرابى بوســاطة الانجليز ، وادلاؤه بعد رجوعه بتصريحات فيها تأييد للاحتلال وسياسته ، سببا فى استقبال الأمة له بالفتور والسخط . وبدا الفرق بينه وبين البارودى من هذه الناحية..فقد لزم البارودى العزلة بعد عودته وامتنع عن الخوض فى الاحاديث السياســية . وكان ذلك منه عين الحكمة والصواب ، أما عرابى فقد جلب على نفسه بأحاديثه سخط الصحافة والرأى العام ، وكانت وفاته رحمه الله يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩١١

شخصية عرابى

فى شخصية عرابى تجتمع المحاسن والأضداد .. ولقد كان لكل منهما أثره فى الدور الذى قام به فى تاريخ مصر السياسى . ولابد لكى تكون لدينا صــورة صحيحة لهذه الشخصية الكبيرة أن نعرف مزاياها ونقائصها ، أو ما لها وما عليها ..

اذا حللنا شــخصية عرابى نجــد أنه كان بلا نزاع ذا شخصية قوية جــذابة تؤثر فى الافراد والجماعات .. فله من هذه الناحية أخص صفات الزعماء . ولولا هذه الموهبة لما استطاع أن يجتذب اليــه محبة ضباط الجيش وجمهرة الأمة ، وينال ثقتهم ويملى ارادته عليهم ، وكانت له أيضا موهبة الكلام والخطابة والصوت الجهورى . وهذه أيضا من مزايا الزعماء التى تحببهم الى نفوس الجماهير .. وقد كان لخطبه تأثير السحر فى نفوس سامعيه. وكان بلا مراء يريد الخير لبلاده ، ويريد لها الحرية والاستقلال . وعلى هــذا الاساس قامت دعوته

على أنه الى جانب ذلك لم يكن على حظ كبــير من الكفاية السياسية وبعد النظر .. ومن هنا جاء شططه فى كثير من المواطن ، وعدم تقديره للأمور وملابساتها . وعرابى معذور فى ذلك لانه لم ينل حظا كبيرا من الثقافة والالمام بشؤون

السياسة وأطوارها ·· فهو لا يعـدو أن يكون ضابطا من تحت السلاح ، لم يتخرج فى المدارس الحربية ولا المدنية · ولم يعلم نفسه بنفسه تعليما ناضـجا ، ولم يكن له من العبقرية ما يغنيه عن الدرس والاطلاع والتحصيل

وكان علمه محدودا ·· فقد تلقى فى الأزهر بعض قشور من العلوم الفقهية واللغـوية ، ولم يطل مكثه به أكثر من أربع سنوات · ولم يزد محصوله العلمى عن بعض الآيات الشريفة والاحاديث النبوية ، استظهرها وتفهم معناها ·· وبعض المطالعات الادبية من آثار السلف الصالح ، وكتابات الصحف الوطنية فى ذلك الحين ·· وهذا المحصول لا يكفى لتكوين الرأس المدبر للثورات ، القدير على تذليل المعضلات وحسن التصرف فيما يعرض على البلاد من أحداث وأزمات

حقا ان كثيرا من الزعماء لم يكونوا فى محصولهم العلمى يزيدون على عرابى ومع ذلك نجحوا فى زعامتهم ودعوتهم ·· فالظروف السياسية لها دخل كبير فى نجاح الزعيم أو اخفاقه · وسنعرض فيما يلى الاسباب لاخفاق عرابى والثورة العرابية ··

ان الفرق كبير بين عرابى وبين كافور مثلا فى ايطاليا ، أو وشنطون فى أمريكا ، أو كوشيسكو فى بولونيـا ، أو كوشوت فى المجر ·· ولو وفقت الثورة العرابية الى زعيم مثل كافور لسارت فى سـبيل الفوز ، ولعرف كيف يدير دفة السفينة بمهارة وكفاية

قد يكون لعرابى بعض الشبه بغاريبلدى فى قلة المحصول العلمى والسـياسى ·· ولكن غاريبلدى كان يترك لرجال السياسة تصريف المعضلات السياسية · أما عرابى فكان على جانب كبير من الاعتداد بالنفس ، اذ كان يعتقد فى نفسه القدرة على تصريف الشئون السياسية كافة ·· ولو أنه استعان برجل من معاصريه قـدير فى شؤون السياسة ،

كشريف باشا،لكان ممكنا أن تسير الثورة فى سبيل النجاح الى النهاية . ولكنه على العكس قد عمل على التخلص منه حتى أقصاه عن الوزارة كما بينا فى موضعه

ومما يؤسف له أن عرآبى كان على جانب كبير من الغرور .. وقد كان ذلك من العوامل الفعالة فى اتجاهه السياسى، فمن ذلك أنه حين تحفزت انجلترا لضرب الاسكندرية أبان له بعض مواطنيه ضرر الحرب وسوء مستقبلها،فكان يقول: « أنا أقوى من دولة الانجليز ودولة فرنسا » ، وقال : « ان الطوابى والعساكر المصرية لا تقاوم الانجليز فقط ، بل جميع الدول مدة ثلاث سنين .. بحيث لا يمكن لأحد الدخول الى مصر »

وكان ظنه أن الانجليز لا طاقة لهم على قتال البر ، وأن قوتهم محصورة فى البحر ، وفى ذلك كان يردد هو وأنصاره كلمتهم المأثورة « الانجليز كالسمك .. اذا خرج من البحر هلك » وهذا من الغرور الناشىء عن الجهل لا محالة

وكان يصرح بأنه لن يخضع لاوربا أو لتركيا ، ويقول فى هذا الصدد : « فليرسلوا لنا جيوشا أوربية أو هندية أو تركية .. فانى ما دمت وبى رمق فانى سأدافع عن بلادى ، وعندما نموت جميعا يمكنهم أن يمتلكوا البلاد وهى خراب »

ولم يكن هذا من الواقع فى شىء ..

ثم انه لم يكن أيضا على حظ كبير من الكفاية الحربية ، لانه لم يتلق تعليما عسكريا نظاميا ، ولم يتمرن على ضروب القتال ، ولا خاض غمار الحروب فى ماضيه قبل الثورة ،ولا فى حروب الثورة نفسها ، فانه لم يتول خلالها أية قيادة فعلية .. بل كان يندب غيره من القواد ليحمل عبئها فى ميادين القتال ..

ففى ضرب الاسكندرية لم يباشر الدفاع عن الحصون كما

رأيت مما أوضحنا ، ولما انسحب الى كفر الدوار عهد بقيادة الجيش المرابط بها الى طلبة باشا عصمت . ولما تحرجت الحال فى الشرق وانتقل الى رأس الوادى لم يتسلم زمام القيادة فى معركة القصاصين التى كانت أشد معركة نشبت بين المصريين والانجليز ، بل عهد بها الى الفريق راشد باشا حسنى واللواء على باشا فهمى ، وترك القيادة فى معركة التل الكبير الى على باشا الروبى .

ومع أنه كان مثال الشجاعة والجرأة فى الدور الاول من الثورة ، فان هذه الشجاعة لم تلازمه مع الأسف فى وقعة التل الكبير ، ولا فى التسليم والمحاكمة

فشخصية عرابى كانت تجمع بين المحاسن والأضداد ، حقا ان الرأى فى شخصيته قد يتغير لو كتب له الفوز والنجاح ... فلو أن الثورة قد انتصرت لتضاءلت عيوبه الى جانب مزاياه ومحاسنه، وهكذا شأن الحوادث والاحداث، لها دخل كبير فى تقدير الرجال والاشخاص

والناس من يلق خيرا قائلون له ما يشتهى ، ولأم المخطىء الهبل

أسباب اخفاق الثورة

فلنتكلم الآن عن أسباب اخفاق الثورة العرابية ، فلعلها تلقى بعض الضوء على شخصية عرابى والظروف التى اكتنفت الثورة والاسباب التى أدت الى اخفاقها ، ولعل هذه الاسباب تخليه من مسئولية هذا الاخفاق

ان لاخفاق الثورة العرابيــة عوامل عدة ، بعضها داخلى وبعضها خارجى .. وأول العوامل الداخلية هو الانقسام الذى وقع فى الصفوف بين العرابيين والخديو توفيق باشا . فان هذا الانقسام جعل من البلد معسكرين متحاربين ، معسكر الثورة ومعسكر الخديو ، فوقع الاصطدام بينهما ،

وتفاقم أمره . وانتهز الانجليز فرصة وجوده ، وما أدى اليه من ضعف وتخاذل ، فحققوا أغراضهم الاستعمارية بالتدخل فى شئون البلاد ثم احتلالها ، ولو عولجت أسباب الفرقة والانقسام بالحكمة وحسن السياسة لسارت الثورة على صراطها المستقيم ونجت البلاد من الاحتلال

صحيح أن الثورة فى ذاتها بدأت بالتصادم مع الخديو ، فما وقعة قصر النيل ثم وقعة عابدين ، الا مظاهر لهذا التصادم وذلك الانقسام .. فكيف يمكن اذن تعليل اخفاق الثورة بالانقسام وهو هو منشأ الثورة ؟

نقول نعم .. ان الثورة ظهرت أول ما ظهرت بالتصادم مع الخديو . وهى وليدة هذا التصادم أو هذا الانقسام ، ولكن الحكمة كانت تقتضى بعد اجابة مطالب عرابى وصحبه فى وقعة عابدين ونزول الخديو على ارادتهم أن يعالجوا الشؤون العامة بالأناة والتريث ، ويعملوا على رأب الصدع وتوحيد الكلمة وازالة أسباب الفرقة والخلاف بينهم وبين الخديو ، ولكنهم على العكس لم يأبهوا لهذه الناحية .. وداخلهم الشىء الكثير من الغرور ، وعدم النظر فى العواقب ، فأخذ الخلاف يتسع ويتفاقم ، حتى كان من أمره أن اعتزم العرابيون خلع الخديو ، وتحدثوا فى ذلك علنا ، وهذا أقصى مظاهر التنازع والشقاق بين أبناء البلد الواحد

كان لهذا الانقسام من العواقب الوخيمة مالا يغيب عن البال ، فقد أدى الى التخاذل فى ساعة الخطر ، وتضعضع قوة المقاومة .. بل هو السبب المباشر للاحتلال البريطانى ، اذ أن الانجليز تذرعوا الى هذا الاحتلال بدعوى تأييد سلطة الخديو وحماية العرش ، فجاسوا خلال الديار وحاربوا العرابيين ، وكان فى صف الانجليز معسكر الخديو والحكومة . وكان يجدر بعرابى وزملائه زعماء الثورة أن يتداركوا هذه الحالة ، ويتلافوا أسباب الانقسام تفاديا من التدخل الاجنبى .

ولم يكن لهم عذر فى أن يجهلوا المطامع الاستعمارية التى تكتنف مصر ٠٠ فان حوادث ذلك العصر والعصر الذى سبقه كانت تكشف عن نيات انجلترا فى تطلعها الى احتلال وادى النيل ٠ ولقـد تجلت هـذه النيات منذ حاربت نابليون فى مصر سنة ١٧٩٨ ، وحين أسس محمد على الدولة المصرية الحديثة فجردت سنة ١٨٠٧ تلك الحملة التى باءت بالخيبة والخذلان ٠ وما فتئت تعمل على تحقيق أغراضها الاستعمارية فى عهد محمد على وخلفائه ٠ وكان شراؤها أسـهم مصر فى قناة السويس سنة ١٨٧٥ الخطوة الاولى نحو الاحتلال ٠٠ فهذه الحوادث وغيرها كان من شأنها أن تبصر العرابيين بالخطر الذى يتهدد البلاد ، وتدعوهم الى تلافى أسباب الانقسـام الذى لا شك فى أنه يوهن قواها فى ساعة الخطر ٠ وكان لهم من احتلال فرنسا تونس سنة ١٨٨١ نذير بما تستهدف له مصر من مطامع الاسـتعمار الاوربى عامة ٠٠ ولكنهم لم يتبصروا فى العواقب ، فمهدوا السبيل الى اخفاق الثـورة ووقوع الاحتلال.

فالانقسام هو أول العوامل فى اخفاق الثورة ٠٠

يليه تأثير الزعماء فى تطور الحـوادث ٠٠ فلقـد كانت تنقصهم الخبرة السياسية ، وهذا النقص وحده يكفى لاخفاق أية ثورة فى مختلف البلدان

وقد حرمت الثـورة أيضا الكفاية الحربيـة ، مما بدا أثره فى المعـارك التى نشبت بين الانجليز والمصـريين ، ولو كان على رأس الثورة قائد كفء لتغير مصـير الوقائع الحربية فيها ٠ ولكنها مع الأسف لم توفق الى قواد أكفاء ، وقد تجلى عدم الكفاية الحربية فى احجام عرابى وصحبه عن سد قناة السويس عند ابتداء القتال ٠ وهذا المثل وحـده يدلك على جهل تام بفنون الحرب ، لان سد القناة كان أول ما يجب عمله بلا تردد لكى يضمن الدفاع عن مصر كما تقدم

بيانه . ولو سدت القناة فى الوقت المناسب لطال أجل الحرب ووجدت مصر الوقت الكافى لتنظيم وسائل الدفاع ، لان الأمة كانت مستعدة لبذل كل تضحية للدفاع عن كيانها .. ولكن الخطأ يرجع الى زعمائها السياسيين والحربيين

وثمة عامل آخر كان له أثره الكبير فى اخفاق الثورة ، وهو قلة البطولة والتضحية .. فقد رأيت كيف كان موقف عرابى فى وقعة التل الكبير ، وكيف ترك الميدان دون جهاد أو نضال ، وكيف سلم نفسه للانجليز وكيف كان موقفه أثناء المحاكمة وبعدها

كان هذا التسليم والخضوع من أكبر العوامل فى اخفاق الثورة وانحلالها ، لان الامم تتأثر حتما بنفسية زعمائها ومواقفهم .. فمواقف التضحية والبطولة تبعث فى الأمة روح التضحية والبطولة ، ومواقف التسليم والخضوع تقضى على هذه الروح حتى فى النفوس التى كانت مشربة بها ، أو مستعدة لها

فالزعامة تطبع الأمة بطابعها ، ان خيرا فخير وان شرا فشر .. ولذلك لا تعجب من ضعف المقاومة التى لقيها الانجليز حين احتلالهم مصر ، فان زعماء الثورة كانوا أول من استسلم فى ساعة الخطر . وقد ظهر ضعفهم النفسى فى المحاكمة ، اذ أخذ كل منهم يتنصل من تبعة الثورة ، وتبين من موقفهم انه كان ينقصهم الايمان والعقيدة .. وهما أساس النجاح لكل دعوة وكل عمل . ولو أنهم ضربوا للأمة المثل العليا فى التضحية والشجاعة والاقدام لكانت الثورة العرابية فى دورها الثانى صفحة مشرفة من تاريخ مصر القومى . كما كانت فى دورها الأول . ولكن أية مقاومة تنتظر بعد أن ترى الأمة زعماءها يتركون ميدان القتال ويلقون أسلحتهم خاضعين مستسلمين ؟!

لا شك أن هذا الموقف وحده من أهم الاسباب فى اخفاق

الثورة العرابية .. ولو أن عرابى وصحبه قاوموا وقاتلوا فى التل الكبير لكان لهذه الوقعة ولو انتهت بالهزيمة صبغة أخرى غير الصبغة التى طبعت بها . ولو أنهم أدوا واجبهم لاستمرت المقاومة عهدا طويلا ، ولبعثوا فى البلاد من أقصاها الى أقصاها روح البذل والتضحية

قد تقوم فى بعض البلاد ثورات تنتهى بالهزيمة.. برغم ما يبذل فيها من جهود وتضحيات . ذلك حين تتغلب عليها القوة وتقمعها . فأمثال هذه الهزيمة لا تعد اخفاقا ، بل هى صفحة مشرفة من كفاح الأمة فى سبيل حريتها واستقلالها، وهى بما يتخللها ويزينها من البطولة والشجاعة والتضحية، تبعث فى الأمة دما جديدا ، يجدد من حيويتها ، ويزيدها قوة ومرانا على الكفاح والمقاومة. وتظل صفحة جهادها مثلا عاليا تحتذيه الاجيال المتعاقبة فى افتـــداء الوطن بالنفس والمال ..

ومن العوامل الداخلية فى اخفاق الثورة سياسة الخديو توفيق .. فهو لم يكن مؤمنا بالشورى ولا موقنا بحق الأمة فى الدستور . وعلى ما كان عليه من الضعف والتردد ، فانه كان يميل الى الحكومة المطلقة يستأثر فيهـــا بالسلطة هو وحاشـــيته والمقربون اليـــه . ولم يكن يعترف لغير هؤلاء بالنفوذ والسلطان ، اللهم الا لممثلى الدول الاجنبية ، فانه كان يحرص على كسب ودهم وثقتهم ..

ومن هنا جاء خضوعه لرغبات معتمدى انجلترا وفرنسا، ولو كان صادق الرغبة فى احترام حقوق الأمة لما اتخـــذت منه الدولتان تكأة لمحاربة الثـــورة . فقد استغلتا ميوله الخاصة وكراهيته للثورة ففاجأتا البلاد بمذكرة ٧ ينـــاير سنة ١٨٨٢ التى تقدم الكلام عنها . ولما اشتد الخلاف بينه وبين وزارة البارودى فى حادثة مؤامرة الضباط الشراكسة بدأ انحيازه الى التدخل الانجليزى الفرنسى بشكل واضح.

ولما انسحبت فرنسا من الميدان استمر انحيازه الى جانب التدخل الانجليزى

وكان للعوامل الخارجية أثر كبير فى اخفاق الثورة العرابية .. وأهمها المطامع الاستعمارية الاوربية ، وبخاصة الانجليزية ، ففرنسا وانجلترا كانتا تطمعان فى توسيع نفوذهما فى مصر . ومن هنا جاء سخطهما على الثورة وكراهيتهما قيام حكومة دستورية فى البلاد . ولقد رأيت كيف ائتمرتا بالحركة الوطنية، ووضعتا العقبات والعراقيل فى سبيلها ، وكيف بدأت نياتهما السيئة نحوها بمذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ ، تلك المذكرة التى تنطوى على اثارة العداوة والبغضاء بين الخديو والأمة ، وكيف أعقبتا تقديمها بالمعارضة فى تخويل مجلس النواب حق تقرير الميزانية ، مما أدى الى سقوط وزارة شريف باشا .. ثم انتهازهما فرصة الانقسام الذى وقع بين الخديو والعرابيين وارسالهما أساطيلهما الى مياه الاسكندرية ، ثم تدخلهما بالفعل وتقديمهما بلاغهما النهائى باقالة وزارة البارودى وابعاد زعماء الثورة ، ورفض العرابيين هذه المطالب، وقبول الخديو اياها .. مما أدى الى استقالة وزارة البارودى وانفجار بركان السخط على الخديو

فالسياسة الاستعمارية الانجليزية والفرنسية كانت من أكبر العوامل فى اثارة الانقسام بين الأمة والخديو .. وأعقب هذا الانقسام انسحاب فرنسا من الميدان وانفراد انجلترا بالتدخل لتحقيق مطامعها الاستعمارية فى مصر ، وقد رأيت كيف نفذت برنامجها الاستعمارى بضرب الاسكندرية وانزال جنودها الى البر .. فكان ذلك بدء الحملة التى قضت على الثورة وعلى الاستقلال

أضف الى ذلك جمود أوربا حيال الاعتداء البريطانى ، وسوء نية تركيا نحو مصر منذ قيام الثورة، وسعيها الأخرق

فى استرداد الاستقلال الذى نالته مصر . وما ظهر منها من التذبذب والنفاق ، والتظاهر تارة بمناصرة العرابيين، وطورا بتأييد الخديو ، وانضمامها أخيرا الى جانب الانجليز باعلانها عصيان عرابى والحرب قائمة .. فكان هـذا الاعلان ضربة شديدة للثورة ، وعضدا كبيرا للحملة البريطانية

كل هذه العوامل التى اجتمعت على مصر كان لها الأثر البالغ فى اخفاق الثورة..وكان لضعف السياسة الفرنسية وترددها حيال المسألة المصرية وترك الانجليز يتـدخلون وحدهم فى شؤون البلاد أثر كبير فى تطور الحـوادث ، اذ انتهزت انجلترا هذه الفرصة وانفردت باحتلال مصروانخماد الثورة وتثبيت قدمها فى البلاد

وليس من السهل على أمة تثور للحرية أن تتغلب على كل هذه العوامل مجتمعة ، ما لم تؤت قوة الجبابرة ، أو عقول العباقرة .. وانك لترى أن أكثر الأمم التى ثارت من أجل حريتها واستقلالها كان لها ، على العكس ، من العـوامل الخارجية ما ساعدها على تحقيق آمالها . فالثورة الامريكية لم تدرك ما نالته من النجاح ولم تحقق استقلال الولايات المتحدة الا بعد أن عاونتها فرنسا بجيشها وأسطولها . وايطاليا لم تحقق وحدتها وتتحرر من النير النمسـوى الا بمعاونة فرنسا العسكرية . واليونان لم تتحرر من النير التركى الا بمعاونة روسيا وفرنسا وانجلترا . وكذلك الأمم البلقانية عامة لم تنفصل عن تركيا وتحقق استقلالها الا بمساعدة أوربا

أما مصر فانها لم تحرم المعاونة من الخارج فحسب..بل تألبت عليها العوامل الخارجية وعاونت انجلترا على تحقيق أطماعها الاستعمارية

ويقيننا ان العـوامل الخارجية كانت أقوى من العوامل الداخلية فى اخفاق الثورة العرابية

فهرس

كتاب الهلال

سلسلة كتب شهرية قيمة بثمن زهيد

هى خطوة ثقافية كبيرة قامت بها دار الهلال لتيسير القراءة المفيدة للجميع .. ففى الخامس من كل شهر يصدر كتاب قيم لأحد كبار الكتاب فى الشرق والغرب ، فى اخراج أنيق وطباعة متقنة ، وبثمن زهيد لايرهق أحدا من عشـاق القراءة والاطـلاع . وقد صدر من هـذه السلسلة حتى الآن الكتب الآتيـة :

العدد	الكتاب	المؤلف	الموضوع
١	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد	تحليل لشخصية النبى محمد صلى الله عليه وسلم
٢	ماجلان : قاهر البحار	ستيفان زفايج	قصة طواف ماجلان حول الارض
٣	هرون الرشيد	أحمد أمين بك	الحياة العامة والخاصـة للخليفة هرون الرشيد
٤	أبو الشهداء	عباس محمود العقاد	قصـة استشهاد الامام الحسـين رضى الله عنه
٥	جنكيز خان	ف . يان	الحيـاة الحربيـة والسياسية لجنكيز خان
٦	قلب النسر	أوكتاف أوبرى	قصة غرام نابليون وجوزفين

العدد	الكتاب	المؤلف	الموضوع
٧	السيد عمر مكرم	محمد فريد أبو حديد بك	قصة حياة أول زعيم شعبى لمصر الحديثة
٨	غاندى : الثائر القديس	لويس فيشر	قصة أشهر زعيم سياسى روحى فى الشرق
٩	زعيم الثورة : سعد زغلول	عباس محمود العقاد	قصة الثورة فى حياة الزعيم الخالدسعد زغلول

ويمكنك الحصول على ما ينقص مجموعتك من هذه الكتب من دار الهلال شارع محمد بك عز العرب (المبتديان) بالقاهرة ، وشركة الصحافة المصرية بشارع النبى دانيال بالاسكندرية ، ومن شركة الصحافة المصرية بميدان المحطة بطنطا ، ومن السيد محمود حلمى صاحب المكتبة العصرية شارع المتنبى ببغداد ، ومن شركة فرج الله للمطبوعات بشارع بيكو طريق المالكى ببيروت ، ومن المكتب العام لتوزيع المطبوعات لصاحبه السيد على نظام ببناية العابد بدمشق ، ومن جميع المكاتب الشهيرة ، وأكشاك الصحف



رسالة دار الهلال

لدار الهلال غاية تسعى اليها ، كما أن لها خطة مرسومة تسير عليها . فأما الغاية فالمساهمة فى رفع المستوى الثقافى فى مصر والأقطار العربية ، وأما الخطة فالتوفيق بين قديمنا وحديثنا والجمع بين محاسن الشرق ومحاسن الغرب : فلا جمود ولا طفرة ، بل هو تمش وئيد فى سبيل الرقى الوطيد

ودار الهلال تؤدى واجبها بهدوء وعزيمة معا ، مطمئنة الى ما قد أنتجت ، متطلعة الى اتقان ما تنتج ، لا تداهن فريقا ولا تتملق كبيرا ، ولا تتساهل قيد شعرة فيما تعتقده حقا وصوابا

ودار الهلال تؤمن ببقاء العمل الصالح ، واخفاق ما عداه . وهى لذلك لا تحفل بالسفاسف والصغائر ، بل ترحب بكل فكرة نزيهة وتعضد كل جهد شريف

وشعارها على الدوام : الى الامام ..

وكلاء مجلات دار الهلال

بيروت ولبنان : السيد خليل طعمه ـ السور ـ العسيلى ·
المدخل الشمالى ص · ب ٥٤٣ بيروت

حلب : الشيخ طاهر النعسانى

حماه : السيد سعيد نجار

اللاذقية : السيد نخله سكاف

حمص : السيد عبد السلام السباعى ـ ص·ب ٤٩

مكة المكرمة : السيد هاشم بن على نحاس ـ ص·ب ٩٧

البحرين والخليج الفارسى : السيد مؤيد أحمد المؤيد ـ مكتبة المؤيد ـ البحرين

البرازيل : Snr. Jorge Suleiman Yazigi,
Rua Varnhagem 30,
Caixa Postal 3766,
Sao Paulo, Brasil

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
15 Queensthorpe Road, London, S.E. 26.

هذا الكتاب

فى الوقت الذى تجمع فيه مصر حكومة وشعبا على التخلص من الاحتلال الانجليزى، نقدم للعبرة والتاريخ قصة أحمد عرابى باشا. فقد كان زعيم الامة المصرية فى فترة من فترات التاريخ الحديث . وكان لزعامته والأحداث التى وقعت أثناء هذه الفترة تأثير عظيم فى حياة مصر السياسية والقومية

وقد تحرى الاستاذ الجليل عبد الرحمن الرافعى بك فى هذا الكتاب الحقائق التاريخية الصحيحة، ولم يكن كبعض الرواة مادحا مع المادحين، أو قادحا مع القادحين .. بل درس سيرة عرابى وحللها تحليلا نزيها . واتخذ من أعماله حكما عليه، فسجل محاسنه ومآخذه .. وخير التراجم وأصدقها ما أبرز حياة الزعماء ورجال التاريخ بما لهم وما عليهم

ولا ريب أن من حق الجيل الحاضر أن يقف على سيرة عرابى باشا بما فيها من محاسن واضداد، وأن يقدمها اليهم مؤرخ وطنى صادق، تخصص فى دراسة الحركة القومية منذ الحملة الفرنسية حتى الآن، ووضع عنها عدة مجلدات . وقد ألف هذا الكتاب بأسلوب سهل شائق لينتفع به كل قارىء من مختلف الطبقات



